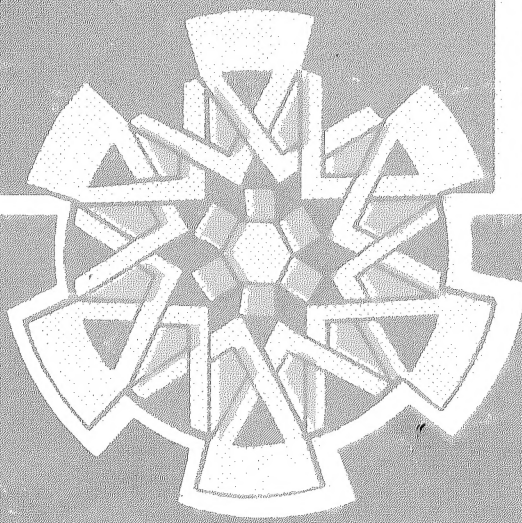
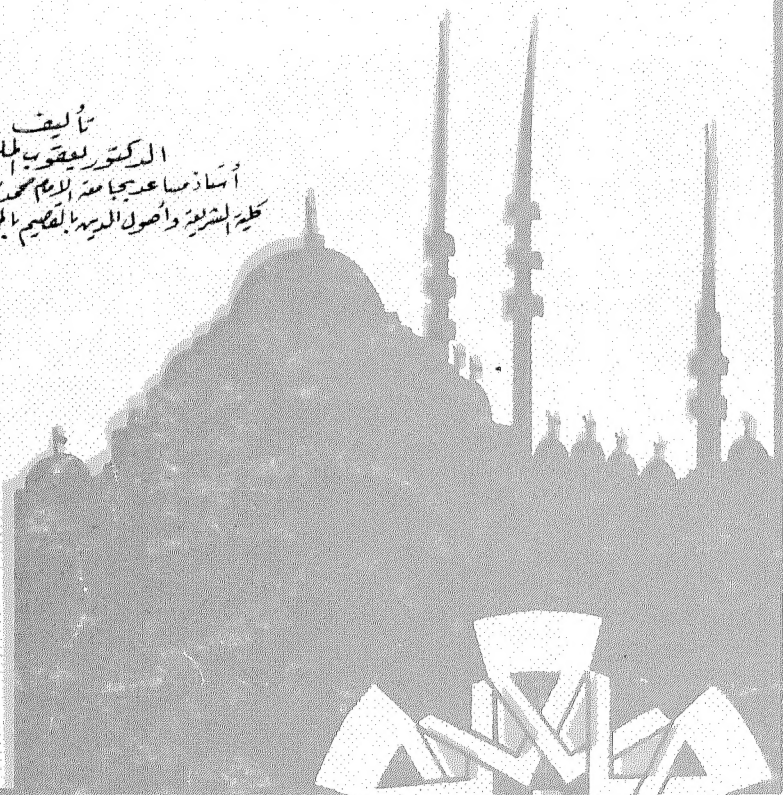


الأخلاق في الإسلام

مع المقارنة بالديانات السماوية والأخلاق الوضعية

تأليف
الدكتور يعقوب الميجي
أستاذ مساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود
كلية الشريعة وأصول الدين بالقسم بالمملكة العربية السعودية



مؤسسة الثقافة والجامعة
٣٥٢٢٤ - الإسكندرية



الأخلاق في الإسلام

مع المقارنة بالديانات السماوية والأخلاق الوضعية

تأليف
الدكتور يعقوب بلالجي

أستاذ مساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم بالملكة العربية السعودية

٥١٤٠٥ - ١٩٨٥ م

مكتبة الثقافة الجامعية
٢٠١١٥ (١٩٨٥ م)

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
الفصل الأول	٥
في التعريف بالأخلاق وعلاقتها بالشريعة الإسلامية والعلوم الأخرى	
علم الأخلاق والقانون	١٤
أولاً - من حيث موضوع القانون والأخلاق ومجالها	١٥
ثانياً - الجزاء في القانون والأخلاق	١٦
الغاية من الأخلاق ومن القانون	٢٢
الأخلاق وعلم الاجتماع	٢٦
الأخلاق والعلوم الأخرى	٢٧
أولاً : بالنسبة للأخلاق في الإسلام	٢٨
١ - المصادر والأصول	٢٨
٢ - العلوم المساعدة	٣١
ثانياً : بالنسبة لعلم الأخلاق الوضعي	٣١
ماهية الأخلاق	٤٥
خصائص الخلق	٥٨
منهج التكوين الخلق	٦٥

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني	٧٥
أهمية الأخلاق	
الفصل الثالث	١٠٩
أقسام الأخلاق	
المبحث الأول	٨٩
الأخلاق البسيطة والمركبة	
المبحث الثاني	٩٢
— التخلق بأخلاق الله تعالى	
المبحث الثالث	٩٤
أخلاق الفكر	
المبحث الرابع	٩٧
— أخلاق السلوك	
المبحث الخامس	١٠١
الأخلاق الفردية	
صور الأخلاق الفردية	١٠٤
المبحث السادس	١٠٧
الأخلاق الاجتماعية	
١ — الأخلاق بالنسبة للأسرة	١١٠
٢ — الأخلاق بالنسبة للمجتمع	١٠٠
أولاً : لوقاية المجتمع من الضعف والإهمال	١١١
ثانياً : عوامل قوة المجتمع ووحدته	١١٢

الموضوع	الصفحة
المبحث السابع	١١٣
أخلاق الحكم	١١٣
المبحث الثامن	١١٥
أخلاق السياسة	١١٥
المبحث التاسع	١١٨
أخلاق العلماء	١١٨
المبحث العاشر	١٢٤
أخلاق النساء	١٢٤
المبحث الحادى عشر	١٢٧
الأخلاق النظرية	١٢٧
المبحث الثانى عشر	١٣٥
أخلاق المتأفقين	١٣٥
صفات المتأفقين	١٣٦
الفصل الرابع	١٤٥
— خصائص النظرية الأخلاقية فى الإسلام	١٤٥
المبحث الأول	١٤٦
خصائص النظرية الأخلاقية فى الإسلام	١٤٦
المبحث الثانى	١٥٣
تطبيقات النظرية الأخلاقية فى واقع المجتمع الإسلامى	١٥٣
نشأة المجتمع الإسلامى وعوامل قوته	١٥٣

المرضوع	الصفحة
المطلب الأول : نشأة المجتمع الإسلامي . . .	١٥٤
المطلب الثاني : العقبات والتحديات التي واجهها	
المجتمع الإسلامي	١٥٩
المطلب الثالث : سمات المجتمع الإسلامي وصفاته	١٦٣
الفرع الأول : التلاحم والتآلف . . .	١٦٤
• الثاني : حيوية المجتمع الإسلامي . . .	١٦٧
• الثالث : مثالية المجتمع الإسلامي . . .	١٦٩
• الرابع : النمو المطرد للمجتمع . . .	١٧١
• الخامس : غلبة روح الجهاد . . .	١٧٣
• السادس : نقطة الضمير . . .	١٧٤
• السابع : تحقيق المساواة . . .	١٧٦
• الثامن : إبتغاء الدار الآخرة . . .	١٧٨
• التاسع : الإيثار . . .	١٨١
• العاشر : الآخرة . . .	١٨٤
الفصل الخامس	١٨٩
بعض القيم الأخلاقية الإسلامية . . .	
أولاً : الصبر	١٩٧
ثانياً : الصدق	١٩٧
ثالثاً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . .	٢٠٠
القسم الثاني	٢٠٥
الأخلاق المقارنة	

الموضوع	الصفحة
المبحث الأول	٢٠٨
الامخلاق فى الديانة اليهودية	٢٠٨
الفرع الأول : الفكر الاخلاقى عند متراط	٢٢٤
» الثانى : آراء أفلاون	٢٢٧
» الثالث : آراء أرسطو	٢٣٠
» الرابع : الأبيقوريون والامخلاق	٢٣٢
» الخامس : الروافيون والامخلاق	٢٣٥
المبحث الرابع : دراسة ممارسة حزل بعض القيم الامخلاقية	٢٣٩
المطلب الأول : الفضيلة	٢٣٩
المطلب الثانى : الضمير	٢٤٧
المراجع العربية	٢٥٥
المراجع الاجنبية	٢٥٦
فهرس الكتاب	٢٥٧

تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله محمد الصادق
الأمين ، ذى الخلق العظيم ، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديهم إلى يوم الدين
وبعد :

فإن موضوع الأخلاق في الإسلام هو قسم من مادة : « الثقافة الإسلامية »
التي أفوم بتدريسها للطلاب في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم في
المملكة العربية السعودية وقد بدا لي أن موضوع الأخلاق هو أهم موضوعات
مادة الثقافة الإسلامية وأولاها بالعناية ، بل ولقد تمكنت أن لو اقتصررت الثقافة
الإسلامية على علم الأخلاق فذلك أنفسح للطلاب وأجدي للجمع ، لأنهم
لا يجدونها في أقسام الشريعة وفروع الفقه التي يدرسونها خلال سنى الدراسة
الأربع بكليات الجامعة ، أما ما عدا « الأخلاق » من موضوعات الثقافة الإسلامية
فإنهم يجدونه في أكثر من منهج من مناهج العلوم الإسلامية وهذا ما حدا بالبعض
إلى الدعوة إلى إلغاء تدريس مادة الثقافة الإسلامية في الكليات التي تدرس فيها
العلوم الشرعية أى كليات الشريعة وأصول الدين وأن يصبح تدريسها قاصرا على
الكليات التي لا تدرس فيها العلوم الشرعية كالكليات العملية وكليات العلوم
الاجتماعية .

ولا يكاد المرء يجد نقدا ذا بال يوجه إلى ذلك الرأى أو يعيب إتجاهه ، وإنما
النقد كله يوجه إلى مناهج مادة الثقافة الإسلامية والتي أوصلتها إلى هذا المظهر
الذى ينم عن كل وجود ...

فقد جاء منهاجها على مدار سننى الدراسة الأربع آخذاً من كل أقسام الشريعة :
أى من العقائد والمعاملات والأخلاق بينما كان الأولى أن يسلك المنهج أحد
سبيلين :

(١) فإما أن يأخذ موضوعات من كل أقسام الشريعة على أن تكون مما لا
تتناوله منهاج المواد الأخرى ، مثل موضوع الأخلاق .

(٢) وإما أن يأخذ موضوعات تتصل بعلوم الشريعة دون أن تكون جزءاً
منها ، مثل القيم والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية والسياسية الإسلامية
والثقافة والحضارة ولكنها — أى مادة الثقافة الإسلامية — بعدت عن هذا
وذاك ، وامتلأت بموضوعات من هنا وهناك لا تسكاد تربطها رابطة ، أو حتى
تجمعها صلة ، فمن الطبيعي أن نقصر بعد بضع سنين عن النمو والإثراء وأن تمتد
إليها اليد بالتقليص والتحديد .

وحين كنت أعد هذا المؤلف للطبع ، طالعت ما تقرر فى جمهورية مصر
العربية من تدريس مادة الثقافة الإسلامية فى جامعاتها وكلياتها ، وتمنيت حرصاً
على الإسلام وعلى مصلحة شباب المسلمين الباحثين — أن تتلافى منهاج تلك المادة
عوامل الخلل والقصور التى تحولها إلى مادة لا يتجاوز مسارها صفحات المؤلفات
والمذكرات ثم أوراق الامتحانات ، دون أن تترك أثراً فى فكر الطالب ودون
أن تمس وجدانه وتثير شعوره وتغير شخصيته إلى الأحسن . وتمنيت أن
يتذكر واضعو منهاجها أختارها من قبل ، هى مادة المجتمع العربى وما لحق
بها وما آلت إليه ...

وبالنظر إلى ما أشرت إليه فيما سبق ، فقد أرجأت طبع كتاب : الثقافة
الإسلامية بعض الوقت ، وآثرت أن أقدم هذا المؤلف عن الأخلاق فى الإسلام ،

أولاً على أن يعقبه مؤلف الثقافة الإسلامية حين يشاء ربى :

والله أسأل أن ينفع بكتابه هذا وأن يحزني خيرا ، وأن يمنني الخطأ
وهو الزلل ، أنه سبحانه أكرم مسئول وخير مجيب .

دكتور يعقوب المليجي

أستاذ مساعد بكلية الشريعة وأصول الدين

بالقصيم — جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الفصل الأول

في التعريف بالأخلاق وعلاقتها بالشريعة الإسلامية والعلوم الأخرى

الشريعة هي الأحكام التي شرعها الله لعباده على لسان رسول من الرسل عليهم
الصلاة والسلام ، وتنقسم الشريعة الإسلامية إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ما يتعلق بالعقائد الأساسية مثل الأحكام المتعلقة بآيات الله تعالى
وهي صفاته وبالإيمان به وبرسوله وباليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ، وقد
تكفل بهذا القسم « علم الكلام » .

الثاني : ما يتعلق بتهديب النفوس وإصلاحها كالأحكام التي تبين الفضائل
المختلفة مما ينبغي أن يتحلى به الإنسان مثل الصدق والأمانة والإيثار والوفاء بالعهد
والشجاعة ، وكذلك بيان الرذائل التي ينبغي أن يتحلى عنها الإنسان كالسكذب
والخيانة والاثرة (الأنانية) وخلف الوعد والجبن وغير ذلك مما تكفل به
« علم الأخلاق » .

الثالث : ما يتعلق ببيان ما للناس من أعمال كالصلاة والزكاة والحج والصوم
والبَيْع والهبة والابحار والرهن والزواج والطلاق والنفقة والميراث وغيرها ،
وقد انفرد بهذا علم خاص يسمى علم الفقه وهو العلم بالأحكام الشرعية العملية
المكتسبة من أدلتها التفصيلية . ويشمل الفقه مجموعة الأحكام العملية المشروعة في
الإسلام سواء كانت شرعية من نص صريح من القرآن الكريم أو السنة أو من
الاجماع أو باستنباط المجتهدين من النصوص والقواعد العامة .

ومن ذلك يتضح أن الشريعة أعم من الفقه الذي هو جزء منها ، ثم أن الفقه بدوره ينقسم إلى قسمين : هما العبادات والمعاملات ، فما كان الغرض منه التقرب إلى الله وشكره وابتغاء رضوانه وحسن ثوابه في الدنيا والآخرة فهو من قسم العبادات وذلك مثل الصلاة والصيام والحج والعمرة والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا والنذر في القربات .

وأما ما كان الغرض منه تحقيق مصلحة الفرد والمجتمع وتنظيم العلاقات التي تربط الأفراد والجماعات ، وتنفع الناس في حياتهم ومعاشهم فهو من القسم الثاني أي المعاملات (١) .

فإذا أردنا أن نحدد موقع الأخلاق في الشريعة الإسلامية فيمكننا القول أنها ليست قسماً كبيراً مستقلاً من أقسام الشريعة الإسلامية فحسب ، بل أنها في جملتها تعد أحد أصول الدين الإسلامي الحنيف ، بل أنها تعد أهم وأخطر أركان دين الله في مختلف الشرائع وعلى مر العصور ، فالشرائع السماوية تتعاقب ويتم فيها النسخ والتبديل والتغيير بحيث يحى كل شريعة مناسبة للعصر الذي نزلت على يد رسول الله فيه ، يقول تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » أي جعل الله تعالى لكل قوم من أهل الملل المختلفة طريقاً يسلكونه يتناسب مع حالهم ويثبتهم في أسلوب واضح بلغتهم وطرائق استعملهم والمنهاج هو الطريقة التي اختصت بها كل شريعة والأسلوب الذي يتم به إبراز أحكامها .

أما الدين فإنه يعنى الأصول العقائدية الثابتة بالبراهين القطعية التي لا يمكن وقوع النسخ والتبديل فيها ولا يمكن أن تختلف في حقائقها ملة عن ملة ولا شريعة

(١) المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي وقواعد الملكية والعقود فيه

للدكتور محمد مصطفى شلبي طبعة ١٣٧٩ - ١٩٧٩ صفحة ١٣ .

عن أخرى ويلحق بتلك الأصول العقائدية الثابتة في كل الشرائع والديانات. الأمر بأمهات الفضائل الخلقية التي لا اختلاف بين العقول على حسنها مثل العدل والإحسان والصدق والبر والعفة والشجاعة والنهي عن أضدادها التي لا تختلف العقول على قبحها ودمها مثل الظلم والإيذاء والكذب والجبن ، كما يشمل اصطلاح الدين إلى جانب تلك الفضائل الخلقية الثابتة دعائم العبادات الأساسية مثل الصلاة والزكاة والصوم . وهذا القسم من الدين الإسلامي لا يختلف عما جاء فيما سبقه من الأديان ، ولا فرق فيه بين شريعة وأخرى ، لأنه دعوة جميع الأنبياء والمرسلين ، وهذا المعنى هو المراد بالإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والرسل لأنه دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره .

يقول تعالى : إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم (١) .

ويقول تعالى : ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين (٢) .

وهذا المعنى للدين الموحد لجميع البشر وفي كل العصور ، والذي سماه الله تعالى بالإسلام هو الذي وصى به خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنيه كما وصى به حفيده يعقوب عليه الصلاة والسلام بنيه كذلك وقص علينا الله تعالى هذه

(١) آل عمران آية ١٩ ،

(٢) آل عمران آية ٨٥ .

هذا ويلاحظ أن لفظ الدين لا يعنى الدين السماوى فحسب بل هو يستعمل للدلالة على أى دين سماوى أو وضعى فلكافرين والمشركين بينهم . يقول تعالى في سورة الكافرون : لكم دينكم ولى دين .

الموصايا في القرآن الكريم فيقول في سورة البقرة : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وأنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب : يا بني إن الله اصطفى لكم الدين . فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وآله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق آلها واحداً ونحن له مسلمون .

وقد علم من هذه الآيات أن لفظ الإسلام والمسلمين في كلام إبراهيم وإسماعيل ويعقوب يراد به ذلك المعنى الذي تقدم ذكره فن لم يكن متحققاً بهذا المعنى فليس بمسلم أى ليس على دين الله القيم الذى كان عليه جميع الأنبياء والمرسلين . روى الطبري عن قتاده في تفسير قوله : إن الدين عند الله الإسلام ، قال : والإسلام أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله دين الله الذى شرعه لنفسه وبعث به رسوله ودله أوليائه ، لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به (٢) .

وإذا كان قد اتضح لنا عما سبق أن الأخلاق أحد أقسام الشريعة الإسلامية الثلاثة الكبرى ، وإنما في نفس الوقت أحد أقسام دين الله المنزل على كافة أنبيائه ورسله وأصل من أصوله لم يتخلف في واحد منها ، فإننا سوف نعجب لأنصراف علماء المسلمين وفقهائهم عن علم الأخلاق وعدم العناية بالبحث والتأليف فيه مثلاً فعملوا في قسمي الشريعة الباقيين : أى علم الكلام وعلم الفقه ، فهذان العلمان

(١) البقرة ١٣٠ — ١٣٤ هـ

(٢) الموسوعة : في سماحة الإسلام . محمد الصادق عرجون . المجلد الأول .

كان حظها من النظر والبحث والاجتهاد حظاً عظيماً ، فوضع الإمام الشافعي لعلم
الفقه علماً يضبط قواعده وينظم تناسوله ويوصل أحكامه هو علم أصول الفقه ،
كما أفاض الفقهاء والمحدثون والعلماء في تبويب مسائل الفقه وجمع موضوعاته في
أبواب مستقلة مرتبة ، كما أن علماء الكلام صالوا وجالوا في ميدهاته واستعانوا
في أبحاثهم بأفكار وآراء بعض فلاسفة اليونان ، حتى نشأ مع علم الكلام علم مناظر
ومعارن له هو علم الفلسفة ، وقد ظهر ميل العرب إلى الفلسفة بعد الفتوح
الإسلامية خاصة للعراق والجزيرة حيث كان العنصر الآرامي فيها منذ بضعة
قرون يأخذ بنصيب من علوم اليونان ، وكان مجيء الدولة العباسية واتخاذها
العراق مقراً للخلافة ، عاملاً ذا أثر بعيد في ذيوع الفلسفة وانتشار مبادئها
ونظرياتها ، لأنها فتحت الباب للأعاجم للدخول في مناصب الدولة ثم التدخل في
شؤونها بعد ذلك ، وكان الخليفة أبو جعفر المنصور أول من فتح باب الترجمة إلى
العربية فنقل ابن المقفع بعض كتب المنطق لأرسطو ثم جاء الخليفة المأمون
فأنشأ دار الحكمة عام ٢١٧ هـ وجعل رئاستها الحنين بن إسحق الذي امتدت رئاسته
بعد المأمون في عهود حكم المعتصم والواثق والمتوكل وكان يعاونه في الترجمة ابنه
إسحق وابن أخته ابن الحسين وطائفة من المترجمين ، وكان حنين بن إسحق قد نقل
فيما نقل عن أرسطو كتاب الأخلاق ... وهكذا كانت الفلسفة اليونانية باباً
دخلت منه نظريات الفلاسفة اليونانيين في الأخلاق إلى الفكر الإسلامي وأثرت
فيها آثاراً ظاهرة ، وكذلك وجدنا أبا نصر محمد الفارابي الفيلسوف الإسلامي
المعروف ، يشرح كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس الذي ألفه أرسطو وهذا
العصر الذي شاهدنا فيه تأثير الفلسفة اليونانية على الفكر الإسلامي هو نفسه
العصر الذي ولد فيه علم الأخلاق لدى مفكرى المسلمين وعلمائهم ، فلم يمتنع بنقاء
المنشأ ولا بصفاء المنهج بل خالطته وشابته آراء وأفكار لفلاسفة ومفكرين عاشوا

قبل الإسلام بعشرات القرون ، بل نشأت مدرستان كانت كلتاهما معبراً للفلسفة اليونانية إلى الفكر العربى والإسلامى الأول فى الشرق لإشتهر منها يعقوب الكندى وحنين بن إسحق وثابت بن قرة وأبو زيد البلخى ويحيى بن عدى وفلاسفة البصرة وأخوان الصفا وأبو نصر الفارابى والرئيس ابن سينا والرازى والجرجاني وتلاميذهم وأما المدرسة الثانية فكانت فى الغرب الإسلامى وقد حمل لواءها ابن رشد الذى قام بتلخيص كتاب الأخلاق وتلخيص كتاب النفس لأرسطو (١) .

وفى عدا ذلك لا نكاد نعثـر على مؤلفات كافية فى علم الأخلاق الإسلامية ، أى أننا ليس لدينا سوى هذا التراث من علم الأخلاق الذى تأثر بالفلسفة اليونانية تأثراً عميقاً ، وحتى أولئك القليل من المفكرين والعلماء المسلمين الذين حاولوا أن يصوغوا علم أخلاق إسلامى مستقل فإنهم لم يستطيعوا التخلص تماماً من سيطرة الفكر الأرسطاطاليسى على الأخلاق ونظريته فيها خاصة آرائه فى الفضيلة ومعناها وفكرة الوسط العدل فيها وأنواع الفضائل الخفية ومسألة "تضمير ... ولعل هذا التأثير يبدو واضحاً فى كتابات ابن مسكويه فى الأخلاق .

وقد يبدو لنا أمراً غريباً حقاً هذا العزوف عن علم الأخلاق فى الفكر الإسلامى ولدى علماء المسلمين وعدم قيام علم أخلاق إسلامى أصيل نقي المصادر يرجع بمحذوره إلى الشريعة الإسلامية وحدها ولا تخالطه أفكار وفاسفات اليونان وحتى ابن خلدون فى مقدمته حين تكلم عن العلوم وتقسيماتها لم يذكر من بينها علم الأخلاق ...

(١) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس - تأليف أرسطوطاليس - نقله إلى العربية أحمد لطفي السيد - الجزء الأول - مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣ - ١٩٢٤
- تصدير الترجمة -

على أن أخطر ما جناه الفكر الإسلامى من تأثره فى مجال علم الأخلاق بالفلسفات اليونانية وغيرها من الفلسفات الشرقية ، هو إنفلاته من نطاق الشريعة الإسلامية . وإتجاهه إلى أن يصبح أحد العلوم الوضعية ، ونقطة الخطر فى هذا الاتجاه تكن فى أن الأخلاق فى الإسلام هى مجموعة أحكام سماوية ولا تستند إلى العقل المجرد وحده ، وحتى فيما يتعلق بالفضائل الخلقية التى يتفق فيها الفكر الوضعى مع نظائرها فى الشريعة الإسلامية ، فإن البرن يبدو شامعاً بين النوعين ، لافتقار الأخلاق الوضعية إلى ركن النية فى العمل الأخلاقى ، وهو ركن تصل أهميته وخطورته إلى حد تجريد الأفعال الأخلاقية من كل قيمة فى ميزان الشريعة الإسلامية . ثم أن محاولة الإقدام على أن نصنف أى مؤلف فى الأخلاق على أساس المنهج العلمى الوضعى هى محارلة ترتبط بالفشل والتناقض فى خطواتها الأولى ، ويمكن إرجاع ذلك إلى منهجية البحث العلمى وعدم جدواها فى مجال الأخلاق الإسلامية ، فإننا يمكن أن ننظر إلى كل ظاهرة أو موضوع بحث فى أى علم وضعى ، من ناحيتين متباينتين : ناحية نراعى فيها الشيء كما هو ، كيف يتكون وكيف يرتبط بباقى الأشياء ، أى أن تناوله يتم من الناحية الوصفية ، وهذا ما نجسده فى علم النبات أو الحيوان أو الطبيعة أو الكيمياء أو الجغرافيا أو الجيولوجيا وغيرها . أما الناحية الثانية التى يمكن بها تناول موضوعات العلم فهى التى تتم فيها مقارنة الشيء الكائن بما يجب أن يكون عليه ، أى النظر فى مدى إقترابه من المثل الأعلى ، أو بهارة أخرى النظر إلى مسائل العلم من ناحية القيمة التى يضيفها الباحث فيه على المسألة أو الظاهرة موضوع البحث . ونحن نطبق هذين المنهجين فى دراسة العلوم نجد أماناً قسامين أو نوعين من العلوم :

- ١ — علوم وصفية تنظر إلى الأشياء كما هى .
- ٢ — علوم معيارية أو تقديرية يحكم فيها على الأشياء بالأراء الشخصية

هو هذا النوع من العلوم يمكن أن يطلق عليه كذلك العلوم النقدية أو المعيارية وعلم الأخلاق هو من هذا النوع الأخير فهو يدرس الخلق الفردى والتصرفات الشخصية لا من حيث وصف أسبابها والاكتفاء بذكر علاقاتها بالتصرفات العامة أو تحليلها كظواهر طبيعية بل هو يدرسها من حيث أن لها قيمة معينة ، أو علاقة بمستوى معين أو مثل أعلى خاص .

وهكذا سوف نجد أن علم الأخلاق الوضعية ، مثله كمثل العلوم المعيارية الأخرى ، لا يحمل في ذاته أحكاما كلية عامة بل يعتمد على عوامل ذاتية توجد في نفس الفرد الذى يصدر الأحكام الخلقية ولما كان الأفراد يختلفون في آرائهم وتقديراتهم وتقييمهم للأمور ، فإن ذلك يؤدي إلى تباين الآراء الخلقية الواحدة ، وهكذا وجدنا اختلاف آراء المفكرين في الأخلاق الوضعية ، ليس بالنسبة للمسائل أو المسالك الخلقية فحسب بل وبالنسبة للغايات النهائية للسلوك الخلقى كذلك ، أو المثل العليا التى ينبغى توجه الأفراد إليها ، فلو فرضنا اتفاق المفكرين على أن الغاية من السلوك الخلقى هى الخير فإننا نجد اختلاف وجهات النظر حول طبيعة الخير وتحديد ماهيته فهناك من يرى أن الخير هو الفضيلة وهناك من يرى الخير فى اللذة ويراه ثالث فى المنفعة ويتصوره غير أولئك فى أداء الواجب للواجب ، وهكذا نجد تضارب الآراء بحسب المثل الأعلى الذى يعتنقه الفرد وبحسب المعنى الذى يضفيه الفرد لكلمة فعل خلقى (١) ...

هذا بالنسبة للفشل فى الاتفاق على أحد المسائل أو المبادئ الخلقية ، أى الاخفاق فى تحديد دراسة موضوعية يتفق على صوغها المفكرون الاخلاقيون ،

(١) مبادئ الأخلاق تأليف الدكتور ماهر كامل والدكتور عبد المجيد عبيد للترقيم — الطبعة الأولى ١٩٥٨ مكتبة الانجلو المصرية ص ٧ .

يبقى أن نبرز الفشل في منهجية البحث الأخلاقي الوضعي نفسه ، وهو فشل يصل إلى حد نفى صفة العلم عن موضوع الأخلاق ، بحيث لا يمكن إعتباره علماً من العلوم بحسب المقاييس المتعارف عليها في تحديد ما يعتبر من العلوم وما لا يمكن إعتباره داخلاً فيها ، فإن من أهم مباحث علم الأخلاق ما يتعلق بالضمير وهو مما لا يمكن ملاحظته ومشاهدته والحكم عليه ، وكذلك الأمر بالنسبة للبواعث والنوايا التي تسبق الأفعال أو تقارنها والآثار النفسية التي تترتب على التصرفات الخلقية وتعبها مثل الشعور بالحزن أو الأسف أو الندم أو الرضى .

وبذلك لا نجد أمامنا للبحث في الأخلاق الوضعية إلا التأملات الذاتية والآراء الشخصية للفيلاسوف أو المفكر الأخلاقي ، وهو ما حدا ببعض المفكرين إلى إنكار أن الأخلاق علم مستقل والذهاب إلى أنها مجرد فن العيش الهانئ أو صنعة أو تطبيق للعلم ومن دعاة ذلك الرأى فيكتور بروشار : وقد ظهر في مقالاته التي نشرت عام ١٩٠١ و ١٩٠٢ بعنوان الأخلاق القديمة والأخلاق الحديثة وكذلك ما كتبه عن الأخلاق التوفيقية ومنهم أيضاً مؤلفات السيد / جول ديم جوتييه ذات العناوين المختلفة مثل تبعية الأخلاق وإستقلال السواك ، وقد إنتهى ذلك كله بعلم الأخلاق الوضعية إلى أن يصبح علماً يحاول العلماء إقامته على قدميه مستقلاً دون جدوى وإستمرت المحاولات لفترة طويلة تحاول إقامته معتمداً على غيره من العلوم التي ثبت وجودها في مجال اندراسات الإنسانية والإجتماعية ، لكل يستفيد من أبحاثها ، فحاول البعض إستنباط علم الأخلاق من علم الحياة وحاول البعض الآخر أدماجه في علم الإجتماع ، وعند أولئك وهؤلاء ، مهما أختلفوا ، يبدو علم الأخلاق الوضعية وكأنه تطبيق بهت وتبسيط لمبادئ تقررت في واد آخر أو وضعت وهبشت في حرية بواسطة الإرادة الفردية ، ومعنى هذا أن علم الأخلاق قد أخفق وتوارى خلف معارف منهجية في علم النفس .

أو علم الاجتماع أو علم الحياة (١) وسيوضح لنا فيما يلي أن علم القانون لا يمكنه أن يفتنى عن علم الأخلاق وسوف نبين فيما يلي ما يفتنى من أوجه الشبه وما بينهما من أوجه الخلاف .

علم الأخلاق والقانون :

قامت القوانين منذ قيام المجتمعات الإنسانية وعرفت "لخضوع للنظام الاجتماعي ، وقد تضمنت القوانين منذ نشأتها مجموعة قواعد عامة تطبقها الهيئة الحاكمة التي بيدها السلطة وتملك توقيع الجزاء على من يخرج عليها ، والغاية من وضع القوانين هي تنظيم العلاقات المختلفة بين أفراد المجتمع بما يحفظ مصلحته ومصلحة أفرادها ويحافظ على الاستقرار والنظام فيه .

وقد يكون القانون من وضع المجتمع نفسه ، عن طريق جماعة يختارها من بين أفرادها ويفوضها في سلطة التشريع ، وقد يكون من وضع السلطة الحاكمة - سواء كانت جماعة أو بضعة أفراد - وقد يضعها فرد واحد يحكم المجتمع ويستبد بالسلطة ويستقل بحق التشريع فيه ، وأخيرة فقد يكون القانون نابعا عن الأعراف والعادات والتقاليد التي سار عليها المجتمع وألف أفرادها الخضوع لها والامتثال لأحكامها ويتمثل ذلك على وجه الخصوص وبصورة أوضح في المجتمعات القبلية والبدوية وإن كان العرف له دوره الظاهر في إيجاد القواعد القانونية في كافة المجتمعات بل أن له دوره الذي لا ينكر في مجال الفقه الإسلامي وفي أحكام المعاملات على وجه خاص وذلك طالما أنه عرف غير فاسد ولا يتعارض مع قاعدة شرعية .

(١) المشكلة الأخلاقية والمفكر المعاصر - تأليف د. بارودي وترجمة محمد غلاب - ص ٣ .

وقد ظل القانون والأخلاق متداخلين لم تنحدد معالم التفرقة بينهما بشكل واضح منذ القرن الثامن عشر ، حيث استقر الأمر على التفرقة بينهما تفرقة تقوم على أساس اختلافهما من حيث الموضوع أو المجال الذى يتناوله كل منهما ثم من حيث الأثر أو الجزاء الذى يترتب على مخالفتها وأخيرا من حيث الغاية التى ينشد كل منهما تحقيقها ، وسوف نشير إلى هذه الأنواع الثلاثة من الفروق بينهما فيما يلى :

أولا : من حيث موضوع القانون والأخلاق ومجالهما :

يرى البعض أن القانون بحاله الحكم على الأعمال الظاهرة من سلوك الإنسان ، والذى يتم تنفيذها فعلا أو يبدأ الشروع فى هذا التنفيذ ولذلك يعاقب القانون على جرائم القتل والسرقة والغش إذا تم تنفيذها من قبل الجانى أو إذا شرع فى ذلك التنفيذ شروعا كان يمكن أن يودى إلى تمام الجريمة لولا أنه أوقف أو خاب أثره بسبب لا يد للجانى فيه .

ولكن القانون لا يعاقب على مجرد النوايا فى تلك الجرائم وغيرها ولا يأخذ من يفكر ويتمنى تنفيذها طالما أنه اقتصر على مجرد التفكير والشعور ولم يصل إلى مرحلة التنفيذ أو البدء فيه ...

أما الأخلاق فإن مجالها أوسع بكثير من مجال القانون فى هذا الأمر ، فالأخلاق من أهم موضوعاتها الجوانب الباطنية فى النفس وما يتصل منها بالشعور والضمير وتهتم الأخلاق بالنوايا والنية فى الإسلام أهم من العمل نفسه ، لأن العبرة بها والمحول عليها وليس على العمل الظاهر وحده ، وفى ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« نية المرء خير من عمله ، ويقول : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى »

فالقانون لا يحاسب الأفراد على الحقد والكراهية والحسد والبغض والتشقي
وعدم الرحمة وغير ذلك من المشاعر السيئة والقبیحة ، ولكنها بما يخضع للتجريم
والتأنيب في مجال الأخلاق :

ثانيا : الجزاء في القانون والأخلاق :

تقرن كل قاعدة قانونية بجزاء يوقع على من يخالفها أو يخرج عليها ويتفاوت
هذا الجزاء بحسب تقدير الواقعة وخطورة الفعل وآثاره ، وقد يكون هذا الجزاء
عقوبة توقع على مخالف القانون في بدنه كالحبس أو السجن أو الإعدام أو يعاقب
في ماله بالغرامة أو المصادرة أو الاتلاف (كما في الأغذية الفاسدة) أو قد
تكون العقوبة مجرد حرمان من الحقوق والمزايا التي كان يمكن له الحصول عليها
لولا ما ارتكبه من جرم كالمنع من السفر أو الحرمان من الوظيفة أو بطلان
التصرف في ماله إذا كان مسفيا لا يحسن التصرف فيه ،

وهكذا تدور العقوبة مع نصوص القانون وجودا وعدما ، فإذا وجد
القانون وجد معه الإلزام به والجزاء الذي يرتبه على مخالفته ، ثم أن ذلك يعنى
أنه لا عقوبة ولا جزاء بخير نص من القانون ، مهما كان وصف الفعل وتقدير
قيمته وآثاره بالنسبة للفرد أو المجتمع .. فالقوانين لا تعاقب من يتعزى ويظهر
ما يعد عورات في جسمه تبدو للناس في الطرقات أو على الشواطئ ، أو أما كن
اللهو أو العمل ، في الكثير من المجتمعات ، والعديد من الدول الأوروبية لاتعاقب
القوانين على الزنا أو شرب الخمر أو لعب الميسر أو الاجهاض ، ولا يشعر
الأفراد الذين يفترون تلك الأفعال بأى شعور من الأثم أو الألم أو الحرج أو
خاتلة النظام العام والآداب لأن القوانين لا تجرمها ولكن الأمر في الأخلاق
يختلف عن ذلك ، فإن كل فعل أخلاقى ليس له جزاء واحد فحسب بل له ثلاثة
أنواع من الجزاء :

الجزء الاول : ينتظره المرء من الله تعالى ثواباً حسناً في الدنيا والآخرة ،
يقول تعالى : « فأتاكم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » ويقول سبحانه :
من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجيئنه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم
بأحسن ما كانوا يعملون (١) .

ويقول تعالى : أن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا
والآخرة ولهم عذاب عظيم (٢) .

ويقول تعالى : إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب
أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٣) .

ويقول عليه الصلاة والسلام : يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان
في قلبه لا تغتابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم فإن من اتبع عورات أخيه المسلم
تبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته .

بل أن المؤمن ليخشى أن يحرم الرزق بالذنب يصيبه كما جاء بالحديث
الشريف .

وقال عليه الصلاة والسلام : مكتوب في السوراة من أحب أن يزاد في عمره
ويزاد في رزقه فليصل رحمه .

وقال أيضاً : من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه ويدفع عنه ميتة
السوء فليتق الله وليصل رحمه .

(١) سورة النحل — آية ٩٧ .

(٢) سورة النور — آية ٢٣ .

(٣) سورة النور — آية ١٩ .

وقال عليه الصلاة والسلام : أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم وأسرع الشر عقوبة البغى وقطيعة الرحم .

وقال عليه الصلاة والسلام : كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات .
وقال عليه الصلاة والسلام : بروا آباءكم تبرركم أبناءكم .

والحقيقة أن المسلم يبتغى بحسن الخلق ثواب الله وحسن جزائه في الآخرة أكثر مما يريد في دنياه ، لأن متاع الدنيا قليل وزائل أما الآخرة فتوابها وجزاؤها عظيم خالد

والجزء الثاني : على العمل الخلق يحده المرء في نفسه وفي صدره ويشعر به قلبه وفؤاده ويتأثر به ضميره ووجدانه ، طمأنينة ورضى وسكينة تغمر القلب وتملأ النفس ، أو حيرة وقلقاً وضيقاً وحرجاً وشقاء يضيق به الصدر وتنقبض له النفس ويهلع منه القلب والفؤاد .

أن راحة النفس وطمأنينة القلب والشعور بالرضى والسعادة كلها ثمرات الإيمان الصادق الذي يقتدر بحسن الخلق ، لأن الغم والتكد والشقاء والخوف والحزن إنما تنجم عن أحد أمور ثلاث :

الاول : إرتكاب الآثام وأنيان الفواحش وفعل السيئات من النوايا والأفعال والأفعال ، كالخسد والبغض والغيرة والزنا وظلم الضعيف وأكل أموال الناس بالباطل والغش والغيبة والشوايعة وعقوق الوالدين ومعصية المرأة لزوجها وإيذاء الجار والإساءة إليه ، فكل إثم أو جرم يرتكبه الإنسان يؤدي إلى ظلمة القلب وتأتب الضمير وقد يظن البعض أن من الناس من يرتكبون الآثام ويفعلون الفواحش وهم مع ذلك يبدون ولا أثر عليهم لحزن أو ضيق بل قد ييسدون

مصرحين فرحين . ولكن ما ينسأ هؤلاء ، أنهم في غفلة عن أنفسهم وغفوة في
مشاعرهم قد نامت ضمائرهم أو ماتت ولكن إلى حين ، وليكنهم حين تستيقظ
فيهم الضمائر سيألمون ويتعذبون ، وحين يعجزون عن الإستمرار فيما كانوا فيه
من غى وفساد يقنطون ويتحسرون ، فالشباب لا يدوم والأيام والليالي يتغير
فيها بإرادة الله كل شيء ، والصحة لا تظل على حالها ثم أن القلوب والضمائر يحى
الوقت الذي تنبئه فيه ...

وتكرار الذنوب يطبع القلب ويختم الله عليه ويصبح على البصر غشاوة وفي
القلب عمى لقوله تعالى : فإنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في
الصدور ، ويقول تعالى عن تأثير الخطايا والآثام على القلوب : كلا بل إن على
قلوبهم ما كانوا يكسبون ، (١) ومن العجيب أن الضالين يعتقدون أن سيئهم
المعوج هر خير سبيل ، وأن ما يترفون من فاحش الذنوب هر باب للسعادة
والعقبة والسرور ، مع أن الذات والشهوات يعقبها دائماً الندم والحسرات ،
كما أنه من الأمور التي تلفت النظر أن المجتمعات التي تنتشر فيها الإباحية وتعمها
الخلاعة والفجور لا ترى السعادة أو الهناء أو راحة البال وإنما ترى الاكتئاب
والنفسى والقلق والتوتر والأمراض العصبية وكثرة حوادث الانتحار ...

والامر الثاني : الذى يسبب تعاسة الإنسان هو الخوف من المستقبل
والتحسب لما ينتظر المرء ولو بعد ساعات أو أيام ، كالخوف من إنقطاع رزق أو
نقصانه والخوف من المرض أو الموت ، والخوف من فقد كل عزيز وغال ،
والخوف من الفشل وعدم تحقيق ما يتطلع إليه الإنسان ، وهذا الخوف يؤدي
إلى إنعدام الطمأنينة وفرار السعادة والضيق بالحياة . والخوف والجن من رذائل
الأخلاق ومن عَمَات ضعف الإيمان واليقين لأن المؤمن الحق يعلم أن ما أصابه
لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ،

وهو يتمثل دائماً قول الحق سبحانه وتعالى : قل ان يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

وقد تجد غنياً في هم وخوف على ماله ، فيشغل بتدبيره ونمساؤه ويخشى على نقصانه وضياعه وقد تصيبه الأمراض بسبب ذلك ، بينما قد تجد فقيراً قائماً هادياً النفس مرتاح البال ، لا يحمل للغد هما ولا يشغل بأمر قبل وقوعه ولا يزعجه مرور الليالي والأيام .

وأما الامر الثالث الذى يشقى الإنسان في حياته فهو الحزن والألم الذى يشهر به ويمكن إرجاع أسباب الحزن إلى ثلاثة أسباب :

(١) فهو قد يكون بسبب داء الحسد الذى يصيب القلب فيجعل صاحبه دائماً الحسرة والحزن ، لأن كل نعمة تصيب أحد عباد الله تنميه وتسود الدنيا في عينيه ، والله تعالى يدهاء مبسوطان آناه الليل وأطراف النهار ونعمه لا تعدد ينمر بهما من يشاء من عباده ونعم الله متنوعة فمنها نعمة العقل والحكمة وقل من يحسد عليهم أصحابها ، ولكن الحسد يشتد أواره على النعم المادية كالمال والبنين والمتاع والدور والآثاث والسيارات ، والزروع والثمار ، ولهذا فإنه لا راحة لحسود .

(٢) وقد يكون الحزن بلا سبب ظاهر أو خفى وإنما هو حزن ينتاب النفس دون معرفة مصدره ، وهنا قد يكون الأمر عارضا لا يلبث أن يزول طالما أنه لا ينجم عن مرض في القلب أو خلل في التفكير .

(٣) وأما السبب الثالث للحزن فهو التمسر والندم على ما فات ، كضياع مال أو فرار فرصة ثمينة ، أو موت عزيز ، أو خسارة مودة وصداقة أو فقد الصحة ، أو الجلاء والمركز الوظيفي ، مع التعلق بكل ذلك والحرص على الاستمتاع به والتباهى به بين الناس .

وقد جعل الله تعالى عباده المؤمنين لا يأسون على ما فاتهم ولا يهزون على ما يصيبهم فقال تعالى . ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها أن ذلك يسير على الله . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور (١) فهم يؤمنون بأن كل ما يصيبهم فيما يعملون وفي أنفسهم من مرض أو حدث إنما هو مسطور في أم الكتاب من قبل أن يبرأ الله تعالى الأنفس ويخلقها ، وبين لنا سبحانه وتعالى الحكمة في ذلك بأنها طمأنينة قلوب المؤمنين ورضاهم بكل ما يأتي به الله العليم الحكيم .

ويمكن لنا أن نجمع كل ما سلف في كلمة واحدة فيها طمأنينة القلب ورضى النفس ألا وهي الرضى .. فشفاء الإنسان يكمن في عدم رضاه ، فهو يشقى حين لا يرضى بما قسم الله له أو بما قسمه لغيره ، فيكون في الأول ساخطا وفي الثانية ساسدا .

وأخيرا فالجزء الثالث الذى يترتب على مخالفة القاعدة الخلقية فهو سخط الناس وعدم رضاه المجتمع ، بل وازدراءهم لمن فسدت أخلاقه حتى ولو كانوا من ذوى قرباه أو جيرانه أو اخوانه ، وقد يقول قائل أن بعض المجتمعات لا تستنكر المنكر بل تسكت عنه وقد تستحسنه ، وهذا في الحقيقة من أكبر الكبائر وعلامة فساد المجتمع واستحقاقه النقمة والغضب من الله .. ويجب على من يتمسك بدينه ويحرص على خلقه أن يعتكف أن ابتلى بالعيش في مثل هذا المجتمع الفاسد وليحاول أن يبذل وسعه في بذل النصيحة وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهنا تبدو الحكمة فيما أمر به الله تعالى من وجوب التواصى بالحق والتواصى بالصبر وأن يكون المؤمنون والمؤمنات أولياء بعض يتناصرون ويتوادون ،

ويتعاونون ، قال تعالى : والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (١) .

ثم أن ذا الخلق الحسن ، المؤمن المستمسك بدينه ، لا يحفل برأى السفهاء والجاهلين فيه ولا يسعى إلى رضائهم عنه ولا ثنائهم عليه ، فإنهم لن يرضوا عنه أبدا ما داموا في ضلال مقيم ، وإنما حسب المؤمن صاحب الخلق أن يحبه الأخيار ويرضى عن خلقه الأبرار .

وإذ تكلمنا ونحن نقارن بين الأخلاق والقانون عن الفروق بينهما من حيث مجال كل منهما ثم من حيث الجراء الذى يترتب عليها نتناول أخيرا الفرق الثالث بين الأخلاق والقانون والذى يتمثل فى الغاية التى يتوخاها كل منهما .

الغاية من الأخلاق ومن القانون :

أهم ما يميز الأخلاق لإتجاهها إلى تحقيق غايات وأهداف معنوية ، [فهى تحت الفرد على الارتفاع بنفسه إلى ما ينبغى لها من سمو وكمال يحقق خيرها وأمنها الداخلى ، بينما يقوم القانون على أساس تحقيق قيم اجتماعية نفعية (٢) .

أن النقطة الأساسية فى الأخلاق هى أنها تبين للإنسان أن قانونه وغايته هو فعل الخير دائما مهما وقفت فى طريقه من العقبات التى يسببها تعقد الحياة الاجتماعية وتناقض المصالح والقيم والأهداف فيها ، أن عمل الخير يبعث خلقا وإنما هو طاعة غير محدودة ولا تقترن بالندم والضجر وإنما تقترن بالإسلام لله تعالى والثبات

(١) سورة آل عمران آية ١٠ .

(١) المدخل إلى القانون للدكتور حسن كيرة الطبعة الخامسة ١٩٧٤

والبسالة إذا اقتضى الحال ذلك . أنه يجب على المتمسك بالقيم الأخلاقية أن يتكر المنفعة التي تتناقض مع تلك القيم ويحاربها على أي صورة كانت ؛ أي سواء كانت ثروة أو لذة أو شعورا بالسعادة والراحة ، والصراع النفسى الذى يشور فى نفس المؤمن بالقيم الخلقية يجب أن ينتهى دائما إلى الانتصار للقيم والتضحية بكل ما يتعارض معها ، وهذا موقف يتعرض له كثيرا أصحاب المبادئ الخلقية ، حين تضطرب ظروف الحياة إلى الاختيار بين المصلحة والواجب والمنفعة والأخلاق (١) ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال : من أحب آخرته أضر بدنياءه ومن أحب دنياءه أضر بآخرته .

ويقول تعالى : لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه (٢) فالكذب والخداع والخش والتناقض يشترى بها الفاسدون والضالون بعض متاع الدنيا القليل ويتناسون ما كان ينبغي لهم التمسك به من قيم الأخلاق ..

فالطالب قد يغش لينجح والتاجر قد يكذب ليربح والرجل قد يتغاضى عن ضياع القيم الخلقية فى بيته حتى لا ينهار والموظف قد يرثى ليشبع بالمال رغباته ، وكل أولئك وغيرهم هم فى الحقيقة قد استبدلوا المادة بالقيم المعنوية والخلقية ، وباعوا الخير بالشر ، وآثروا المنفعة على الأخلاق . بل أننا نلبس فى كثير من دول العالم أن قوانيننا تنحو هذا المنحى ، فتكون الغاية منها تحقيق المنافع المادية

(١) منهج جديد للدراسات الانسانية تأليف هـ. ب. ريكمان ترجمة دكتور على عبد المعطى محمد ودكتور محمد على محمد الطالبة الأولى ١٩٧٩ صفحة ١٠٧ .
(٢) سورة المجادلة آية ٢٢ .

على حساب القيم الخلقية ، فنتغاضى عن الأخلاق في سبيل ما تربيحه من السياحة ،
وتتعامل بالربا في سبيل ما تؤمله من رواج إقتصادي وتقر قوانينها الأعراف
الفاسدة والعادات القبيحة لتحقيق رغبات المجتمع وإرضاء أفراد .

والحقيقة أن ذلك كله نظر فاسد ، وتفكير سقيم ، فالقلوب العمياء والنفوس
المريضة تنظر إلى قيم ومبادئ الأخلاق على أنها قاسية ثقيلة ، وأنها تقف في طريق
سعادة الفرد والمجتمع وأن الغاية من الحياة ليست إلا تحقيق ما تصبو إليه النفوس
من القيم المادية والمنافع الذاتية ، وهذا كله وهم يجر الكثيرين إلى الجرى وراءه
والتعلق به ، ليس الأمر كما يظن هذا البعض إذن ، وليس صحيحاً على الإطلاق
ما قاله الفيلسوف « كنت » من أنه يوجد في هذه الدنيا تنافر ظالم بين الفضيلة
والسعادة ، فإن في هذه الدنيا على العموم بالحالة التي يسيرها الله تعالى بها ، العدل
الكاثر والراجح أن ضعف الإنسان لا عقله هو الذي يشكو قلة العدل وعدم
كفايته . (١) أن قانون الأخلاق لا يحرم الإنسان من الثروة التي هي ثمرة عادية
يستحقها لعمله وجهده المشروعين ، ولا يحرمه من اللذة وهي حاجة طبيعية ، ولا
من السعادة التي هي هدفه في دنياه وآخرته ولكنه يهديه إلى أنه يجب عليه في بعض
الحالات أن يضحي للخير بالثروة وباللذات وبالسعادة بل وبالحياة ذاتها ، وأنه
إذا لم يعرف كيف يقرب هذا القربان فأعما هو يعبد الطاغوت ولا يعبد الله
الحق أن الله تعالى لم يحرم على الإنسان طيبات الرزق ولا المتعة والزينة ، بقوله
تعالى : قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . أن
الإنسان الذي لا يتلذذ إلا باللذات المحرمة ولا تطيب نفسه إلا بالرغبات

(١) علم الأخلاق لأرسطو (مقدمة المترجم) - المرجع السابق - ص ٢٦ .

والشهوات غير الأخلاقية ، هو الحقيقة لإنسان مريض قلبه ، زاعغ عن طريق الفضيلة واستمرت نفسه الخروج عليها والعمل بضدها . ثم تنبغى الإشارة إلى أن الشهوة واللذة ليسا متلازمين ولا مترادفين ، ونحن نجد القرآن الكريم يصف المجرمين بأنهم يتبهجون الشهوات والآهواء ، فإن من عجائب النفس الإنسانية أنها تتعلق تعلقاً شديداً بشهوات لا تؤدي إلى اللذة ، بل قد تسبب المشقة والألم ، ولكن النفس قد اعتادتها وسارت عليها ، وإلا فأى لذة حقيقية يشعر بها شارب الخمر أو آكل لحم الخنزير أو المختاب لأخيه ، أو الشامت في مصيبة تنزل بغيره أو المتلذذ بتعذيب غيره وتغيص عيشه ؟ ألمست هذه كلها شهوات تجر أصحابها إلى تجاوز القيم الخلقية إلى مجال غير أخلاقى ؟ أليس مثل هؤلاء كمثل الكلاب أو آكل لحوم البشر ؟ أترضى لنفسك لحظة أن تكون واحداً من هؤلاء ؟ وأهم مانئيه إليه إذن أن الأخلاق هى فى حد ذاتها غاية ، لأن الكمال الإنسانى هو المثل الأعلى الذى ينبغى على كل من يعقل أن يتجه إليه ، ولا يمكن أن تكون الغاية فى الحياة هى مجرد تحقيق بعض المنافع واللذات التى يختلف الناس دائماً على تقديرها وتقدير أولوياتها ، والقانون إذا كان ينظم حياة الأفراد فى المجتمع ويضع لهم من القواعد الملزمة ما يحقق لهم المنافع المادية والرغبات المعيشية وحدها بغير النظر إلى أى اعتبار خلقى فهو قانون غير أخلاقى وهو قانون غايته والهدف منه الفساد لا الإصلاح واعتبار الإنسان جسداً بغير روح والحياة الدنيا حياة بغير آخرة ، وإن قام القانون على خلاف ذلك فجعل غايته القيم الخلقية وتحقيق مكارم الأخلاق والسمو بالفرد والمجتمع إلى مدارج الكمال والمثل الرفيعة فهو قانون أخلاقى بل هو الأخلاق ذاتها ولا ينبغى أن تضيق الحياة ابتغاء لوسائل الحياة .

الأخلاق وعلم الاجتماع :

إذا كان الضمير هو محور علم الأخلاق وهو الرقيب على الإنسان في سلوكه الخلقى ، فإن علماء الاجتماع يصطدمون بتلك الحقيقة الأولى عن الضمير وأهميته ودوره ، ويذهب بعضهم إلى أن الضمير لا يخرج عن كونه مجموعة من العناصر الاجتماعية المستمدة من صميم بيئتنا فليس الشعور الخلقى - فى رأسهم - سوى صدى يتردد فى أعماق نفس الفرد لأوامر العقل الجمعى ونواحيه ومعاييره وقيمه . ومعنى هذا أن الضمير هو نتيجة لتأثير البيئة والوراثة والتربية أو التنشئة . وإذن فكل مخالفة للقاعدة الأخلاقية لابد فيها يقول دوركايم (١٨٥٨—١٩١٧) أن تستثير الضمير الجمعى الذى يخضع له فى العادة كل ضمير فردى .

وهذا رأى يحمل فى طياته أدلة تناقضه وخطئه ، لأن الضمير الخلقى إذا كان مجرد صدى للضمير الجمعى لسترتب على ذلك تماثل كل أفراد المجتمع فى ضمائرهم ولما ظهر بينهم من يخالف الضمير الجمعى كما يسمونه .

ثم أن المشاهد أن الأسرة الواحدة وهى وحدة اجتماعية صغيرة ، يجمعها وحدة الأصل والنشأة ويسودها نمط واحد من الحياة المشتركة والتربية ، ومع ذلك فن المشاهد أنه يوجد بين أفراد الأسرة الواحدة أشقاء تقلبان شخصياتهم وتختلف ضمائرهم فمنهم ذو الخلق والذى لا خلق له وذو الضمير اليقظ ومن ماتت مشاعره ، ثم أن هذا رأى يسلب الفرد حريته وإستقلاله فى إختيار مسلكه فى الحياة والقيم والمثل التى يرتضيها لنفسه ويسعى إلى تحقيقها ، وبلوغها ، فليس المجتمع إذن مجرد قطيع ينصاع لأغلبية أفراداه ، وليس الفرد مجرد عجيبة يشكها المجتمع كما يشاء ، وإذا كان فى كل مجتمع جماعة تفضل السبيل وتتأذى عن المنهج الخلقى ولا يلتقى أفرادها على خير أو معروف ، فإن فى كل مجتمع دائماً طائفة

تخالف تلك الجماعة وتقف أمامها كالسد الثابت ، تدافع عن قيم الخير والحق والاشراق ، وأخيراً فإن هذا القول يدخلنا في حلقة مفرغة وجدل عقيم ، فإنه إذا كان العقل الجمعي أو فكر الجماعة هو ضميرها وهو المسيطر على أفراد المجتمع ، فهل نشأ هذا الضمير الجمعي إلا من اجتماع ضماير الأفراد ؟ وهل يمكن أن تتصور أن ضمير الجماعة قد نشأ من غير أفرادها ، فأى الجانبين قد أثر في الآخر وسيطر عليه إذن ؟

أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد هدانا إلى هذا ونبهنا إليه ودعا إلى إستقلاله . كل فرد بفكره وضميره ، فقال عليه السلام : لا يكن أحدكم أمعة يقول أن أحسن الناس أحسنت وأن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم أن أحسن الناس أن تحسنوا وأن أساءوا أن نجتنبوا أساءتهم وليس معنى ما تقدم أننا ننكر تأثير أفكار المجتمع وعاداته على أفرادها ولكن ما ينبغي التنبيه إليه أن هذا التأثير الإجتماعي ليس هو وحده ما يصوغ بناء الإنسان النفسي والعقلي ، وإنما تشارك معه عوامل أخرى في هذه الصياغة ، منها الوراثة والميول والاستعدادات الذاتية والأمراض الجسمية والنفسية والعصبية ، ثم ما هو أكبر من ذلك : إرادة الله تعالى ومشيئته في الهداية أو الضلال ..

الاخلاق والعلوم الأخرى :

بداية يجب أن نفرق بين علم الاخلاق الاملامية وبين علم الاخلاق الوضعي . ونحن نتصدى للبحث في علاقة كل منها بالعلوم الأخرى ..

ثم علينا أن نقسم العلوم الأخرى إلى قسمين :

الاول : يشمل العلوم التي تعتبر مصادر للعلم وأصولا يستمد منها مكوناته وقيم عليها بنائه .

والثانى : يشمل العلوم التى تعتبر مساعدة أو معاونة لعلم الأخلاق وسوف نتناول القسمين فيما يلى :

أولاً : بالنسبة للأخلاق فى الإسلام :

١ — المصادر والاصول :

أن مصادر علم الأخلاق فى الإسلام ترجع إلى أربعة مصادر هى :

أ — القرآن الكريم وفيه الكثير من الآيات التى تأمر بمكارم الأخلاق وتدعو إلى التمسك بالقيم الخلقية العظيمة مثل الصبر وكظم الغيظ والإيثار والعفو وبر الوالدين والإحسان إليهما وحسن القول واجتناب البكثير من الظن ، وترك التجسس والغيبة والنميمة والشح والبخل والنفاق والرياء والكذب والإختيال والفخر والغرور .

ب — السنة الشريفة : وقد جاءت السنة الشريفة لتحمل كل ما يتعلق بحوائج الحياة الإنسانية بالنسبة للفرد والأسرة والمجتمع والعلاقات التى يمكن أن تقوم بين الأفراد فى داخل المجتمع وبين المجتمع الإسلامى والمجتمعات الأخرى غير الإسلامية وتشمل من بين ما تتضمنه قواعد الأخلاق والقيم الخلقية التى ينبغى لكل من الفرد والمجتمع المحافظة عليها والسعى لبلوغها ونجد ذلك فى السنة القرآنية أى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وفى السنة الفعلية أى سلوكه وأفعاله عليه الصلاة والسلام التى تعتبر منهاجاً كاملاً للحياة الإنسانية كلها .. فى السفر والإقامة والتحدث والكلام والزيادة والضيافة وتناول الطعام والتعامل مع الناس فى البيع والشراء والرهن ومعاملة أزواجه وذوى قرابته وصحابته ومن كان يقوم بخدمته .

عن أنس رضى الله عنه قال : ما مسست ديباجا ولا حريرا ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شمت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال قط : أف ، ولا قال لشيء فعلته ، لم فعلته ولا لشيء لم أفعله إلا فعلت كذا . ؟ (متفق عليه) .

وتعد السنة التقريرية مصدرا للأخلاق كذلك ، وهى ما أفره الرسول عليه الصلاة والسلام من أفعال وأقوال وقبت أمامه أو أبلغت إليه ، فوافق عليها أو أظهر رضاه عنها واستحسانه لها أو سكوت عنها لأنه عليه الصلاة والسلام لا يسكت على خطأ أو باطل ..

ومن ذلك ما رواه ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال رسول الله ﷺ : دعه فإن الحياء من الإيمان (متفق عليه) .

وعن جندب بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث بعثا (جيشا) من المسلمين إلى قوم من المشركين وأنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله وإن رجلا من المسلمين قصد غنلته وكنا نتحدث أنه أسامة بن زيد فلما رفع عليه السيف قال : لا إله إلا الله فقتله فجاء البشير إلى رسول الله ﷺ فسأله وأخبره حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع فدعاه فسأله فقال : لم قتلته ؟ فقال : يا رسول الله أوجع في المسلمين وقتل فلانا وفلانا وسمى له نفرا ، وإنى حملت عليه فلما رأى السيف قال : لا إله إلا الله ، قل رسول الله ﷺ : أقتلته ؟ قال : نعم قال : فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ قال : يا رسول الله استغفر لى . قال : وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ، فجعل لا يزيد على أن يقول : كيف تصنع بلا إله إلا الله

إذا جاءت يوم القيامة . (رواه مسلم) .

ج) أخلاق الصحابة :

والمصدر الثالث للأخلاق في الإسلام هو أفعال الصحابة وأخلاقهم ، لقول الرسول ﷺ : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، وقال ﷺ : . . وأنه من يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة .

د) العادات والتقاليد الإسلامية :

وإلى جانب مصادر الأخلاق الإسلامية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأخلاق الصحابة رضوان الله عليهم فإن أمام المسلم مصدر رابع لمسكوك الأخلاق يتمثل في الصالح من أعراف المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم التي يتوارثونها جيلا بعد جيل ، مثل مشاركة الناس بعضهم بعضا في الأفراح والأحزان ، ومثل إكرام الأب لبناته وسخائه معهن عند الزواج ، ومثل تقديم الهدايا وقبولها في مختلف المناسبات ، ومعاونة العروسين بالهدايا والمال ، وقراءة القرآن الكريم بالمآتم والمواقف المختلفة ، والكرم ، والمرومة والشهامة ، والإسراع إلى لغائنة المنكوب أو المحتاج ، والاحتفال بالأعياد الإسلامية ومعاونة المسافر والغريب ، وحسن معاملة غير المسلمين الذين يعيشون بينهم أو يتعاملون معهم ولا شك أن هذه العادات والتقاليد لا تعارض الإسلام ولا تخالف أحكامه ، وأما العادات والتقاليد والأعراف التي تشيع في المجتمع الإسلامي وتخالف أحكام الشرع الحنيف وتخرج عن حدوده ومعامله فإنها قيم فاسدة وتقاليد وعادات وأعراف منكرة ، لا ينبغي أن يقتدى بها مسلم أو مسلمة ، بل عليه أن يقاومها ما وسعده الجهد بيده أو بلسانه أو بقلبه وذلك أضعف الإيمان . . .

ومن أمثلتها في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة ما يحدث في المناسبات المختلفة
وهو حفلات الزواج من اختلاط الرجال بالنساء ومشاهدة الرقص الخليع من
الراقصات عاريات وسماع الغناء الذي يدعو إلى الانحلال ويساعد على الفساد ..
ومنها كذلك إرتداء النساء والفتيات للزى الذي يكشف ما ينبغي ستره من أجسامهن
وكذلك إرغام الفتيات على الزواج عن لا يقبلن الزواج به ، وتمييز الذكور على
الإناث في المعاملة وفي الحقوق حتى حق الميراث الشرعى ، وأيضا مظاهر الإسراف
والتبذير التى تبدو فى تكرار الحفلات ، كأعياد الميلاد والذكريات الهامة ،
والعرس والمآتم ، ومن فقراء أولئك المسرفين المبهذين من هم فى أمس الحاجة
إلى الضروريات .

ولو سرنا نعدد ما نلسه من قبيح العادات والتقاليد لسردنا الكثير ، ولكن
ما ينبغى أن نشير إليه هو أنها كلها أعراف وعادات غير معتبرة شرعا ، ومن
تمسك بها وحرص عليها كان من أهل البدع والضلال .

٢ - العلوم المساعدة :

الإسلام دين يحث على طلب العلم ويجعله فريضة وكل علم ينفع المسلمين فطلبه
واجب ، سواء نفجهم فى أمور الدين ، أو فى معاشهم بالدنيا أو فى جهادهم
للأعداء . وفى مجال الأخلاق يجد عددا من العلوم التى تساعد فى دراسته واثراء
أبحاثه : وذلك مثل علوم السير والتاريخ الإسلامى ، والأدب ، والقصص الذى
تتناول حياة الأنبياء وأبطال المسلمين .. وتاريخ الأخلاق وغير ذلك
من العلوم .

ثانيا : بالنسبة لعلم الأخلاق الوضعى :

ليس لعلم الأخلاق الوضعى أية مصادر آلهية أو دينية وإنما هو علم من وضع

البشر ، جاء وليد أفكار الفلاسفة والمفكرين والعلماء على مر العصور .

وترجع الجذور البعيدة لعلم الأخلاق الوضعى إلى عصر الفلسفة اليونانية وكان لسقراط والرواقين وأفلاطون وأرسطو سبق لا ينكر فى التأليف والأخلاق فى العصر القديم وجاء الفيلسوف كنت مكملاً لهم وصاحب مذهب أخلاقى فى العصر الحديث ، فتكلموا عن الغاية من الحياة وعن الفضيلة والنفس والعلم .

ووضعوا منهجهم الأخلاقى على أساس السير على هدى العقل الإنسانى ، وأعظم خطأ يقع فيه الإنسان هو مخالفة أحكام العقل والعلم ، فكأن علم الأخلاق الوضعى يجعل الإنسان يضع قوانين الأخلاق لنفسه . مستهدياً بغاية نبيلة هى الخير أو السعادة ووسيلته فى التهذيب الخلقى هى النصيح بالاعتدال ، فحمل الجسم على الاعتدال ورياضته إلى حد ما وإتأوه حققة من حاجاته وحبسه عن كل ما يشعدها وعلى جملة من القول جعل الجسم آلة متمثلة وخادماً مطيعاً ، تلك هى إحدى القواعد الأصلية للحياة الأخلاقية ، وبالنتيجة أحد الأجزاء الكبرى للعالم . إن اجتماع الروح فى الجسم أعنى العقل والمادة هو من المسائل الخفية التى تدخل فى اختصاص علم ما وراء الطبيعة ولهذا لم يكن غريباً أن ينشأ علم الأخلاق فى كنف الفلسفة وأن يكون له حظ وافر من أبحاثها ومؤلفاتها ، فكتب سقراط عن الفضيلة واعتبر الفضيلة علماً والذيلة جهلاً ، وهذا رأى يبدو صحيحاً تماماً إذا اعتبرنا أن ما يقصده هو العلم الحقيقى البقى ، وليس مجرد أن يعلم المرء أن الكذب أو الزنا شر ، وكأنه يقصد أنه لو علم كل إنسان حقيقة الفضيلة وحقيقة الخير لما تردد لحظة فى التوجه إليها بكليته ، ولو علم قبح الرذيلة والشر الكامن فيها لما فكر فى الإقدام عليها .

أما أفلاطون فلا نجد من الأخلاقيين من فهم الضمير أحسن منه مع أنه لم

يسميه بأسمه الحقيقي إذ كان لا يميز بينه وبين العقل ، غير أنه لا يوجد من عرفه
ووصفه أحسن منه .

أما أرسطو فقد ألف في الأخلاق ثلاثة كتب أحدها علم الأخلاق الكبير
وثانيا علم الأخلاق إلى أويديم وثالثها علم الأخلاق إلى نيقوماخوس والظاهر
أن الذى ترجمه العرب واشتغلوا به من هذه الكتب الثلاثة هو الأخير أى علم
الأخلاق إلى نيقوماخوس وهو أصدقها فى النسبة إليه ، فقد قال الفريد وموريس
كروازيه ، فى كتابهما الآداب اليونانية إنه هسو الوحيد الذى صحت نسبته إلى
أرسطوطاليس (١) .

ولقد ظلت الأخلاق مرتبطة بالفلسفة وداخلة فى موضوعاتها مع غيرها
من الموضوعات والعلوم الأخرى ، حيث كانت الفلسفة هى الأم الكبرى لكل العلوم
التي اصطاح على تسميتها بالعلوم الانسانية . فلقد كتب أرسطو فى المنطق والسياسة
وعلم النفس والبيولوجيا .

على أن إشغال الفلاسفة بعلم الأخلاق كان أمراً طبيعياً ، تمليه مناهج البحث
العلمى فى تلك العصور ، فإن الأخلاق وثيقة الصلة بالنفس ودراسة النفس هى من
أهم موضوعات علم ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا ، وهى أهم جوانب البحث
الفلسفى .. ولذلك ظلت الأخلاق مندوجة حقبة طويلة ، وتأخر انفصالها عنها
وإستقلالها بذاتها ، وإستمرت داخلة فى إطار البحث الشمولى للعرفه ، بينما
شهدت العصور القديمة والوسطى انفصال وإستقلال بعض الموضوعات والعلوم
مثل : الطب والتشريع والتاريخ ، ولقد شهد التطور التأملى للعلم فيما بين القرنين

(١) الأخلاق لأرسطو - المرجع السابق - تصدير « أحمد لطفي السيد » .

السادس عشر والتاسع عشر ندموا مستقلا لأنساق علمية كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا ، وخلال هذه الفترة ذاتها بزغت فكرة المنهج العلمى بحيث أصبح لكل نسق من العلوم مناهجه الخاصة به .

وكان أبرز ظاهرة ترتبت على ذلك إنقسام العلوم إلى قسمين رئيسيين هما العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، وكان لابد لهذا التطور الذى لحق بميدان العلوم الطبيعية تأملا جديدا لأمس ومناهج الدراسات الإنسانية . والواقع أن دراسة الإنسان قديمة قدم دراسة الطبيعة ، وفى خلال العصور الوسطى وعصر النهضة تشعبت الدراسات الإنسانية إلى اتجاهات متباينة ، وفيما بين عامى ١٧٥٠ و ١٨٥٠ على وجه التحديد حدثت الثورة العلمية ، فأصبح التاريخ أكثر علمية وابتعد عن الاتجاه الأخلاقى ، وظهر مبدأ الحتمية وارتبط بالوقائع ، وامتد هذا إلى دوائر التاريخ الاجتماعى والاقتصادى وظهرت علوم الاقتصاد والاجتماع والنفس و الأنثروبولوجيا كعلوم مستقلة .

لقد وضع جون استيوارت مل مصطلح العلوم الأخلاقية : «Maral Sciences» لكنى يدل به على تلك العلوم التى نمت نموا كبيرا فى القرن التاسع عشر وتميزت من مجموعة العلوم الطبيعية ، وهذا يعنى أن دراسة الإنسان تختلف عن دراسة الطبيعة ، ولقد أثار هذا المصطلح ودلالاته الكثير من المناقشات المنهجية : ودفع إلى التساؤل عما إذا كان يمكن أن تحاكي العلوم الأخلاقية علوم الطبيعة الفائقة الدقة .. وعما إذا كان يمكن أن تقف العلوم الأخلاقية على أقدامها ..!

ورغم أن التصنيف الثنائى للعلوم إلى علوم طبيعية وأخرى أخلاقية له معنى دقيق ومنيد إلا أنه لم يكتسب له الذبوع والاستمرار للمحوض الذى يكتنف تحديد العلوم الأخلاقية ، ولذلك حل محله مصطلح الدراسات الإنسانية وهو مصطلح

هذا يذيع وينتشر رغم إشتهار مصطلح العلوم الاجتماعية والإنسانيات كترادفين
ثله ، ويمكن تعريف الدراسات الإنسانية بأنها دراسات تتعلق بالإنسان .

وهناك أيضا رأى فلسفى يرى أن موضوع الدراسات الإنسانية يتمثل فى عالم
العقول ، The world of minds ، فى حين يتمثل موضوع العلوم الطبيعية فى
عالم المادة The world of matter .

والواقع أن عبارة ، عالم العقول ، يمكن أن تكون مقبولة وغير معترض عليها
من أحد إذا استطعنا تحديد معناها بالضبط . وأشرنا إلى متضمناتها ، أن عالم العقول
يشير إلى أى محتوى عقلى : Mental content ، كالأفكار والمشاعر والرغبات
والنوايا والمقاصد ، أو إلى أية أفعال تقترن بها أو تصاحبها ، وهذا يشمل علوما
مثل الدين ودراسة المؤسسات والأدب والشعر وغيرها (١) .

والخلاصة إذن أن علم الأخلاق الإسلامية هو علم دينى يعتمد على مصادره الثابتة
فى القرآن والسنة وسلك الصحابة المطابق للدين ، وعلى الأعراف والعادات والتقاليد
الاجتماعية التى لا تخالف أو توافق الشريعة الإسلامية ، وموضوعه سلوك الفرد الذى
يمثل الجوانب المعنوية فى حياته وعلاقاته بغيره من الأفراد .. وبذلك تخرج عن
نطاقه الجوانب المادية والعملية فى المعاملات بين الفرد وغيره كالبيع والشراء
والزواج والزهد والإيجار إذا تجردت من النواحي المعنوية ..

أما علم الأخلاق الوضعى ، فإن مصادره وأصوله بشرية عقلية ، وهو يتصل

(١) منهج جديد للدراسات الإنسانية ، تأليف هـ ب ديكمان ترجمة دكتور على
عبد المعطى محمد ودكتور محمد على محمد الطبعة الأولى .. مكتبة كاكوى .. بيروت
ص ١٠٥ .

يعدد من العلوم الإنسانية مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم البيولوجيا وغيرها .
هذا وتصدر الأفعال الخلقية عن الفرد بحملته أى باعتباره شخصية متكاملة .
لا بمعنى أنه مجموعة من الصفات يحملها فرد معين بل بمعنى الصورة المنظمة المتكاملة .
لسلوك فرد يتميز به عن غيره ، فالأخلاق إذن هى شخصية الإنسان بما فيها من
مشاعر وأفكار وصفات جسمية ووجدانية وعقلية و خلقية فى حالة تفاعلها بعضها
مع بعض وتكاملها فى شخص معين يعيش فى بيئة اجتماعية معينة .

وما يدل على أن الأخلاق تمثل الجوانب المعنوية فى حياة الإنسان قول الرسول
عليه الصلاة والسلام : أنكم ان تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم ، وقوله
الله سبحانه وتعالى : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » ، وقوله
تعالى : ان ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم . ونخطيء حين
نعرف الأخلاق بأنها مجرد السلوك الخلقى للإنسان ، فإن هذا تعريف قاصر ،
لا يشمل إلا جزءاً من الأخلاق فحسب ، يضاف إليه كل ما يحول بنفسه الفرد .
سواء تجسست هذه الخواطر فى سلوك خارجى أو ظلت مجرد فكرة خالصة (١) .

وثمة تعريفات أخرى لعلم الأخلاق ووظيفته منها : أن وظيفة علم الأخلاق
الاساسية هى البحث فى الاعمال التى يقوم بها الناس وإصدار حكمه عليها بأنها
خيرة أو شريرة (٢) .

(١) مبادئ الأخلاق تأليف الدكتور ماهر كامل والدكتور عبد المجيد عبد الرحيم
- مكتبة الانجلو المصرية - الطبعة الاولى عام ١٩٥٨ - ص ٧ .

(٢) مباحث ونظريات فى علم الأخلاق - تأليف أبو بكر ذكرى وعبد العزيز
أحمد - طبعة رابعة ١٩٦٥ - ص ٣٥ .

ويعرف كذلك بأنه علم يوضح معنى الخير والشر ويبين ما ينبغى أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضاً ويشرح الغاية التي ينبغى أن يقصد إليها الناس في أعمالهم وينير السبيل لما ينبغى (١) ويعرف البعض الأخلاق بأنها مجموع الخصال التي يشب عليها الإنسان فتميزه عن غيره .

والحقيقة أن هذا التعريف الأخير يقترب من الدلالة على معنى الخلق أكثر مما يحدد معنى الأخلاق كما سيوضح ذلك عند الكلام عن الخلق بعد قليل .

وأرى أنه من الواجب في مجال تعريف الأخلاق أن نفـرز بين أمرين : تعريف علم الأخلاق وتعريف الأخلاق ذاتها .. فأكثر ما يجعل التعريفات غير وافية هو عدم النظر إلى تلك التفرقة .

فالأخلاق تشمل القيم السامية التي يؤمن بها الفرد والمجتمع والسلوك الذي يسيرون عليه الوصول إليها وتحقيقها .

أن الأخلاق إذن لا تشمل إلا ما هو حسن وجميل ومحمود عند الله تعالى وعند الناس .

أما علم الأخلاق فإن دائرته ونطاقه أوسع من دائرة ونطاق الأخلاق .. دراسة واسعة تسير على نفس نمط الدراسة المنهجية لمختلف العلوم فتشمل نشأة علم الأخلاق وتاريخه وتطوره ، كما تعرض النظريات والمدارس والمذاهب الأخلاقية ، المختلفة وتبرز ما بينها من تعارض بل وتناقض أحياناً ولذلك قل أن يغلو كتاب لعلم الأخلاق الوضعية من إبراز مذهب كنت ودوركايم ، وتأثيرهما [وتأثير فلسفتها الاجتماعية على النظريات الأخلاقية ، مع أن الأول يتنكر للروح

(١) كتاب الأخلاق للدكتور أحمد أمين - طبعة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م .

والنفس ولمباحثها الأولى والثاني لا يقف من الدين موثقاً يجعله من المدافعين عنه ولو نظرياً.

ولا يترك علم الأخلاق حين يعرض آراء فلاسفة اليونان في الأخلاق آراء الانيقوريين التي تقوم على مذهب اللذة، إلى جانب آراء الرواقيين التي تتسم بالأخلاقية.

ثم إننا نجد خطأ آخر يوشك أن يقع فيه بعض الكاتبين في الأخلاق الإسلامية، وهو سيرهم على نهج الدراسة الغربية لذلك العلم، أو بعبارة أخرى إتباعهم منهج علم الأخلاق الوضعية، ليس في مجال التعريفات فحسب بل وفي الدراسة المنهجية لموضوعات الأخلاق، مثل القيم والسلوك والعادات الاجتماعية.

وقد سبق أن أشرنا إلى علم الأخلاق الإسلامية هو علم مستقل بذاته تماماً عن علم الأخلاق الوضعية، وإلى أن الأخلاق هي قسم من أقسام الشريعة الإسلامية تكون مع العقائد والفقهاء أحكامها وبنائها.

وليس ثمة مجال للتغيير أو التحوير في أحكام الشريعة الإسلامية في مجال الأخلاق لآى غاية أو تحت أى ظروف إجتماعية أو سياسية أو إقتصادية .. لسبب هام هو أن الأخلاق - حتى عند أصحاب المذاهب الأخلاقية الوضعية - هي غاية تقصد لذاتها وليست وسيلة لتحقيق غاية أخرى.

وبالنسبة لأحكام الأخلاق وقواعده في الشريعة الإسلامية، أنسا عند التأمل فيها نلاحظ أنها أحكام وقواعد ذاتية وليست موضوعية، ونقصد بذلك أنها ليست واحدة بالنسبة لجميع الأفراد ولا في كل المواقف والظروف بل هي تتغير وتختلف من فرد إلى فرد ومن حالة إلى أخرى. بل أنها تختلف بالنسبة للفرد الواحد في مراحل عمره وفترات حياته .. ويختلف الحكم الخلقى في كل

حالة وفي كل موقف .. ولتوضيح ذلك الامر نقول أن أحكام الشريعة الأخرى سواء في قسم العبادات أو الفقه هي عبادات موضوعية وثابتة بالنسبة لجميع المسلمين ، فالصلاة مثلاً تفرض على الإنسان كتاباً موقوتاً منذ صباه حتى شيخوخته وإلى أن يلقى ربه ، لا تسقط عنه ولا تتغير كيفية أدائها ، وكذلك الأمر بالنسبة للصوم ، ومشاعر الحج وأركانه ينبغي أداؤها بصورة واحدة لجميع من يقومون به ، وتجد مثل ذلك بالنسبة لأحكام الفقه في أحكام الزواج والطلاق والميراث والشفعة والبيع والإيجار والقرض والوديعة والعمارة ، لا تتغير قواعدها ولا شروطها وأركانها باختلاف مراحل العمر ولا بالنظر إلى حالات الإنسان ، حتى أنه يمكن للطفل الصغير أن يهرم العقود ويجرى كافة المعاملات التي تحقق مصلحته على أن يتولاه عنها وليه ، أما أحكام الأخلاق وقواعده فهي غير ذلك ، أنها ذات طابع ذاتي بمعنى أنها ليست قواعد عامة ثابتة وإنما تتغير كما ذكرنا بالنسبة للوقت والعمر والمواقف والظروف ، والامثلة على ذلك كثيرة نكتفي بإيراد بعضها بقصد البيان والتوضيح :

فالغضب رذيلة ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : لا تغضب ، ولكنه عليه الصلاة والسلام كان يشتد غضبه إذا انتهكت حرمة الله .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت سهوة (١) لي بقرام (٢) فيه تماثيل ، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه (أفسد الصور التي فيه) وتلون وجهه وقال : يا عائشة : أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يعضاهون بخلق الله (متفق عليه) .

(١) السهوة : جزء في مدخل البيت .
(٢) القرام : بكسر القاف ستر خفيف .

فالحلم والصبر وعدم الغضب يعتبر رذيلة وإثماً إذا كان فى موقف يتطلب من المسلم الغيرة على عرضه أو دينه أو أحكام الله تعالى وحرماته ..

والكذب أثم مبين ، ولكنه لا يكون أثماً أو جرماً فى بعض الحالات فمثلاً إذا اختفى المسلم من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله وأخفى ماله ومثله لإنسان عنه وجب الكذب بإخفائه ، وقد استدلل العلماء بجواز الكذب فى مثل هذا الحال بحديث أم كلثوم رضى الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فيمنى (يبلغ) خيراً أو يقول خيراً (متفق عليه) وقد زاد مسلم فى رواية : « قالت أم كلثوم ولم أسمع به يرخص فى شيء مما يقول الناس إلا فى ثلاث : تعنى الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها » .

ومن أمثلة ازدياد الأثم وعظم الذنب تبعاً لحالات الآثمين : قوله عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومك كذاب ، وعائل مستكبر » والعائل هو الفقير ..

والله تعالى يأمر بحسن القول ، والرسول ﷺ يوصينا أن نخاطب المسلم بأحب الألقاب إليه ، ولكنه ﷺ نهى عن مخاطبة الفاسق والمبتدع ومحوهما بسيد ونحوه ، فعن بريدة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تقولوا للمنافق سيذا فإنه إن يكن سيذاً فقد أسخطكم ربكم عز وجل (١) والمرء حين يكون صغيراً فعليه طاعة من هو أكبر وتوقيره فإذا كبر لقي الطاعة والتوقير من هو أصغر منه ، ومن الفضائل الخلقية حسن العشرة وطيب المعاملة

وبذل المودة لمن يعاشرهم المرء ولأهل قرابته ، ولكن ذلك ليس حكما عاما يلزم المؤمن مع جميع معاشره ، فقد حرم الله ذلك على من يحادون الله ورسوله ، أى يخرجون على شريعة الله تعالى وينتهكون حرمانه ، فلا حق لقريب فاسق أو زوجة فاجرة سيئة الخلق فى مودة ومعونة ، لأن فى ذلك إعاقة للظالم ، ومد له فى أسباب الغنى والضلال ، ولا حق لأمثال أولئك إلا فى الأمر بالمعروف والنصيحة ، فإن استجابوا فيها وإلا فالهجر والترك والاعتزال .

يقول تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخذاقتاهما فلم يمنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين » قيل لابن عباس رضى الله عنهما : ما كانت تلك الحياة ؟ فقال : كانت امرأة نوح تقول زوجى مجنون وامرأة لوط تدل الناس على ضيقه إذا نزلوا به ..

وأما ابن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام فقد ود أن ينقذه من الغرق فى الطوفان فنادى ربه ودعاه .. يقول تعالى : « ونادى نوح ربه فقال رب أنى أبغى أهلى وأن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح أنه ليس من أهلك أنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين : قال رب أنى أعز بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين (١) .

فع أنه كان إبنه فإن النجاة إنما تكون للمؤمن (أنا منجوك وأهلك)
و شرط النجاة هو الإيمان بنبوة نوح وشريعته وأن الأهلوية الحقيقية معدومة

الثمرة مع الكفر ومجانبة الإيمان ومخالفة الداعي إليه (١).

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل خبزك إلا أتى، وقال عليه الصلاة والسلام: المرء على دين خليله فلينظر كل امرئ من يحال. وقال عليه الصلاة: الصاحب رقع» في الثوب فلينظر الإنسان بهم يرفع ثوبه.

وإذن فليس بذل الود مطلقاً لجميع الناس، ولا الصداقة متاحة لكل من تميل النفس إليه أو لكل من يصادفه الإنسان، فإن الوحدة خير من جليس السوء فكيف بمصادقة أهل السوء؟

ثم ينبغي أن ننسى أن ذلك المسلك من جانب المؤمن يحارب الأثم ويصد عن الفجور، فالأخ أو الأخت أو الزوجة أو الابنة أو الصاحب، إذا تقرر كل أولئك أنهم يخسرون مودتك إذا حادوا عن الجادة وآثروا الغواية والضلال فقد يثوب إلى الرشد منهم من أراد الله له النجاة. على أن الجفاء وحده لا يكفي مع أمثال هؤلاء، بل يجب أن يقترب باجتناب ما ييغض غيره من أجله، وإلا كان ممن ينكر على غيره ما ينكره من نفسه، ثم أنه إذا لم يفعل هذا زاد الضلال ضلاله والغاوى غياً..

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المبتدع ومن اقترف ذنباً عظيماً ولم يتب منه، فلا ينبغي أن لا يسلم عليهم ولا أن يرد عليهم السلام، كذا قاله البخاري وغيره من العلماء، واحتج الإمام البخاري في صحيحه في هذه المسألة بما جاء في صحيح البخاري ومسلم في قصة كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف عن نزوة تبارك

(١) قصص الأنبياء تأليف عبد الوهاب النجار مكتبة دار التراث... ٤٥

هو ورفيقان له (وهما هلال بن أمية وسراة بن الربيع) قال : دونى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، قال : وكنت آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه فأقول : هل حرك شفقتيه برد السلام أم لا ؟ قال البخارى ، وقال عبد الله بن عمر : لا تسلموا على شربة الخمر . قلت فإن اضطر إلى السلام على الظلمة ، بأن دخل عليهم وخاف ترتب مفسدة في دينه أو دنياه أو غيرهما إن لم يسلم ، سلم عليهم . قال الإمام أبو بكر بن العربى : قال العلماء : يسلم وينوى إن السلام لاسم من أسماء الله تعالى ، والمعنى أو المقصد : أن الله عليكم رقيب (١) .

ولا يحق للمسلم أن يسلم على المرأة الأجنبية إن كانت جميلة يخاف الإفتتان بها . ولو سلم لم يحزن لها الجواب ، ولا يجوز لها أن تسلم هى عليه ابتداء ، فإن سلمت لم تستحق جوابا ، فإن أجابها كره له ذلك (١) .

لقد دعانى إلى بسطة القول فى هذه المسألة ، ما يسيئه البعض من فهم معنى الأخلاق خاصة بالنسبة لسلوك ذو الخلق مع غيره ، فقد يكون ذو الخلق فى أسرة ليس كل أفرادها مثله ، أو فى موقع عمل يكثُر فيه أهل السوء أو فى مجتمع تشيع فيه الفاحشة ، وينلب الكذب والتفائق ، فإذا لم يكن كيسا فطنا حذرا لقي العنت وللضرر الشديد ، ووقع فى حبال الخداع والتمويه التى تنصب له عن فى قلوبهم رضى ، فقد يخسر المؤمن ماله وسمعته وكرامته بسبب مخالطة أهل السوء ، بل قد يجرى من الصالح إلى الفساد ، وقد حذرنا الله تعالى من إبليس وعلينا أنه عدو لأدم وذريته وأمرنا أن نتخذ عدوا وأهل الفسق والفجور هم جنود إبليس .

(١) الاذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ﷺ تأليف الإمام الحافظ شيخ الإسلام محيى الدين أبى زكريا يحيى بن شرف النوروى شرح الهالمة ابن علان .
الناشر : دار عمر بن الخطاب صفحة : ٣٤٣ .

يوهم بالعداوة أجدر مثله ، فالمؤمن إذا اتّبع المذاق الفاسق على سره أفشاء ،
وإذا سأله النصيحة وإستشاره غشه ، وإذا أمنه على عرضه إنتهكه ، وإذا حدث
به مصيبة شمت به ، وإذا أحسّ حاجه في شدة زاع منه وتنكر له .

ولا يتطلب الأمر مثل هذا الحذر في المعاملات التي لا تتطلب مخالبطة ولا
معاشرة ولا صحبة ، مثل البيع والشراء وإجارة المنافع ، ولكنه واجب فيما
يتطلبها مثل المشاركة والمصاهرة والصدقة وغير ذلك .. وإذا أبستلى المؤمن بمن
لا تجوز عشرته فليترك خلقه بقلبه أن عاجز عن تقويمه بالفعل أو النصيحة ،
وليصبر حتى يجعل الله من ذلك خرجاً والله على كل شيء قدير .

وقد يتسأل المرء : أنى لى أن أعرف ذا الخلق من لا خلق له ، حتى أحذره
وأناى بنفسى وعرضى ومالى عن أذى الأشرار ؟ والناس قد كثروا وإزدحم بهم
المجتمعات ، ولا يعرف الصالح من الطالح ثم أن أى إنسان خاصة صاحب النوايا
والآرب الخبيثة - يحسن إخفاء حقيقته والتظاهر بضدها . والحقيقة أن هذا
القول فى مجمله صحيح . والرسول عليه الصلاة والسلام عرض له هذا ، ففى مجتمع
المدينة لم يكن عليه السلام يعرف المنافقين ، أو لا يعرفهم كلهم ، وبالتالى قال
تعالى فى سورة براءة عن الذين مردوا على النفاق : لا تعلمهم نحن نعلمهم ..
ولكن على المرء أن يكون فطناً على كل حال ، وأن يبذل وسعه فى فهم الأفراد
الذين يوشك أن يرتبط بعلاقات دائمة أو قريّة معهم والرسول عليه السلام يبشر
المؤمن بأن له فراسة وأنه يرى بنور قلبه ، وبعض الأفراد لهم قدرة فائقة على
فهم خبايا النفوس وما يضمّره الإنسان من خلق حقيقى ، ولكن الواقع أن أكثر
الناس لا يملك هذه القدرة ، ولذلك يفتأون بما لا يتوقعون . ثم أنظر الى إبنه
شعيب ، حين ذهب الى موسى عليه الصلاة والسلام تستدعيه لمقابلة أبيه -
وكيف فطن الى أماته وقالت لآبيه : يا أبت أستعجره أن خير من أستأجرت

القوى الأمين ، (١) وقالت لأبيها لقد علمت أمانته من أنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له فلما علم أنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه ولم ينظر إلى حقى باغته . رسالتك (٢) .

ولكن الناس ليسوا جميعاً مثل الانبياء فى صدق الخلق وأكثر ما يوقع الناس فى الغش والخداع أن يحكموا بشاهر المرء دون إختبار عمله وسلوكه وتجربة التعامل معه ، وقد لام عمر رجلاً شهيداً لرجل باصلاح فى مجلسه لأنه لم يكن جاراً له فيعرف أحواله ولم يرافقه فى سفر فيخبر خلقه ولم يتعامل معه به فيعرف صدق معاملته ولم يقبل شهادته له .

والى جانب الإختداع بالمظهر فالناس يخدعون أحياناً بمهنة الشخص ومركزه ، كالموظف الكبير ، وصاحب الشهرة أو المال ، أو غير ذلك ، مع إنك قد تجد غنياً خسيس النفس عديم الأمانة يسرق التافه القليل ، وقد يصادقك إنسان يهتم بالعبادات كثيراً وحين تعامله مجده قد ضيع الدين . فالدين المعاملة .

ماهية الاخلاق :

كان فيما سبق من تعريفات أوردناها لمفهوم الاخلاق ، تعريف الاخلاق من حيث آثارها أو مظهرها وهو سلوك الإنسان ..

وجدير بالملاحظة أن إصطلاح الاخلاق لا يعنى بالضرورة الاخلاق الحسنة ، بل هو إصطلاح يحتمل الوضيعة فيقال أخلاق حسنة أو سيئة .. ونستطيع أن نبين ماهية الاخلاق بإيراد أهم السمات والخصائص التى تميزها ، ونجملها فى ثلاثة خصائص هى :

(١) سورة القصص : من آية ١٦ .

(٢) قصص الانبياء تأليف عبد الوهاب النجار - ص ٢٠١ .

التخصيصية الأولى : هي أن الأخلاق موضوعها ومحملها الإنسان ذاته ، وليس
سما يملك أو يحوز من عروض وأموال ، ولذلك لا يحوز أن يرد عليها ما يرد
على الأموال والمنافع من تصرفات وأحكام أنها جوهر الإنسان ، نفسه وقلبه
وعقله . والأخلاق باعتبارها تمثل ذات الإنسان لا يحوز التعامل فيها أو
التنازل عنها ، وعندما يبيع إنسان شرفه أو ذمته أو كرامته فإنه لم يقدمها عوضاً
عما ناله من متعة أو منفعة أو مال ، لأن من أشتى الشرف والذمة أو الكرامة
لم يحصل عليها ولم ينتقل إليه شيء منها ، وإنما هو أغرى من باعها لاختار ويوازن
بين ما أمامه وبين رغباته وشهواته وقيمه ، ويملك أن يحول بين نفسه وبين ما
تشتهيه في سبيل هدف سام يتبعه ..

أن الأخلاق في الحقيقة ليست مجرد قيم معنوية بل هي ذات الإنسان ، ونحن
لا نقصد بهذا مجرد القيم السامية والقيم الدينية ، بل ينطبق نفس الوصف على القيم
الوضعية وغير الخلقية ، وكل طرفين في خصومة أو شغبين في حرب يؤمن كل
منها بأن صراعه وحربه من أجل قيم سامية وأنه وحده صاحب الحق دون
خصمه .. وإذا نحن جردنا أي إنسان من كل ما يؤمن به من القيم الخيرة أو الشريرة
لغداً كأنه بعيد الشبه عن الإنسان ، لأنه لن يتجه إلى سلوك أخلاق وسيكون
الفارق بينه وبين أي حيوان مشابه ، فرقا في الشكل والهيئة أكثر ، لا يكون فرقاً
في الماهية والطبيعة .

وليس الفرق بين "القيم الأخلاقية" التي يؤمن بها كافة البشر إلا فرقاً من حيث
الوصف فحسب فإن من يتخلى عنها فيصبح إنساناً بلا شرف أو بلا ذمة أو بلا
كرامة ، وليس ذلك فحسب بل أن من أغرى غيره بالتخلى عن قيمه وأخلاقه قد
أنتم معه وأرتكب مثله ما يجرده هو الآخر من أخلاقه ..

فن يحاول أفساد أخلاق إنسان بأى ثمن لا يأخذ منه في الحقيقة شيئاً مادياً

أو معنوياً وإنما هو يطلب إليه أن يصبح إنساناً بلا أخلاق أو حيواناً ..
وبذلك فهو ينقده أهم ما يميز الإنسان، لأن الإنسان حيوان أخلاق وهو لا
يتميز عن الحيوان إلا بالأخلاق فالحيوان يأكل ويشرب ويقاتل ويتناسل
ويستمتع بالجنس ، ومن الحيوانات والحشرات ما يدخر ، ما يحصل عليه لوقت
الحاجة ، وتفاهم الحيوان والطير بلغات تنطق بها .. وهى تعمل وتسعى وتهاجر
وتنقل آلاف الأميال .. وبعد ذلك تظل الميزة الوحيدة للإنسان على الحيوان
أنه كائن أخلاق لأنه يستطيع أن يختار الوصف المناسب ، فهذه قيم دينية
والأخرى مادية أو غير أخلاقية أو نفعية وهكذا ..

والتميز بالقيم من حيث الوصف وحده لا يكفي فى الصراع الدائرة بين
المجتمعات البشرية ، فلا يكفي لتحقيق السبق والتفوق أن تستند أمة أو مجتمع إلى
أنها صاحبة قيم سامية رفيعة أو قيم دينية وأخلاقية ، طالما أن تلك القيم لا تعدو
بالنسبة لها مجرد الوصف أو التعلق بها كمثلى عليها دون أن نجاوز هذا السير ولو
بمضغ خطوات فى سبيل تحقيقها .. ودون حاجة إلى تفكير أو عنها نستطيع أن
نحكم وأن نلبس أن أى مجتمع يعتنق قيماً فاسدة ويؤمن بها أكثر تحقيقاً للعلبة
طالما أنه يعمل ويتجه إلى بلوغها .. ولعل القارىء سوف يراود ذهنه مشكلات
التخلف فى المجتمع الإسلامى ، وخاصة تلك المجتمعات التى تسمى به دون أن تأخذ
بشيء من قيمه ودون أن تقيم وزناً لنقائده وأخلاقه .

واما الحميصة الثانية للأخلاق فى أنها تقوم على قاعدة العطاء لا الأخذ ،
وعلى أساس التحمل بالواجبات وليس المطالبة بالحقوق وحق بالنسبة للقيم
والقواعد التى جاءت بها الشريعة الإسلامية فى مجال الأخلاق لا نجد حدوداً
وعقوبات مقدرة توقع على مخالفتها ، فمدم البر وقطيعة الرحم والقسوة وعدم
الزفق والتجرد من الرحمة ، وعقوق الوالدين ، والتكبر والخيلاء والفخر كلها

وغيرها من الصفات الخلقية الذميمة المحرمة ليس لها حدود أو عقوبات مقدرة في الشريعة الإسلامية كحدود السرقة والزنا والقتل والقذف وإنما تخضع جرائم الأخلاق في جملتها لعقاب الضمير الذاتي أو لازدراء المجتمع ، والبعض منها كان يتولاها المحتسب (١)

وأهم ما يجعل الأخلاق تختلف عن الجرائم ذات الحدود كالزنا والسرقة والقتل ، أن أغاب مخالفتها يعسر وضع ضوابط محكمة لها تحدّد لكل فعل على خلق وصفه والجزاء الذي يستحقه وذلك أن الأفعال الخلقية لها دائماً جانبان أو ركنان أحدهما معنوي مستتر غير ظاهر يتمثل في النية والباعث والغاية والركن الآخر ظاهر وملّوس ، وأغاب صور الأخلاق مستترة بل وأشدّها خطورة وأفظعها جرماً هو ما تخفيه القلوب والصدور ، مثل الرياء والحسد والتفاق ، لا يعلمه إلا العليم الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .. وفي مجال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فلا يجوز إلا الأخذ بالظاهر : « أمرنا أن نأخذ بالظاهر والله يتولى السرائر » .

(١) الحسبة من مهام الحكومة في المجتمعات الإسلامية ولا وجود لها الآن إلا في المملكة المغربية التي أخذت بها منذ عهد قريب ويتولى الحسبة المحتسب الذي يعاونه جهاز من الموظفين الذين يجوبون الشوارع والأسواق لمراقبة الناس خاصة في مسائل الكيل والميزان واحترام التقاليد والآداب ومراقبة السلوك والأخلاق بالنسبة للرجال والنساء وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتولى هذه المهام بنفسه ويؤدّب الخارجين بدارته ، وفي المملكة العربية السعودية هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقوم بالعديد من المهام في مراقبة السلوك العام والأخلاق والآداب ، كما تقوم شرطة الآداب وأجهزة الرقابة التجارية ببعض المهام التي كانت للمحتسب في المجتمع الإسلامي .

وذلك ذكرنا أن قواعد الأخلاق في الإسلام لا تخضع لأحكام المعاوضات، لأنها لا يمكن أن تخضع للقياس والتقدير، وهى كلها أعمال وتصرفات بلا مقابل أو عوض مادي أو معنوي، فليس للمحسن أن ينتظر الإحسان من أحسن إليه، بل هو مطالب بالإحسان إلى من أساء إليه، وليس الواصل بالمكافء، والمؤمن مطالب بأن يصل من قطعه ويعطى من حرمة ويعفو عن ظلمه، وفي مجال الصبر، ليس للصابر أن يصبر إلا إبتغاء مرضاة الله يقول تعالى :

والذين صبروا إبتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرمون بالحسنة السيئة (١) أولئك لهم عقبى الدار ويقول تعالى :

ولمن صبر وغفران ذلك من عزم الأمور (٢) وأخلاق الإسلام تتحقق في صورتها المثلى حين تتجرد النوايا والسلوك من كل بواعث أو غايات مادية، فالحب في الله والآخاء والصحبة لله، فعن أبي هريرة في حديث السبعة الذين يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله : « ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه .. وعن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار . (متفق عليه) ..

فليس من أخلاق الإسلام صلات المردة وعلاقات الصداقة التي لا تقوم إلا لتبادل المنافع واستفادة كل طرف من الآخر، ومن لا نفع من ورائه فلا جدوى

(١) سورة الرعد : آية ٢٢ .

(٢) سورة الشورى : آية ٤٣ .

فى معرفته أو لقائه ، والهدايا تكون أشبه بالمبادلات والمقايضات يقدمها المهدي
وينتظر ردها والا غضب وقاطع ..

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ان الله يقول يوم
القيامة أين المتحابون بجلالى ، اليوم أظلم يوم لا ظل إلا ظلى .

وعن معاذ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله
عز وجل : « المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء »
ولم يتحابوا على الدنيا ومتاعها ومنافعها وإنما اجتمعوا على القيم والمثل العليا ،
فهم المزمنون بالقيم الإسلامية المحبون لها المناصرون لمن يعمل من أجلها ، فهم
ناصرون لدين الله ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ..

وأصحاب القيم العليا قلة نادرة فى كل عصر وفى كل زمان ومكان ، وهم
أشبه بالغرباء ، وهم كالمعدن النادر النقيس فى تلال وهضاب من البشر لا يابى بهم
أحد ولا يحفل بهم الناس ، ليس عندهم ما يطلبه أكثر الناس مما يشبع شهوات
النفوس ، والمتاع الرخيص ، فمن لواحد منهم بمن يشد أزره ويؤنس وحدته
وينصر دين الله وكلمة الحق فيه ؟

فالإخلاق فى الإسلام إذن عطاء دائما . وعطاء من أثنى ما يملك ، من نفسه
التي بين جنبيه ، وواجبات بلا حقوق .. وهذا العطاء هو ما يحمل التمسك بها
أمرأ يشق على نفوس الكثيرين ، لأنه يمتد إلى الجسم فيحرمه ويلزمه بالإقباد
لنفس فى هذا البذل والعطاء ، فإذا بالجسم يؤثر صاحبه عليه فى الطعام والشراب
واللباس والراحة والرغبات والشهوات ..

هنا فصل إلى جهر المشكلة الأخلاقية ، وهو أن الأخلاق الفاضلة هى من
صفات القلة فى كل مجتمع وفى كل عصر ، حتى دعا ذلك بعض علماء الأخلاق

الموضعية إلى اعتبار علم الأخلاق باطلا وعقبا ، حيث رأوه محكوما عليه دائما أن يهتم بأحد الناس بينما تغرق أغلبية المجتمعات في الرذائل الكثيرة ..

ولكن الإسلام لم يترك هذه المشكلة بغير حل ، فأمر باستئثار من لا خلق لهم ، وجعل المجاهدين بالمعاصي أبعد الناس عن رحمة الله ومغفرته ، وجعل أهل العلم والحلم والرأى هم أولو الأمر وأصحاب الكلية العليا في المجتمع .. وشدد الله العذاب والعقاب على من يحمون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا يقول تعالى : ان الذين يحمون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

ولما كان الباعث الخلقى مستترا غير ظاهر وأغلب الصفات الخلقية القبيحة يمكن ارتكابها في الخفاء ، فإن جهود الحكومات مهما عظمت لا تستطيع وحدها أن تخلق مجتمعا فاضلا ، ما لم تعمل في نفس الوقت على تربية النفوس وتهذيبها والعمل على إحياء الضمير .. وقد فشلت حكومة الولايات المتحدة في منع شرب الخمر بالذريعة الصارمة ، واضطرت إلى إلغاء تلك التشريعات لعدم جدواها ، وما يمننا الإشارة إليه هنا أن الإسلام قد جاء بالنظام المتكامل لإصلاح الأخلاق ، حين أمر بأن يقترن علاج مظاهر الانحراف الخلقى بعلاج بواطن النفوس وتربية الضمائر وإحياء القلوب ..

وحتى لو بذلت الحكومات جهودها المصنوية في سبيل منع انتشار مظاهر الفساد الخلقى فإن ذلك لا يحل المشكلة الحقيقية تماما ، فإنها سوف تعجز بالتأكيد عن إجبار الناس على اتخاذ السلوك الخلقى الفاضل ، فلا يمكن إجبارهم على بشاشة الوجه والسخاء واحترام ذات الإنسان ، وبقطة الضمير ، ولا يفلح الترغيب ولا التهيب في تحقيق شيء من ذلك ..

والخصيصة الثالثة للأخلاق أنها سلوك مستمر لا ينقطع ولا يتوقف ، وهذه الخصيصة تميز الأخلاق عن كل الواجبات والفروض الدينية ، فإذا استعرضنا أحكام العبادات وجدنا الحج أياماً معدودات من عمر الإنسان ، والصوم المفروض هو شهر واحد في رمضان من كل عام والصلوات تتكرر خمس مرات في اليوم والليلة أما في مجال المعاملات فإن بعضها يتكرر حدوشه كالبيع والشراء وبعضها يقل حصوله ولا يقع لأغلب الناس كالرهن والوديعة والقرض ثم نجد من أحكام المعاملات ما يندر وقوعه كطلب الشفعة ونفي النسب واللعان الظهار . ولو وقع شيء من هذه التصرفات لإنسان فإنه قد يقع مرة واحدة أو مرات قليلة على امتداد حياته ، أما الأخلاق فإنها غير ذلك تماماً ، إنها ظاهرة مستمرة وقائمة طول حياة كل إنسان ، فالظاهرة الخلقية قائمة في حال السكون والحركة والراحة والعمل . والكلام والتفكير ، وحتى لو أسترخى الإنسان في حجرة مظلمة ، وأغمض عينيه فإن السلوك الخلقي لا يتوقف ويستمر متمثلاً فيما يفكر فيه وفيما يجري في داخله من مشاعر خيرة أو شريرة ومن أفكار صالحة أو فاسدة ومن نوايا سليمة أو خبيثة .. ومن هنا كان حساب الحسنات والسيئات لا يتوقف لحظة واحدة في حياة الإنسان إلا إذا رفع القلم عنه لجنون أو نوم أو صغر وعدم تكليف ..

ولما كانت الأخلاق مصدرها النفس ومحملها القلب فإن الرسول عليه الصلاة والسلام . قد دلنا على ذلك المعنى في قوله عليه الصلاة والسلام : أن في الجسد مخنعة إذا صلحت صلح البدن كله وأن فسدت فسد البدن كله ألا وهي القلب ..

ومن الممكن أن تؤدي كل شعائر الإسلام وعباداته من صوم وصلاة وحج وزكاة وصدقات والقلب فاسد به مرض فلا ينال المرء من كل ذلك خيراً ويحيط كل ما عمله من ظاهر العمل الصالح ، ويكفي الحسد والكبر لإحباط كل سعي وأكل

كل ثواب ..

وقد كان الأولى ، والحال على ما ذكرنا ، أن تبذل العناية بهذا العمل المستمر الذى لا ينقطع ، وهو السلوك الاخلاقى فيبحث المسلمون وطلاب العلم على درسه وحسن فهمه ومعرفة أماليب تطبيقه والعمل به وما يعوق ذلك فى حياة الفرد والاسرة والمجتمع ، وأن تكون هذه العناية أكثر ، بما يبذل فى دراسة مسائل عديدة فى الفقه والعبادات قليلا ما تعرض للأفراد ، وقد يكون من بينها فروض صرفة لا يمكن تصورها إلا على صفحات الورق وفى ثنايا المؤلفات ، ولست هنا الأقل من قيمة تلك المسائل ولا من أهميتها ولكنها يجب أن تكون الخاصة للعلماء والدارسين المتخصصين المتعمقين ، بمن يتولون مناصب التدريس والفتيا والقضاء ..

ثم أيها أولى بالعناية والبحث الآن ، دراسة علم الاخلاق فى الإسلام ، والمجتمع الإسلامى أحوج ما يكون إليه فى كل عصر وفى عصرنا الحاضر على وجه الخصوص أم دراسة أحكام الجزية والنفى والغنائم والأسرى وعتق الرقيق وإن من لا يعجبه هذا الرأى فكأنى به يعتبر أحكام الشريعة الإسلامية قاصرة على الفقه ولا تتضمن الاخلاق ..

وإن إستممرار السلوك الخلق الذى يتمثل فى الافكار والمشاعر النفسية ، له تأثيره الشديد على كل أفعال الإنسان ، كالسهر فى الصلاة والإشتغال أثناءها بما يفضى الله ، وفد يساعد على الإعداد للجرائم الكبرى كالقتل والإنتحار ، والزنا والسطو والسرقه أو قطيعة الرحم أو الحسد والحقد .

ولا يمكن إصلاح الافكار والمشاعر الخلقية فى نفس الإنسان بأزواج من الاراس والرقابة الخارجية ، فالأب الذى يجبر بناته على الحجاب والتسليمية

كل أجسادهن قد فعل خيراً في الحقيقة يتمثل في منع الملاذئ والسوء عنهن من ذوي
القلوب المريضة ومنع فتنهن للرجال.

وهكذا كله حق ، ولكن الأكل من ذلك والألف للفتاة نفسها أن تكون
العفة في داخل نفسها ، حالة نفسية وخلقية ثابتة مستقرة على تقدير قيم الطهر
والعفاف ، تمنعها هي من الزلل والسقوط ، أما إذا انعدمت العفة الداخلية فإن
الحجاب وحده لن يكفي لصون الفتاة ، وخاصة إذا أتاحت لها فرصة الإفلات
من الرقابة الصارمة والحراسة المشددة ، وهذا أمر مشاهد معسوف في كل
انحصر ، وفي عصرنا وفي مجتمعاتنا المعاصرة لا يصمد من فتيات القرى والريف
والبادي عند الانتقال إلى حياة المدن إلا من يتمتعن بما يمكننا أن نسميه :
« المناعة الخلقية » وهو الشعور الذاتي بالعفة والشرف وقوة الوازع الديني ،
وإلا فما أسرع الإنهيار والسقوط .. فلمست « المناعة الخلقية » مسألة مدينة أو
قرية أو حضر وبادية ، وفي الجماعات التي تلتقي فيها فتيات أو فتيان من بيئات
متباينة ومتعددة ، كالجوامع والمعاهد والمصانع والمصالح الحكومية والشركات
والفنادق وأماكن السياحة ، في كل أنحاء العالم ، فسيكون بوسعك أن تلمس
هذه الظاهرة بوضوح ، والتي تتناقص في أنه لا يمكن وضع قاعدة تحكم المسار
الخلقي ونكشف بها مستور النفوس ودخائل القلوب ، فإن ذلك أمر يتوقف
على تيار الأفكار والمشاعر الخلقية التي تسيطر على شخصية الإنسان وعلى القيم
والمبادئ الثابتة التي يعتنقها ويؤمن بها .

ومن الخطأ الفادح والاعتماد على أسلوب التعميم أن نحكم على مجتمع بأسره
بأن كل أفراد لا أخلاق عندهم ، فإن الأخلاق صفة ذاتية وفردية ، ويمكن أن
تجد في أشد المجتمعات انحلالاً فتياناً وفتيات على درجة عالية من الخلق القوي

والإتصاف بمبادئ خلقية رفيعة من العفة والشرف والصدق والأمانة وحب الخير وتقديمه ..

فالتعميم فيما يتعلق بالنوايا وما تخفى النفوس خطأ كبير إذن ، ولا يقل عنه في الخطأ الحكم عليها بالظواهر الملموسة ، والرسول عليه الصلاة والسلام قد أشار إلى هذا في أنقى مجتمع إسلامي عرفه المسلمون منذ ظهور الإسلام وهو مجتمع المهاجرين ، من السابقين الأولين ، وحيث لم يكن قد ظهر النفاق الذي عرف في المدينة المنورة بعد الهجرة إليها ، واختلاط طوائف شتى فيها ، فعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه

فالحجاب ومنع اختلاء الذكر بالأنثى فرضان وواجبان شرعيان ولكن من أراد الخير معها والأساس الصالح لها فليجعلها في تقويم الأفكار والمشاعر الخلقية وهو ما سوف نعرض له بعد ذلك .

وتبدو أهمية هذا الرأي في عصرنا الحاضر على وجه الخصوص ، حيث لم تعد وسائل الرقابة وحدها تجدى في مجال الأخلاق ، بعد خروج الفتيات للتعليم وللحياة العامة ، وبعد إنتشار وسائل الإتصال المختلفة بالتليفون والبريد والاسلكى والمذياع والتلفاز فنحن بحاجة إذن إلى التربية الخلقية من الداخل ، وأقول التربية والتنشئة لا مجرد التلقين والمحاضرات والخطب وهذا أيضاً موضوع ليس بمجاله الآن وإنما سوف نعرض له بعد ذلك عند الكلام عن الأخلاق النظرية والأخلاق العملية في الفصل الثالث عن أنواع الأخلاق :

ونختم الكلام في هذا الفصل الأول عن التعريف بالأخلاق وبيان ماهيتها ومفهومها بالكلام عن الخلق وبيان الفرق بينه وبين الأخلاق .

مفهوم الخلق

الخلق هو الطباع السائدة والعادات الغالبة والتي تميز شخصية الفرد وتحدد سلوكه الأخلاقي ..

فالخلق يتميز بالثبات والاستمرار كما أنه يغدو وكأنه طبع ثان للفرد بجانب ما غرسه الله تعالى فيه من طباع .

وتأصل الخلق في النفس وافتراؤه بخصائص الشخصية يجعله من السلوك المعتاد الذي لا يجد الفرد مشقة في القيام به ، ولذلك يعرف بعض العلماء الخلق بأنه عادة الإرادة لأن إرادة الإنسان تعتاده ويسهل عليها فعله ، فكظم الغيظ خلق للحليم يجعله لا يجد فيه مشقة ولا ضيقاً مثلما يلقى النزق والأحمق ، والعفة في الفرج والبدخا لى لدى العفيف المتعفف لا تثير في نفسه من المشاق ما يتعرض له الأفراد غير الصالحين ، من الفاسدين والفاسقين .. والكرم خلق عند الكريم يسهل عليه الإيثار والبذل ، ولا يجد في نفسه ضيقاً ولا حرجاً أما الشحيح والمنافق فلا ينقرون إلا وهم كارهون ..

وهكذا يمثل الخلق ما ترسخ من العادات والقيم الخلقية وصار ، بما يميز شخصية الإنسان والفرق بين الأخلاق والخلق يكمن في أن الأخلاق تعنى أوصافاً لكل فعل الإنسان بمقياس الخير والشر والقيم والمعايير الدينية، وذلك بالنسبة للأخلاق الإسلامية ..

فنقول هذا التصرف من هذا الإنسان غير أخلاقى ، كالكذب أو الوشاية أو

خيانة الأمانة أو التجسس .. أى أنه يخالف أحكام الدين الإسلامى ويخالف المبادئ والقيم الخلقية ..

ولذلك فمن الممكن أن نجد أفعال الفرد يمكن أن تضم أنواعاً مختلفة من السلوك الخلقى ، فيكون صادقاً فى بعض حديثه وكاذباً فى بعضه الآخر ويكون أميناً مع بعض الأفراد ولكنه يغش ويخون مع غيرهم ، وتسير الأوصاف والأحكام الخلقية وراء كل فعل من أفعاله وكل تصرف من تصرفاته تصفه : بما يستحقه بالقيم الخلقية ومعاييرها أما الخلق فهو غير ذلك ، فإذا كان الفرد يتصف بخلق "صدق والأمانة فهو لا يكذب ولا يخون أبداً ، :

وقد عرف الرسول عليه الصلاة والسلام بالصدق والأمانة منذ نشأته حتى عرف قبل الإسلام « بالأمين » ثم مدحه الله تعالى بعد نزول الوحي والرسالة بكمال الخلق فقال تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم (١) » .

وقد يعرف الفرد بخلق معين يشتهر به ويذيع عنه مثل كرم حاتم وحماة هبنقة ، وشجاعة على بن أبى طالب وخالد بن الوليد وطمع أشعب وحلم الأحنف ومعاوية ، ولكن يندر أن تجتمع كل صفات الخلق الحميد فى إنسان واحد اللهم إلا إذا كان رسولا أو نبياً من الصالحين والصدّيقين ، وهذا يفسر لنا قول الرسول ﷺ فى وصف أبى بكر بأنه يحزن لإيمان أمة وحده لأن الأمة يندر جداً أن يجتمع فى فرد واحد منها كل صفات الخلق السكامل ، مثل الحكمة والشجاعة والكرم والإيثارة والإخلاص والصدق وقوة الإيمان وتمسك الثقة بالله والصبر وحسن التوكل والبر والعدل والإحسان والعفة والقناعة وغيرها من الصفات ، مثلما أجمع

كل ذلك لا بنى بكر الصديق .

ولكن المؤلف أن يجتهد كل مؤمن فى صفة أو صفتين أو بضعة صفات من صفات الخلق الطيب يجاهد ليتخلق بها ، مثل الحلم أو الكرم أو البر أو الإحسان وما يستحق التأمل والنظر أن المرء لا يختار من أصناف الخلق عادة إلا ما يتفق مع طبيعته وصفاته الموروثة والمكتسبة فالجبان بطبعه لا يمكن أن يكون خلقه الشجاعة وكذلك الشحيح والاحق بالنسبة للكرم والحلم ، اللهم إلا إذا كابد نفسه وتحمّل مشقات كبيرة حتى يغير طبيعته ويتخلق بغير ما تهيأت نفسه له وكل ميسر لما خلق له .

وللخلق خصائص معينة نذكرها فيما يلي :

خصائص الخلق :

أولاً : أنه يعسر على الإنسان أن يظهر بغير خلقه أو أن يخفيه ويبداريه ، بخلاف الأخلاق فإن الرياء والنفاق فيها ، لكن ، لأنها سلوك غير ثابت ومواقف وأعمال منفردة ، يمكن للمرء أن يتصنع فيها ويخدع غيره .

ثانياً : يعطى الخلق صاحبه شخصية يتميز بها ويعرف بها ، فهو من أهم مكوناته لأنه يجعل الإنسان ذا صفات وطباع يعرف منها سلوكه ومظهره فى كل موقف يعرض له وذلك يجعل الناس يطمئنون إليه ويثقون فى التعامل معه .

ثالثاً : ويقترن حسن الخلق بالإيمان ، لأنه يدل على شدة تعلق صاحبه بالدين وعمق إيمانه بمبادئه وقيمه ، بينما يدل سوء الخلق على الفسق والفجور لتتمكن السوء من نفسه وتعود عليه .

كيف يتكون الخلق ؟ : أن تكون الخلق وتوحيده بالشخصية وإن دماجه فى

مكوناتها ودقوماتها هو من الأمور النفسية البحتة ولذلك فقد أسهمت في بيان مراحل هذا التكون علوم حديثة في مقدمتها علم النفس ، وسوف نعرض فيما يلي آراء علمائه باعتبارها بحوثاً مساعدة لعلم الأخلاق .

وبداية نقول أن تكون الخلق — كظاهرة نفسية — يمز بشلأنة مراحل أساسية هي :

المرحلة الأولى : وتبدأ بالفهم والإدراك للمعنى الذى يحدد النسق الخلقى ، فبالنسبة لخلق الصدق مثلاً يدرك الإنسان معنى الصدق وأهميته ومنزلته بين الفضائل الخلقية ويدرك مدى وجوبه في أحكام الشريعة الإسلامية بمصادرها المتمثلة في القرآن الكريم والسنة الشريفة والإجماع ويتمثل في الوقت نفسه مدى جسامته الجرم المقابل له وهو الكذب وشناعته وآثاره الممقوتة في الشخصية وأضرارها التي تهدد المجتمع وما يتحقق للخلق به من من سوء الخاتمة والمصير .

أما المرحلة الثانية في تكوين الخلق فتتكون في الجانب الإنفعالي أى انفعال النفس بأهمية الصدق لإنفعالا يؤدي إلى حبه والتعلق الشديد به وإلى كراهية الكذب ومقته والنفور منه .. ونجد تصوراً صادقاً لهذا الجانب الإنفعالي في قول الرسول ﷺ : ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار ، (متفق عليه) . فالخلق يعتمد كل الإعتماد على هذا الجانب النفسى الإنفعالي ، ويعتمد على عاطفتين متقابلتين هما عاطفة الحب وعاطفة الكره : حب ما تعلق قلبه من أنواع الخلق كالبر أو الصدق أو العفة وكراهية ما يقابل ذلك من خلق الأثم والكذب والفجور .. ويقدر ما تقوى عاطفة الحب للخلق وعاطفة البغض لمقبيضه تكون قوة الخلق وماتنته وشدة التمسك به .

أما المرحلة الثالثة في تكوين الخلق فهي إنقياد الإرادة للقيام به والتعود عليه حتى يصبح طبيعياً متأصلاً في النفس لا تتردد النفس لحظة في الإقدام فالصديق لا يتردد في قول "صدق والعمل به والبر يسارع في الخيرات والعفيف يعتصم بالشرف ويفر من المنكر وهكذا ..

ويبدو أن تكون الخلق من سمات الشخصية الإنفعالية ، أما الأفراد الذين يصفهم الجانب الإنفعالي فيصعب عليهم تكوين قيم خلقية والإيمان بها بل يصعب عليهم أصلاً ، لأنهم لا قلوب لهم ..

وكما حدث تكون الخلق في سن مبكرة كان ذلك أدعى إلى قوته ورسوخه وعسر التخلي عنه بعد ذلك ويؤكد علماء النفس على أهمية عامل الرغبة أو حب القيمة الخلقية في تكوين الخلق ، فالإنسان لا يتأثر له أن يكون ويتبنى خلقاً لا يحبه بل يكرهه ، وهذه مسألة هامة ينبغي أن يشبه إليها المربون والوعاظ والدعاة على وجه الخصوص : وهي كيف تساعد المسلم على تكوين القيم الخلقية بغرس محبتها في نفسه .. وفي القرآن الكريم أكثر من موضع تشير فيه آياته إلى هذا .. فيقول سبحانه وتعالى : قل أن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم (١) ويقول تعالى : هو الذي حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون (٢) . ويقول تعالى : وإن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مفسدكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، (٣) .

(١) سورة آل عمران — آية ٣١ .

(٢) سورة الحجرات — آية ٧ .

(٣) سورة غافر — آية ١٠ .

ونورد فيما آراء بعض علماء النفس في أهمية عامل الحب في تكوين الخلق ،
فقد توصل « ويسكوف وفرنكل » بعد تجارب نفسية وعملية على بعض
الأشخاص ، إلى صحة الفكرة العامة المعروفة من أن الرغبات أكثر تلقائية
وطبيعية في بعض أوجهها من الواجبات ، ذلك لأن الواجبات يبدو أنها تتطلب
جهداً أكبر ، وإنها تؤدي إلى استنزاف مدخرات الطاقة العقلية ، وكذلك يبدو
كأن قوة خارجية نسبياً تفرضها على نفوسنا المنصرفه غير الراضية . وقد أسفرت
هذه النتائج عن أن السمات الخمس الرئيسية التي تميز الرغبات من الواجبات هي :

١ — أن الرغبات عموماً ، تكون مصحوبة بانفعالات ومشاعر أكثر
نشاطاً .

٢ — أن الرغبات أقوى حيزاً على العمل فهاك ميل إلى وضعها موضع التنفيذ
في الحال .

٣ — أنها أكثر إستمالة للخيال ، وغالباً ما يتخيل المرء رغباته وكأنها في
مرحلة الإشباع .

أما الواجبات فيحوزها مثل هذا التخيل ، وأن وجد فيها خيال فهو منصرف
إلى نتائج عدم تأدية الواجب ، أو الموقف الذي سيفشأ بعد تأديته .

٤ — أن ما يرتبط من الصور البصرية بالرغبات يزيد كثيراً عما يرتبط منها
بالواجبات .

٥ — تبدو الرغبات أمر حبيباً إلى النفس مقبولا على الفور بطبيعته . بينما
ضروره "قيام بالواجب كثيراً ما يرتاب فيها الفكر الباطن " وقد تخزع لها
المبررات ، وقد لا يوجد غير الإحساس بالإكراه أو بالضرورة ، تقتن غالباً
بمثل تلك العبارات التي يحدث فيها المرء نفسه مثل : يجب علي ، ينبغي لي ، يجب

ألا .. ولما كان الواجب من بعض الوجوه شمساً مقمهاً على الذات من الخارج
فيها الرغبة شيء ينبثق مباشرة من الذات ، كان أمر الواجب والرغبة كأمر
موضوع واحد ونقيضه ، فيرمز للواجب بسهم مصوب نحو دائرة الذات وللرغبة
بسهم مصوب من الدائرة ومنبثقاً عنها .

على أن ذلك لا ينبغي أن نستنتج منه أن الواجبات الدينية هي من الوجهة
النفسية أعمال ثقيلة لا تميل النفس إلى أدائها ، فبرغم ما سبق ذكره من الاصل
الخارجي للواجب فإن حب ذلك الواجب وتبنيه يؤدي إلى أن يصبح أشبه بجزء
من ذاتنا ، وبذلك يصبح تحقيق هذا الواجب أمراً يعنى الذات بقدر ما يعنى تحقيق
الترغبات وإن عملية تبني الذات للواجب هي من أهم خصائص نمو الحياة
الخلقية .

وقد أشار إلى هذه الحقيقة أغلب المؤلفين في كتاباتهم التي تعنى بالسلوك
الإخلاقي ، على اختلاف المدارس التي ينتمى إليها المؤلفون وعلى اختلاف المشاكل
الخاصة التي تعنى كلا منهم في الميدان الأخلاقي .

وقد وجد في جزء آخر من الاستقصاء الذي قام به علماء النفس في هذا
المجال ، أن التباين الحاسم بين الرغبة والواجب يميل إلى الاختفاء بتقدم السن
فإن الواجبات التي انتهت الذات من تبنيها منذ أمد طويل اندمجت في الذات لاندماجها
بصارت معه طبيعة ثانية وكادت تبلغ مبلغ الرغبات في تلقائيتها .

وحق بالنسبة لغير المسلمين ، نجد أنه غالباً ما تتميز الرغبة بالواجب امتزاجاً
شديداً ، وكأنما الواجب بمجرد أن تلقناه الذات قد اكتسب القدرة على اجتذاب
رغبة إليه ليكتسى ثوبها ..

ولقد أثبتت البحوث والاستقصاءات في علم النفس العام والتجريبي والتحليل

النفسى حقيقة هامة تممنا فى مجال تكوين الخلق . وهى اختلاف الافراد بعضهم
سكن بعض فى القدرة على هذا التكوين ، وقد أبرز البحث الذى أجراه « دب
Webb » ، وجود عنصر يترتب عليه أن يكون أحد الافراد على العموم أميل إلى
الاتساق وأيقظ ضميرا وأكثر مشابة وأحرص على المبادئ من فرد آخر يغلب
عليه أن تجرفه النزوات العابرة والميول العارضة والحماسات الموقوتة وأسفر
تحليل نتائج هذا البحث عن إضاءات تفسير خلقى على هذا العنصر أو العامل الذى هو
أشبه بعملية التحكم العمد منه بالتصرف التلقائى للنزعة الكريمة أو الطيبة ..

وقد أظهرت البحوث فى مجال تربية الخلق تيجتين أو حقيقتين هما :

١ — أن الميل إلى السلوك الخير أقرب إلى أن يكون أعم فى تطبيقه من
الميل إلى السلوك الشرير . فقلبا يكون السلوك الشرير متسقا . وأبعد الأطفال عن
اللامانة يكونون أمناء أحيانا . أما السلوك الخير فيميل بطبيعته إلى الاتساق .

٢ — أنه لا توجد علاقة مباشرة بين المعرفة والذكاء من جهة وبين السلوك
الخلقى من جهة أخرى ، فالعلاقة بينهما غير مباشرة ، فالمعرفة والذكاء يعينان فى
فهم وإدراك الواجبات ، على أن أداء الواجبات يعتمد على عناصر وجدانية
تنوعية قد تكون موجهة إلى هذه الغاية أو لا تكون ، ولا يكفى لكفالة السلوك
الخير وتكوين الخلق مجرد معرفة الشخص لما هو الصواب .. ولكن على المبادئ
والنظريات الخفية أن تستميل إليهما النزعات والإرادة لتكون لها فاعلية كاملة
وأظهر ما يعاون على تحقيق هذه الإستمالة : عاطفة إعتبارات الذات ، وهى عاطفة
تتجه إلى الذات وتقرر أى أنواع التصرفات والرغبات يناسب الذات ويجدر بها (١) ،

(١) الإنسان والأخلاق والمجتمع تأليف جون كارل فلوغل ترجمة عثمان
قويه ومراجعة الدكتور عبد الرحمن القرصى (من الألف كتاب) ص : ٢٩ .

وأهم النتائج التي نستخلصها في موضوع تكوين الخلق - على ضوء ما تقدم -
تتلخص فيما يلي :

أولاً : أن الخلق يندمج في النفس ويتوحد بالذات وبذلك يصبح طبيعة
ثانية وعادات ثابتة :

ثانياً : يتكون الخلق من الميل القلبي إلى المبادىء التي تؤمن بها وبغض
ما يناقضها .

ثالثاً : أن الواجبات الخلقية حين تتبناها النفس وتندمج فيها تصبح ميسورة
الآداء كالرغبات تماماً .

رابعاً : أن مجرد العلم والمعرفة بالقيم الخلقية لا يكفي لتكوين الخلق بل يجب
العمل على إستمالة النفس وتكوين العواطف التي تحرك الإرادة ، وتساعد
عاطفة إعتبار الذات ، في ذلك ، وهي العاطفة التي تصل إلى حد التضحية بالحياة
في سبيل القيم الدينية .

ومن الجدير بالنظر أن العديد من المستشرقين والمبشرين قد درسوا هذه
المسائل المتصلة بتكوين الخلق وتربية العاطفة الدينية وكيف يمكن أن يجهزوا
من يدعونهم إلى دينهم ، ويثبتوا العقائد في نفوسهم .. في الوقت الذي يسير فيه
أغلب دعاة الإسلام وعواظ المسلمين على أساليب لا تحقق النتائج المرجوة كما
يبتغيها ، وقد يجددهم أحياناً يعتمدون على أسلوب التخويف والترهيب من عذاب
الآخرة فحسب ، أو يعتمدون في الدعوة إلى الإسلام على مجرد تقديم المعارف
والمعلومات عن مزايا الإسلام وحكم الشريعة وسماحتها ، ولعل القارئ الكريم
يدرك معي ، أننا في عصر بات العلم فيه وميالة ، لا للتحكم فيما حولنا من مظاهر
الطبيعة والعالم المادي فحسب ، بل وصل الأمر إلى القدرة على التحكم في النفس

البشرية وسبب أغوارها وتوجيهها إلى سبيل الخير والمثل العليا والقيم الخلقية .

منهج المكون الخلقى :

يشغل كثير من الآباء والمربين والمصلحين أنفسهم بالتفكير فى كيفية بناء الخلق ، وكثيراً ما يتساءل الوالدن : كيف نغرس فى أبنائنا وبناتنا خلق العفاف والفضيلة والبر وكيف ننزع من نفوسهم خلق الرذيلة والفجور ؟

ويسلك الآباء إزاء أبنائهم وبناتهم أحد سبل ثلاث :

(١) فإما أن يسلكوا معهم سبيل الشدة والعنف واستعمال القسوة والحزم ، فيراقبون سيرهم وغدوهم ورواحهم ، ويحاسبونهم على ما يبدو لهم من تصرفاتهم ، ويؤاخذونهم مؤاخذه شديدة على ما يصدر عنهم من أخطاء ، وهم بذلك يمثلون بالنسبة لهم سلطة الضغط والقهر والعقاب ، وقد يهمل الأمر فى بعض الأحيان إلى حد شعور الأبناء والبنات بالخوف والرعب من آباءهم ولا يتجرأون على مخاطبتهم وبث ما يحول بخواطرهم لهم ، فإذا جلسوا فى حضرتهم لا ينطقون إلا إذا سئلوا ، ولا يتجاوزون فى ردهم حدود ما سئلوا عنه ، ولا ريب أن الآباء يعتبرون بهذا المظهر ويفخرون بأنهم قد ربوا أبنائهم وبناتهم فأحسنوا التربية ، وإنهم إذا اختاروا لأبنائهم طريقاً للحياة أو التعليم أو الزواج لم يكن لآرائهم والأبناء الخيرة من أمرهم ، فهم لا يعصون لهم أمراً ولا يردون لهم طلباً ، وهذا كله لا يعترض عليه ولا نقده - ومن وجهة النظر الأخلاقية على الأقل - ولا مجال هنا لبيان آثار ذلك من وجهه نظر طرق التربية ومناهج علم النفس ، فهو ليس موضوع هذا الكتاب ، ويخاف هذا المسلك من العيوب بشرطين :

أولهما : أن يكون للأبناء والبنات شخصية واحدة لا شخصيتين ، بمعنى أن

يكون سلوكهم الخفي لا يتناقض مع سلوكهم الظاهر، أما إذا كان الأمر غير ذلك، بأن كان لهم خلق ظاهر يتسم بالطيبة والوداعة والأدب، ولكنهم يأتون المنكر ويرتكبون أخطر الآثام في الخفاء فهنا تكون المصيبة مصيبتين : مصيبة الإنحراف في السلوك ومصيبة جهل الوالدين بهذا الإنحراف وعدم قيامهم بالتألي : محاولة تقويمه وإصلاح ما فسد .

أما ثانيهما : ألا تكون هذه السيطرة التامة من الآباء والإنصياع الكامل من الأبناء سبيلا إلى التكييف بما لا يجوز والتحكم فيما لا يصح التحكم فيه ، كإجبار الآباء والبنات على الزواج ، لا يرتضون ، بل وقد يصل الأمر إلى حد عدم أخذ رأيهم أو إستشارتهم في ذلك ، ومثل إجبارهم على قطيعة أرحامهم ومجاراة الوالدين في عداواتهم لأقربائهم وغير ذلك .

(٢) وأما المسلك الثاني الذي قد يلجأ إليه الوالدان مع أبنائهم فهو على نقيض المسلك السالف تماماً ، إذ هنا يعيش الأبناء والبنات وكأنهم بغير آباء وأمهات ، لا يشعرون بأى رقابة عليهم ولا يجدون من يحاسبهم فى أى أمر صغير أو كبيراً ، فيعيشون حسب أهوائهم وينطلقون وراء رغباتهم ، لا يهتمون فى ذلك عن الأبناء والبنات فى بعض الدول الأجنبية التى تشيع فيها الحريات الفردية إلى حد الفوضى ، ويصل الإستقلال بالشخصية والتصرفات إلى حد المجهرة بالمعاصى وعدم التخرج أو الحياء من أى منكر ... بل قد يصل الحال إلى ما هو أسوأ من ذلك أحياناً ، فلا يكتفى الأبناء والبنات بعدم توقير الوالدين بل قد يعتدون عليهم بالسب والشتم والإهانة ، ويتنزون أموالهم ومدخراتهم وقوتهم بالتهديد والقوة والإكراه ... ويقف الوالدان ، فى كهولتهم ، أمام هذا الإجرام من الأبناء عاجزين ثم لا الحسرة نفوسهم ، ويتمنون الموت للخلاص من شرورهم .

(٣) والمسلك الثالث في هذا المجال ، يختلف عن المسلكين السابقين معاً ، فهو وسط بينهما ، وهو وإن لم يكن المسلك المثالي أو السليم تماماً إلا أنه أفضل منها على كل حال ، ويتمثل في الوالدين الناصحين الذين يدأبون على نصيحة أبنائهم وتقديم تجاربهم وخبرات سني عمرهم لهم ، ويوضحون لهم طرق الخير وسبل الشر ، والابناء والبنات عادة يرضون أمثال أولئك الآباء بالاستماع والاصغاء لهم وعدم الاعتراض على نصائحهم وآرائهم ، وإن كانت تلك النصائح والآراء لا تجد في نفوسهم صدى ولا تلقى من قلوبهم استجابة ، يسمعونها ويشعرون بأنها تناديهم من مكان بعيد ، وبأنها تخالف ما عليه جيلهم وما يسيرون عليه هم وأمثالهم ، فالأم قد تحذر بنتها من تغرير الشباب وعيبتهم ، والآب قد ينصح ابنه بالا يقبل رشوة في أعمال وظيفته ، أو غشاً في امتحاناته ، فيسمعون ولا يعترضون وقد يؤمنون على سلامة الرأي وسلامة النصيحة ، ولكنهم لا يأخذون بها ، لأنهم تخلفوا بمعادات تخالف ذلك وتتفق مع واقع حياة يعيشون في غمارها ، ويكون الخطب تأفدح والضرر أوقع لو تيقن الابناء والبنات أن آباءهم يقولون ما لا يفعلون وينصحون بما يخالفونه في حياتهم وواقع سلوكهم الأخلاقي .

فإذا كانت هذه السبل الثلاث لا تصلح في تكوين الخلق لدى الأبناء فما هو السبيل الصحيح إذن ؟

إن النهج السليم في تكوين الخلق الحسن والتخلي عن الخلق الذميم يتطلب ثلاثة أمور :

فأما الأمر الأول : فهو كسب الثقة والمودة ، بحيث يندو الآباء والأمهات المصلحون والواعظون والداعون إلى سبيل الله موضع ثقة من يتوجهون إليهم بالنصح ويحل تقديرهم وحبهم ومودتهم ..

وكثيراً ما كان منحرف الأخلاق لدى الأبناء ناجماً عن بغضهم لأبائهم وأمهاتهم وكرهيتهم لكل ما يصدر عنهم ، وهذا يكون والآباء والأمهات من أهل الصلاح والتقوى ولكنهم فشوا في غرس المودة لهم في قلوب ذريتهم فأبغضوهم وأبغضوا منهمجهم الأخلاق منع أنه النهج المستقيم .

وقد يؤدي بغض الأبناء لأبائهم ، إلى صلاح الأبناء واستقامة أخلاقهم إذا كان أبائهم فاسدى الخلق وضيعى السلوك لأنك إذا أحببت إنساناً أحببت صورته وخلقته وأقواله وأفعاله ، وإذا أبغضت إنساناً كرهت منه كل ذلك .. ومن المعروف أن المدرس والمعلم قد يكون كلاهما السبب في كراهية تلاميذهم لنوع من الدراسة والعلوم أو الميل إليه والرغبة والتفوق فيه .. ولهذا ينتج من يعملون بالتبشير حين يبدأون أولاً بكسب ثقة ومودة من يريدون دعوتهم إلى الدين ، وقد يكون المبشر طبيباً أو ممرضة أو صيدلياً فيقيم أمتن الروابط وأوثق الصلات مع من يتعاملون معه ، فمتجّه عواطفهم وقلوبهم إليه ويستجيبون في يسر وطواعية لما يدعوهم إليه .

وليس هذا النهج قاصراً على المبشرين وحدهم ، بل أننا قد أوردناه كشال لواقع ملوس ومجرب ، ولكنه كان كذلك نهج الأنبياء والمرسلين إلى أمهم ، ونهج القادة والمصلحين عبر حقب التاريخ ..

يقول الله تعالى عن رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام :

« فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك .. » (١)

وليس سلوك هذا النهج فى كسب الثقة ومودة القلوب أمراً ميسوراً لكل
من يريد ، بل أنه يتطلب صفات خلقية رفيعة وشخصية ذات خصائص معينة
و ذات تأثير قوى عميق وخبرة نفسية واجتماعية واسعة ..

وقد سبق أن أشرنا إلى أن بعض المسلمين كانوا من أبرز العوامل فى إنتشار
الإسلام فى كثير من أرجاء العالم التى لم يفتحها المسلمون ولم تصل إليها
سجيو وشهم .

والأمر الثانى : هو الإقناع السلس بالموضوع الذى يدعو إليه ، وفى ذلك
يقول الله تعالى : أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي
هى أحسن ، (١) فلا يصلح فى ذلك مجرد إلقاء الكلام وتوجيه النصائح ليستجيب
من يستجيب ويعرض من يعرض ، فإن الإقناع بالحكمة يعنى إستعمال الحجج
والبراهين ، والإنتقال من المقدمات إلى النتائج فى تفكير مقنع يتفق مع منطق
العقل الإنسانى أما الموعظة الحسنة ، فتتحقق بمخاطبة العواطف واستمالة القلوب
واستثارة الوجدان ..

ومن الأمثلة الشهادة على ذلك . أن شاباً أتى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله
« شخص لى فى الرنا .. فلم ينهره الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يقابله بحكم الشريعة
القاسى الحاسم على تلك الجريمة النكراء ، بأنها فاحشة وقعت ومساءت سبيلا .. بل
قال له : هل ترضى هذا الأمر لاختك .. فقال الشاب : لا .. قال : هل ترضاه
لأهلك .. قال : لا .. فقال عليه الصلاة والسلام فكذلك مسائر الناس ..

إن الإقناع يعتمد إذن على تحليل المسألة الختية وتيسير فهمها فهما سليما لا

لبس فيه ، وإزالة ما يعوق ذلك الفهم من تزيين الشيطان وجحوش الشهوة ، وحجب الشيء بغمي ويصم كما جاء في الحديث الشريف .. واعتياد الأمر والتألف معه . يحجب حقيقة عيوبه عن ألفه واعتاد عليه ..

والأمر الثالث الذى يتطلبه تكوين الخلق هو تكوين عاطفة قوية نحو المبدأ الخلقى الذى يراد تكوينه ، وهذه العاطفة تربط بين الفرد وبين ذلك المبدأ برابطة حب عميق وتعلق شديد ، وبالنسبة لما يراد التخلي عنه من صور الخلق السيئة القبيح يجب عدم الإعتماد فى ذلك على مجرد الزجر والنهر والنهى والأمر والوعظ والتبصرة ، فذلك كله ينبغى أن يكمل بما هو أهم وأجدى وهو تكوين عاطفة كراهية وبغض وإزدراء نحو الخلق الذميم ، وبغير تكوين هذه العاطفة من الكراهية لما يراد التخلي عنه يقع الإنسان فى صراع نفسى شديد ، يزعزع ثقته بنفسه ويضعف إرادته ويوهن طاقته وجهده لوقوع الإنسان بين أمرين : أمر يحبه وتشتميه نفسه وتجه إرادته بحكم العادة إلى فعله وإتيانه ، ثم أمر ثان يتشبه فى موقف المعارضة والوقوف ضد هذا الفعل والإستنكار الشديد لآتيانه ، ومصدور هذه المعارضة هو النصائح والمواعظ التى تأتية من أهل التوجيه والرعاية أو من لهم الولاية عليه كوالديه ومن المجتمع الذى يعيش فيه بأعرافه وتقاليده ومن العقل نفسه فى بعض الأحيان ..

وقد سبق أن أشرنا إلى كل هذا ولم أخرج من تكراره لأهميته الكبيرة ، فى مجال التكوين الخلقى والتعود على الأخلاق الحسنة ، وقد يبقى بعد ذلك سؤال آخر هو : بأى العاطفتين نبدأ أولاً : عاطفة الكراهية والبغض لما يراد تركه من ذميم الخلق أم عاطفة الحب والتعلق لما يراد غرسه من نقيضه ، لا شك أن البدء بترك الذميم ينبغى أن يأتى أولاً وفى أصول الفقه قاعدة تقول : « درء المفاسد

مقدم على جلب المصالح ، وأهمية البدء بالتخلص من ذميم الخلق قبل غرس نقيضه من حسن الخلق تبدو فيما يلي :

أولاً : أن مجرد الكف عن الشر والإمساك عن الأدنى هو في حد ذاته خير وفضيلة ، وقد جرى عرف الناس على القول فيمن كثرت شروعه أنهم لا يطلبون إلا الوقاية من شره ، فالعاق لوالديه مثلاً لا يطلب منه في أول الأمر عند محاولة إثنائه عن هذا الخلق الشنيع إلا أن يكف عن إيذائهما والإساءة إليهما ... وصحيح أنه لن يتقلب بالكف أذاه إلى بار بوالديه أو بوالديه فإن عاطفة البر تتطلب إعرسها بجهوداً أخرى . ولهذا ينبغي الإشارة إلى أن مراد الله تعالى من عباده بالنسبة لعلاقة الأبناء بالآباء لم يقتصر على مجرد الكف عن أذاهم بل جاوز تلك الدرجة إلى درجة أسمى وأخطر شأنًا ، هي البر والإحسان . فالبر والإحسان ليسا إذن مجرد إمتناع عن الإثم والإساءة للوالدين بل هما فعل الخيرات والأعمال الصالحات وإيثارهما بحسن الصحبة والعشرة :

ولذلك فينبغي أن تبدأ مع العاق الذي يسمى إلى والديه بالدعوة لأن يتخلى أولاً عن إجرامه في حقهما أو في حق أحدهما وبيان جسامته ما يقترفه وعظم ذنبه ، فإذا وفق إلى ذلك ساعً أن يتوجه إلى غرس خلق البر والإحسان لديه .

ثانياً : إن بعض أنواع الخلق الذميم تعتبر الفضيلة فيها مجرد التخلي والترك ، مثل الزنا وشرب الخمر والربا والقتل ، فيكفي لبلوغ الفضائل عدم الإقتراب من الزنا وترك شرب الخمر والكف عن التعامل بالربا وعدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق .

ثالثاً : ثم أن بعض النفوس ليست مهياًة للتحلق بفضائل معينة ، فليس بميسور كل إنسان أن يتخلق بما شاء من خلق ، فالنفس طاقة ولها وسع وقدرة : والله

تعالى يقول : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، رحمة منه وعدلا .. وإذن فإن أول ما ينبغي السعى إليه هو التخلص من الخلق الذميمة أولا ، فلربما عجز عن التخليق بفضيلة الخلق الحسن الذى يقابله .

رابعا : أن أغلب الناس ليسوا على خاق رفيع وأن غاية ما نرجوه من أكثر الناس وعامتهم أن يكفوا عن سوء الخلق وأن يحفظوا المجتمع من شسورهم ، ولا يتيسر لآى دعوة إصلاحية أن تحول الناس أو أغلبهم إلى صديقين أو أبرار محسنين ، ولا يسوغ إذن أن تبدد جهودها وطاقاتها فى ذلك ، فإن هذا وإن كان غاية تفرح القلوب وتبعث الرضى ، إلا أنها غاية لا تنال ، ولم تيسر طبائع النفوس ولا صفات البشر تحفيقها حتى للرسول والانبيااء وقد ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه العزيز ، فقال تعالى : وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (١) .

وغاية ما يرجوه الإسلام من المسلم أن يسلم المسلمون من لسانه ويده .

خامسا : وأخيرا فإن التوبة فى الإسلام لا تتطلب أكثر من هذا : أى من التخلي عن فعل السوء وترك الفاحشة والندم على إتيان ذلك يقول تعالى : والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون .. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ، (٢) . والإصرار على فعل السوء هو الذى يكون الخلق السيء ، والتوبة والندم والاستغفار الذى يحول دون تعود السوء وتحوله إلى خلق ثابت قبيح ، ولهذا

(١) سورة يوسف : آية ١٠٣ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٣٥ و ١٣٦ .

أمر الله تعالى عباده بالتوبة ودعاهم إلى الاستغفار والأحاديث الشريفة عديدة كثيرة في الحث على الاستغفار وإعتباره الباب إلى رضوان الله تعالى : فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال عليه السلام : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب » .

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي عليه السلام قال : سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك (١) بنعمتك على وأبوء بذنبي ، فأغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها بالنهار موقفاً بها فمات من يومه قبل أن يمى فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة ، (٢) .

فالخلاصة أن التخلى عن سىء الخلق هو أول ما يجب البدء به وهو الأول في مجال التربية الخلقية والإصلاح الأخلاقى .. ومن شاء الله تعالى له من يبدأ من الدرجات العلى رزقه بعد ذلك حسن الخلق ورفعته برحمته وفضله إلى منازل المقربين والابرار .. والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وإذ قد تكللنا عن مفهوم كل من الأخلاق والخلق ، نشير إلى أن الخلق لا علاقة له بمعناهما ، بل هو الصيب ، يقول تعالى : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم (٣) » .

(١) أبوء : يعنى أقر وأعترف .

(٢) الأذكار لمحي الدين النووي - المرجع السابق - ص ٥٤٤ .

(٣) سورة آل عمران : آية ٧٧ .

الفصل الثاني

أهمية الأخلاق

لما كانت الأخلاق تمثل الجانب النفسى فى حياة الإنسان فإنها تعد بمثابة الركيزة المعنوية لكل عمل يقوم به ، وبمثابة الروح لكل بناء إنسانى سواء فى مجال الأسرة أو المجتمع .

فالرجل والمرأة قد تجمع بينهما رابطة الزواج ، ويمكن أن تصبح لهما أسرة . تضم ما يرزقهما الله به من البنين أو البنات ، ولكن جرد هذه الأسرة كلها أو بعضها من مبادئ الأخلاق ، وسوف تجد نفسك أمام جماعة من البشر لا يصلون إلى مستوى أى جماعة لا تربط بينها قرابة ولا صلة وتعيش فى فندق أو معسكر على ساحل البحر أو بالقرب من غابة أو فى الصحراء .. ستجد أسرة يتربص كل فرد فيها بغيره ولا يثق فيه ولا يطمئن إليه ، ولا تربطه به مودة ولا عاطفة ، بل ولا رحمة ، ثم لا تستطيع بعد ذلك أن تعثر على معان خلقية سامية مثل الإيثار وإنكار الذات والسيطرة على الرغبات والشهوات . مثل تلك الأسرة التى تجردت عنها الأخلاق أشبه بجماعة بشرية تعيش فى عزلة عن الدين والحضارة والثقافة ... ويسير أفرادها طوع غراًئهم وشهواتهم ومصالحهم ، ولما كانت الشهوات والرغبات والمصالح تختلف وتتعارض فمن الضرورى أن يشور الخلاف والشجار وأن تمتلئ النفوس والقلوب بمشاعر العداء الذى يظهر حيناً ويختفى حيناً آخر .. وهكذا سوف تجد رب الأسرة يرتشى إن كان موظفاً ويخون ويفش إن كان غنيماً ذلك ، والمرأة تسكت عن المنكر والابناء منحرفون ، والبيت تخيم عليه نذر الضياع ويصبح أشبه بسفينة بلا ربان أو لها رابطة متعددة دون مختلفون .

تتلاطمها الأمواج وتوشك على الهلاك وإن من أهم ما يميز الأسرة المنحلة لإنعدام السلطة القوية الرشيدة التي يقتنع بها كل أفراد الأسرة ويلتزمون بما تضعه كنهج سلوك للأسرة .

وقل مثل ذلك عن المجتمع الذي تنحل أخلاقه ، وتنحط قيمه ، فسوف تجد الهش فيه أصبح أمراً ثقيلاً ، فلا تراحم ولا رحمة ، وإنما قسوة وفظاظة ، ولا فناعة ولا رضى ، وإنما نهم وجشع وشيوع المنكر وتوارى المعروف وأهله ، وشح لدى الأغنياء وسوء خلق لدى الفقراء ، وفساد بين العلماء ، وتطاول للجهلاء ، واختلال في القيم والموازن الاجتماعية فالمحسن يلقي جزاء السوء ، والسوء يلقي الرفعة والتقدير ثم لا يلبث أن يتطرق الفساد الخلفي إلى أفراد الجهاز الحكومى فتشيع الرشوة وينعدم الضمير والحرص على الصالح العام وفي فترات من التاريخ الإسلامى وصل الفساد إلى حد رشوة الفقهاء والعلماء والقضاة والولاة والحكام . وبذلك يصبح المجتمع مجتمع وحوش في غابة ، الغلبة فيه للأقوى والأشرس والأشد أظفاراً وأنياباً ، ويصبح صاحب الباطل قوياً بما له وصاحب الحق ضعيفاً بفقره ، ثم تتوارى وتذوب قيم العدل والخير والمعروف والأخلاق ، فتصيح لا وزن لها ، ولا لمن يتمسك بها ، وتعلو قيم الفساد كالفتخر والمباهاة والفاق والرياء والفجور وتقوى سيطرة أصحابها وتصبح في مجتمع الفاسقين المنافقين الذى قال الله تعالى فيه : والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ، أن المنافقين هم الماسقون (١) ولك أن تحكم بنفسك على مثل هذا المجتمع الذى تهرأت منه الأخلاق وفرت منه الفضيلة أى مجتمع يكون وكيف تخسدو الحياة فيه حيث

تشجيع الفاحشة وينتشر الزنا وشرب الخمر والميسر والغش والكذب ، فلا يأمن الإنسان على عرضه ولا على ماله ولا على دمه ..

وهنا قد يقول البعض ، وقد سمعت ذلك كثيرا ، أن العديد من المجتمعات في الغرب والشرق تنتشر فيها الأخلاق الفاسدة وينغاب على أفرادها الانحلال ، ولا يعرفون الدين ، ومع هذا فهي مجتمعات متحضرة متقدمة علميا وصناعيا وإقتصاديا وسبقت المسلمين بمسافات شاسعة في هذه الميادين ، بل وتبيع لهم ما زاد من إنتاجها من الغذاء والسلاح والدواء ..

فما أهمية الأخلاق وما هي آثارها إذن ؟

والحقيقة أن مثل هذا التساؤل ومثل ذلك الأسلوب في التفكير كان أحدهم العوامل التي ساعدت على انحطاط الأخلاق في عدد من المجتمعات الإسلامية ، بل وتنكب بعضها عن طريق الدين الإسلامي وأخذها بالإتجاه العلماني وإبعاد الدين عن السيادة والحكم والدولة وتنظيم المجتمع بدعوى أن هذا ما يحقق له التقدم الحضاري المنشود ..

والرد على أمثال هؤلاء وعلى دعاوهم وتصوراتهم يمكننا أن نجعله فيما يلي :

أولا : أنهم يقصرون نظرهم على التقدم المادي في بعض المجتمعات التي لا تعنى بالدين أو الأخلاق ، فيبهرهم النجاح الإقتصادي في مجالات الصناعة والزراعة والتجارة وكذلك التقدم الكبير في دراسات وبحوث العلوم الطبيعية والإنسانية وما يتعلق بكل ذلك من التكنولوجيا وازدهار الفنون والآداب ، وما يؤدي إليه ذلك من القدرة وامتلاك الأسلحة والدخائر وتحقيق القوة العسكرية. بينما يغفلون أو يتجاهلون الجوانب المعنوية في الحياة ، فالتقويم المادية ليست كل شيء وإغفال

القيم المعنوية التي تتمثل في الدين والأخلاق ليس أمرا هيننا يسيرا بل هو أمر بالغ الخطورة وخيم الآثار ، وقد أفرغ علم تلك المجتمعات بذلك ونهبوا إلى خطورة الأزمات التي تمسك بخناق الناس فيها ، ويقول ذلك أحدهم : أن الأزمة المعنوية التي تكافح فيها مدينتا الغربية منذ ثلاثة قرون إنما هي أزمة خلقية (١) .

فالرخاء المادى لا يكفى وحده ولا يغنى عن الرخاء المعنوى ، وإن تشعر المجتمعات والأفراد بالرضى والطمأنينة والقناعة بأن تكون الحياة خلواً من الجوانب المعنوية والنفسية التي تتمثل في الدين والأخلاق .. بل لقد أثبتت آخر الأبحاث الطبية أن العديد من الأمراض التي يشكو منها أغلب الناس لا ترجع إلى أسباب عضوية وإنما ترجع إلى عوامل نفسية ، وقد نشأ لذلك علم جديد هو الطب النفسى الجسمى : (Psycho - physique)

ومن بين تلك الأمراض أمراض الهضم والمعدة والأمعاء والقرلون وأمراض المرارة والكبد والقلب .. ومن التعبيرات العربية القديمة ، قولهم : إنخلع قلبه ، وإحترق كبده ، ويقول تعالى عن سيدنا يعقوب عليه السلام فى بيان مبلغ حزنه على يوسف عليه السلام : وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وأبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم (٢) .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : اللهم نصف الهرم . والمسيح عليه السلام يقول : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، أن الحضارة المادية الصرفة إذا خلت من المدنية والثقافة الراقية ، ومن القيم المعنوية السامية ، ومن تعاليم تقيم

(١) المشكلة الأخلاقية : بارودى :

(٢) سورة يوسف : آية ٨٤ .

أحكام الدين وقواعد الاخلاق تغدو حضارة عقيمة تدمر ما تعمّر وتأكل ما تلد وتهبط بالإنسان إلى مدارك الحيوانية بدلاً من الرقي به في مدارج الإنسانية .

ولا ننسى أن نشير إلى ما نجم عن الحياة المادية الصرفة ومن الإنسياق وراء الشهوات وما تهوى الأنفس ومن تجاهل القيم الأخلاقية والتكبر لها من إنتشار أمراض يمكن أن يطلق عليها أمراض الفساد الخلقي مثل الأمراض التناسلية كالزهري والسيلان والأمراض الجلدية والفطرية والعقم وتنافس السكان بدل ازديادهم حتى أن بعض المجتمعات لم يزد سكانها منذ سنوات بل والبعض الآخر ينقص عدد سكانها كل عام ...

ثانياً : أن أولئك الذين يرفعون أصواتهم بعدم أهمية الاخلاق في مجال التقدم الإجتماعي ، لم يفرقوا بين الوسيلة والغاية في نظرهم إلى معنى التقدم فالتقدم العلمي والإقتصادي والعمراني تعود دوافعه إلى تحقيق غاية معينة : هي تحقيق الخير والسعادة للإنسان ، فالتقدم وسيلة وليس غاية في حد ذاته ، والهدف هو توفير الراحة والطأنينة والرفاهية للإنسان ، والسعى إلى تحقيق السعادة للفرد والمجتمع .. ولكن ننظر إلى مقدار ما تحقق في هذا المجال .. وإن نجد إلا انهيار مفهوم الأسرة مع انهيار مفهوم العفة ؛ وشيوع الأمراض النفسية والعقلية وذيوع الإحتجار مما يدل على عدم الشعور بمعنى الحياة والضيق بها والتبرم منها ، وليس هذا مجرد إتهام بل هو وقائع وحقائق أظهرتها الدراسات والإحصاءات في عديد من المجتمعات وعبرت عنها بالأرقام والاستقصاء .

فلا ينكر أهمية الاخلاق إذن : سواء بالنسبة للفرد أو المجتمع إلا لإنسان كافر بأديان الله السماوية أو أمرؤ جاحد بالقيم الإنسانية وقد كان الاولى ألا يظهر عين المسلمين من يتبع هذا الضلال ويتبع خطى أولئك المنكرين لضرورة الاخلاق

وأهميتها ، وكان الاولى كذلك أن يكتب ذلك الفريق الضال ، فلا يسمع لهم رأى ولا يقام لهم وزن ..

ولكن ما حدث في بعض المجتمعات الإسلامية كان - مع الأسف والأسى - غير ذلك ، وتلك ثماره يجنيها ملايين المسلمين الآن .
لقد نسي أولئك المارقون ، المتكبرون للأخلاق ، قول الله تعالى في كتابه الحكيم :

« قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فانقوا الله يا أولي الألباب » (١) . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يفض الفاحش البذي (٢) ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ : « أن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » .

وعن أبي أمامه الباهلي رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أنا زعيم (٣) ببئيت في ربض الجنة (٤) لمن ترك المراء (٥) ولو كان محقا ، وبئيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مادحا ، وبئيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه .

وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أن من أحبكم إلى وأقربكم

(١) سورة المائدة : آية ١٠٠ .

(٢) البذي هو الذى يتكلم بالفحش وردىء الكلام .

(٣) أنا زعيم أى أنا ضامن .

(٤) في ربض الجنة أى حولها كالأبنية التى حول المدينة .

(٥) المراء الجدال .

منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن من أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم
القيامة الثرثارون والمتشدقون ، والمتفيعهون ، قالوا يا رسول الله قد علمنا
الثرثارون والمتشدقون (١) فما المتفيعهون ؟ قال : المتكبرون .

وروى الترمذى عن عبد الله بن المبارك رحمه الله فى تفسير حسن الخلق قال :
هو طلاقة الوجه ، وبذل المعروف ، وكف الاذى .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان ذا خاق عظيم كما وصفه بذلك رب العزة
سبحانه وتعالى فى قوله : وأنت لعلى خاق عظيم (٢) وأمرنا الله تعالى بأى تتأسى
به ونسير على سنته وتتبعه ونقلده فقال تعالى : لقد كان لكم فى رسول الله أسوة
حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً (٣) .

وكان عليه الصلاة والسلام يقول : أن من خياركم أحسنكم أخلاقاً (متفق)
عليه) وقال عليه السلام : « البر حسن الخلق » (٤) .

جاء الإسلام بالعقيدة والعبادات والمعاملات ، وهدانا الله إلى طريق عبادته
بها ، والاخلاق هى أساس صلاح تلك العبادة ، فلا تجد حكماً شرعياً يستثنى عن
قاعدة أخلاقية ، ولو جردنا الأحكام الشرعية من جانبها الأخلاقى لفسدت عديمة
الآثر وتمثل الأخلاق الجانب الإنسانى فى كل عمل يقوم على أحكام الشريعة ،
وإذا كانت شعب الشريعة المختلفة من عقائد وعبادات ومعاملات ونظم قد جعلها

(١) الثرثار هو كثير الكلام تكلفاً والمتشدق المتطاول على الناس بكلامه ،
ويتكلم بملء فيه نفاصحا وتعظيماً لكلامه .

(٢) سورة القلم : آية ٤ .

(٣) سورة الاحزاب : آية ٢١ هـ

(٤) ريان الصالحين للنووى صفحة ٢٧١ ،

الله تعالى طريقاً إلى تحقيق السعادة للإنسان في الدارين فإن تلك السعادة لا بد للحصول عليها وتحقيقها من حسن الخلق ، ويدل تاريخ الرسالات السماوية وإرشاداتها على أن إنقطاع شعب الدين عن شجرة الاخلاق أو إنقطاع شجرة الاخلاق عنها يهدم في النفوس وفي الحياة الأثر الذي ترتبه الحكمة الإلهية في الإنسان على التكليف بهذه الشعب والإرشاد إلى التمسك بها ، وليس الخلق المطلوب في صون هذه الشعب التي يرجع إليها الدين عند الله ، مجرد أن يعرف أن الصدق فضيلة والكذب رذيلة وأن الإخلاص سمو والمكر والخداع إنحطاط ، ولا مجرد الحديث بين الناس عن ذلك ، وأن الناس تخلوا عن الاخلاق الفاضلة ، وإنما الخلق ، هو إنفعال النفس وتأثرها بما ينبغي أن يكون فيفعل وبما لا ينبغي أن يكون فيستترك .

والخلق بهذا المعنى : هو الصيام لهذه الشعب كلها ، وهو المعتمد الذي يتمسك به من أراد أن يكون مسلماً حقاً ، والعقيدة وما إليها دون خلق شجرة لا ظل لها ولا ثمرة والخلق دون عقيدة ظل أشبح غير مستقر .

ومن هنا كانت العناية بالإسلام بالخلق عناية تفوق كل عناية ولقد وصلت هذه العناية عند الرسول محمد ﷺ إلى أن جعل الخلق متعلقاً برسائله ، إنما بعثت لإتمام مكارم الاخلاق ، وقد كثرت توصيات الرسول ﷺ في هذا الجانب حتى قال : (أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق) وحتى جاء رجل ذات مرة ووقف بين يديه وسأله : ما الدين يا رسول الله ؟ فقال : حسن الخلق . فجاءه من قبل يمينه وسأله السؤال نفسه وكان الجواب حسن الخلق ثم جاءه من الشمال ، ومن الخلف ، وسأله السؤال ، وكان الجواب هو الجواب ، وما أشد وقع حكم الرسول ﷺ على المرأة التي قيل له فيها : أن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق ، تؤذى جيرانها بلسانها . فقال : لا خير فيها هي مرأه

النار . وما أشد وقع هذا الحكم على هؤلاء الذين وقفوا من الدين عند مجرد الكلام وكثرة التحدث عن الفضيلة وصور العبادات وأشكالها ، ثم ما كانت نفوسهم مجبولة إلا على الغش والمكر والخداع والمناق والنفاق . يدبرون السوء ويفسدون ما بين الناس من روابط ، مستعينين بتشويه الحقائق ودس الأكاذيب والعمل على كل ما يقوض دعائم الحياة الطيبة الفاضلة ، هؤلاء في واقعهم ليسوا من التدين في شيء ، وإن الله سبحانه وتعالى لم يجعل الإيمان به أساس دينه ، ولم يجعل العبادات أركاناً له إلا لما تحدثه من أثر طيب في النفوس ويكون عنصراً لتكون الخلق الفاضل وأنظر وتأمل قوله : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وإن تشر كوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » لتعرف أن هؤلاء بوضعهم الخلق ومساكنهم بين الناس وإزاء المصالح العامة قد استحلوا لأنفسهم ما بطن من الفواحش واستحلوا لأنفسهم الإثم والبغى بغير الحق وقالوا على الله ما يعتقدون بغض الله له . يقول الله تعالى : « يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون فالعبادة وسيلة للتقوى وحسن الخلق من التقوى .

في ظل هذه الشعبة ، شعبة الإثم ، يكون الربانيون والشهداء والصالحون وفي ظاهها يكون الأئمة والهداة والمرشدون وفي ظلها تطهر النفس الإنسانية من الحقد والحسد والمناق والجبن والكذب والخيانة وما إلى ذلك من الإثم السيئ التي كثيراً ما أفستت على الناس حياتهم وتوارت في ظلماتها القاتمة وسائل الخير والصلاح (١) .

(١) الإسلام عقيدة وشريعة للإمام الأكبر محمود شلتوت — طبعية دار الشرق — ص ٤٨٢ .

ولك أن تتأمل في المجتمع الذي تعيش فيه وتنظر إلى من تعرفهم من الأفراد والأسر ، لتعلم أثر الأخلاق في كل جوانب الحياة ..

فكم من حياة زوجية قامت على منة الله ورسوله ثم تحطمت بسبب سوء الخلق في الزوج أو الزوجة أو فيهما فتفككت روابطهما وذابت المودة والرحمة وقد يتشرد الأبناء والبنات ولا يجدون غالباً من ينشئهم على الفضائل ويربهم على حسن الخلق .

وكم من روابط متينة ، وصلات وثيقة ، كانت تجمع بين الأقارب وأولي الأرحام ، أو بين الأصدقاء والأقران أو بين الزملاء في العمل أو الجيران ، قطعها سوء الخلق مثل السعي بالوشاية والمشى بالنميمة والكذب والبهتان .. يقول تعالى : « قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد » .

والنفث في العقد يكون بالسحر كما قد يكون — في قول بعض المفسرين — بإفساد ما ينعقد بين الناس من روابط ، كعقدة الزواج والأخوة والصداقة .. ويكون هذا بموائل الشر المعروفة كالوشاية والنميمة .

ويقول تعالى : « قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس » وتلك صورة أخرى من صور الأخلاق السيئة وهي الوسوسة في صدور الناس التي تقع من بعض الناس ، وهي الكلام الذي يلقى إلى السامع فيثير فيه عوامل الشر والسخط ويشجع على الفسوق والعصيان ، ويسبب الفتق والشك والحيرة ويؤدي باختصار إلى الفتنة : فتنة الدنيا والدين .

وأول من تعرض لهذه الوسوسة آدم وحواء وهما فى الجنة الله وفى ظلال
عرشوانه . قال تعالى :

« ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقريا هذه
الشجرة فتكونا من الظالمين . فرسوس لها الشيطان ليبدى لها ما وورى عنها من
معوهاتهما وقال ما نها كما ربكا عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من
الضالين . وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين » (١) .

ولا زال ابليس وجنوده من الإنس والجن ماضون فى هذا الإفساد
بالوسوسة ، فيخرجون الناس من نعم الطاعة إلى ظلام المعصية ومن طهينة القلب
الى النفس إلى شقاوتها :

كما أن سوء الخلق يحول الزوجة من الطاعة إلى الشوز والابن والبنت من البر
الى التقوق والمرموسى من الطاعة إلى المخالفة ، والرعية من الالتمثال إلى المعصية
والموظف من الالمانية وحسن العمل إلى الفساد والرشوة ، والإنسان من الرضى
الى القلمانية إلى القلق والسخط ويحرمه من فضائل الصبر والقناعة والعفاف .

وسوف نتضح لنا آثار الاخلاق وأهميتها حين نتناول أقسامها وأنواعها فى
الفصل التالى :

الفصل الثالث

أقسام الأخلاق

إن الصفات الخلقية كثيرة متعددة الأنواع ويمكن لنا تقسيمها إلى عدة أقسام باعتبارات مختلفة :

(أ) فإنه بالنظر إلى طبيعة الأخلاق يمكن أن تنقسم إلى أخلاق بسيطة وأخلاق مركبة وأخلاق نظرية وأخلاق عملية .

(ب) وبالنظر إلى ظهورها وخفائها تنقسم إلى أخلاق السلوك وأخلاق النفس أو الأخلاق الظاهرة والأخلاق الباطنة .

(ج) وبالنسبة لمن يتصف بها يمكن تقسيمها إلى أخلاق الفرد وأخلاق الجماعة أو الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية .

(د) وأخيرا فبالنسبة لطوائف من يتصفون بها يمكن تقسيمها إلى أخلاق الحكام وأخلاق الحكم وأخلاق السياسة وأخلاق العلماء وأخلاق النساء .

والحقيقة أن تفصيل القول في هذه الأقسام والأنواع من الأخلاق إنما يتطلب عدة مؤلفات وليس مجرد فصل واحد من هذا الكتاب ، ولهذا فإنني أرجو أن يعينني الله على بسط القول فيها في مؤلفات مستقلة تصدر فيما بعد . واكتفي في هذا الفصل بتقسيم أنواع الأخلاق هذه إلى اثني عشر قسما في اثني عشر صبيحا بالترتيب التالي :

المبحث الأول : عن الأخلاق البسيطة والمركبة .

المبحث الثاني : عن التخلق بأخلاق الله تعالى هـ

المبحث الثالث : عن أخلاق الفكر هـ

المبحث الرابع : أخلاق السلوك .

المبحث الخامس : عن الأخلاق الفردية .

المبحث السادس : عن الأخلاق الاجتماعية .

المبحث السابع : عن أخلاق الحكم .

المبحث الثامن : عن أخلاق السياسة .

المبحث التاسع : عن أخلاق العلماء .

المبحث العاشر : عن أخلاق النساء .

المبحث الحادي عشر : عن الأخلاق النظرية .

المبحث الثاني عشر : عن أخلاق المنافقين .

وفيما يلي بيان ذلك :

المبحث الأول الأخلاق البسيطة والمركبة

قد يتصف شخصان بنوع واحد من الخلق ، كالصبر ومع ذلك تجد أن سلوك أحدهما يختلف عن سلوك الآخر ، فأحدهما يتصف سلوكه بعزة النفس والآخر يتصف بالذلة والمهانة . هذا الاختلاف قد يحار المرء في تحليله ، ولكن معرفة الفرق بين الأخلاق البسيطة والأخلاق المركبة هي التي تبرر هذا الاختلاف ، فخلق الصبر مع خلق الشعور بالكرامة يؤدي إلى سلوك يتسم بعزة النفس ، بينما الصبر مع عدم المحافظة على الكرامة يؤدي إلى خلق الذلة والمهانة ... وهكذا نجد أن بعض أنواع الأخلاق تتكون من خلقين أو أكثر ومن هنا يظهر التباين في أنماط الشخصيات وأنواع السلوك الفردي والاجتماعي .

فبالنسبة للأخلاق الاجتماعية نجد أن إقتصارها على نوع الفضائل الدينية وعدم إنضمام فضائل العمل والتحضر إليها يؤدي إلى التخلف ونقص الفضائل لعمل والتحضر الفضائل الخلقية التي تتصف بها الشعوب والمجتمعات التي لا تعتمد على الدين في حياتها مثل : عادات النظام وحب النجاح والتفوق والقدرة على الإبداع والمنافسة والقدرة على الاستمادة من السلبيات وتحويلها إلى إيجابيات كل تلك الصفات وغيرها تؤدي إلى التحضر والرقى الاجتماعي والاقتصادي والتقدم العسكري ..

ولا يمكن أن تتقدم المجتمعات الإسلامية والكثير من بينها ترى أن الشفقة بالفرء أهم من مصلحة الجماعة ، وأن العفو عن المسمى والخطيء فضيلة خلقية ، وأن ترك السمي والنظام والعمل لا يضير في إعتبار الفرد فاضلا طالما أنه لا يشرب الخمر ولا يزني ولا يسرق ، وقد دفع هذا العديد من المفكرين مثل الشيخ محمد عبده

ومالك بن نبي وغيرهما إلى التنبيه إلى خطورة هذا الفهم لمعنى الأخلاق في الإسلام وقال أولهما حين زار أوربا : رأيت أخلاق وسلوك المسلمين عند قوم ليسوا بمسلمين ورأيت في الشرق سلوك وأخلاق غير المسلمين عند قوم مسلمين .

ولو كان النجاح في الحياة الدنيا لا يتطلب صفات خلقية أخرى غير الأخلاق الدينية ، أو لو كانت الأخلاق الدينية وحدها تغني عن الإتيان بصفات خلقية تتطلبها المعيشة في الحياة الدنيا ، لاكتفى بذلك الأنبياء والرسل وتركوا أمور الحياة دون سعي لها ، ولكنهم جميعاً عملوا للدين والدنيا معاً وعرفوا كيف يتعاملون مع المؤمنين وكيف يعاملون الكفار والمشركين والمنافقين ..

أن الرسول ﷺ لم يكتف باندعاء على الكفار والمشركين ويقتصر جهده وصحابه على هذا ، بل هاجر بدينه وأعد أعدائه ونفى فـوة المسلمين في المدينة واعتمد في غزواته على الجهاد والإستشهاد ولم يترك لله تعالى وملائكته أن يعاروا معاركة ، ثم أن وسائل العيش من زراعة وصناعة وتجارة لا يقتصر النجاح والتقدم فيها على الشواكل بل تتطلب العمل الدائب الصابر والخلق المشابر فإذا انضم إليهما التوكل على الله كان الفوز عظيماً ..

ولا يكفي أن يكرر الخطباء في المساجد منذ أكثر من ألف عام وفي كل خطبة جمعة ذلك الدعاء المعمود بأن يهلك الله أعداء الدين وينصر نامة الله ، فالله تعالى ينصر من ينصره ، ويعمل على جعل كلمة الله هي العليا بالجهاد والعلم والصبر والأخلاق الفاضلة .

ومنورد فيما يلي أمثلة أو نماذج لصور من الأخلاق المركبة التي نوضح أن لمقتران صفة خلقية بصفة خلقية أخرى تماثلها أو تنافضها يؤدى إلى تغير بارز ظاهر في سلوك الفرد والمجتمع .

- التقوى + الإيجابية = ثورة على المنكر .
 التقوى + سلبية = سكوت عن المنكر .
 العفة + إيجابية = نشاط محتشم .
 العفة + سلبية = عزلة خاملة .
 المحبة + يقظة = تعاون .
 المحبة + بلادة = مجرد عاطفة أو دعاء .
 الشجاعة + الإندفاع = التهور .
 الغضب + الكراهية = الانتقام .
 الغضب + عدم التبصر = حق .
 الغيرة + الإنفال = ثورة وجنون .
 الغيرة + التعقل = المنافسة .

وهناك خلقان لا يجتمعان في فرد إلا زاناه وجملاه كما أنه لو اجتمع خلقان في إنسان لانتفى عنه وصف الإيمان . وقد قال رسول الله ﷺ خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق كما نفى رسول الله ﷺ أن يكون المؤمن كاذباً . وكذلك نجد أن الإخلاص لله تعالى إذا أضيف إليه خالق التسامح أثر خلق التعاون أما إذا إقترن بالتعصب أنتج الطائفية (١) .

(١) عبد الحليم محمد أبو شقة - العدد الأول والثاني من مجلة المسلم المعاصر - ربيع الثاني ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م - صفحة ٤١ .

المبحث الثاني

التخلق بأخلاق الله تعالى

قال رسول الله ﷺ : « تخلقوا بأخلاق الله » ، فما هي أخلاق الله تعالى التي يدعو رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام إلى أن نتخلق بها ؟

إن المقصود بأخلاق الله تعالى صفاته وأسمائه الحسنى ، وليس المقصود أن نقسمي بتلك الأسماء والصفات ، وإنما المطلوب من هداة الله إلى التقوى وحسن الخلق أن يتخلق بالمعاني الخلقية التي تدل عاينها أسماء الله تعالى وصفاته مثل الرحمة والمغفرة والعفو والصفح والحمد والشكر والحلم والصبر ..

وتنقسم أسماء الله تعالى وصفاته ، وهي تسع وتسعون إسماً . . بالنظر إلى هذا الاعتبار أى إمكان التخلق بها إلى قسمين :

(أ) « أسماء للتعلق » .

(ب) « أسماء للتخلق » .

والقسم الأول الذى يشمل أسماء التعلق لا يقبل النظر إليه واعتباره إلا وسيلة لهداء الله تعالى وتنزيهه وتسميحه وانفراده بتلك الأسماء والصفات التي سمي بها ذاته العلية .

ومن أمثلة أسماء الله تعالى التي لا يجوز فيها إلا التعلق : اسم الجلالة : الله ، والأول والآخر والظاهر والباطن والحي القيوم ، والمتكبر والخالق والبارئ والمصور والباعث .. وهذا على سبيل المثال لا الحصر ومن أمثلة أسماء الله تعالى التي يجوز المسلم أن يتخلق بها : إبر والرحيم والغفور والشاكر والصبور والحليم ..

حلى أن ما ينبغي التنبه إليه : أن التخلق ببعض صفات الله تعالى تحقيقاً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام « تخلقوا بأخلاق الله ، لا يعني أن المخلوق أصبح يتخلق مع الخالق بصفة واحدة ، فإن الله تعالى المثل الأعلى ، وهو سبحانه ليس كمثله شيء ، وإنما المقصود أن يجب المؤمن صفات الله تعالى التي وصف بها ذاته العلية والقيم العليا التي تدعو إليها ودعوة الله عباده. أن يتصفوا بها وأن يتخلقوا بها ، فإن الله تعالى هو الصبور وهو سبحانه يحب الصابرين وهو البر الرحيم الخليم الحميد الشكور ويحب في عباده صفات البر والرحمة والحلم والحمد والشكر ولكن من صفات الله تعالى ما يمتنع أن يتخلق بها معشر الإنس والجن فهو سبحانه الجبار المتكبر وهو يمتنع كل متكبر جبار . وقد كان الرسل والأنبياء أكثر خلق الله تخلقاً بأخلاق الله تعالى ، وقد وصفهم الله تعالى بعدد من صفاته مثل قوله تعالى :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليكم ما عظم صنيعكم عليكم » (١) .
وهو « رحيم » .

وقد وصف الله تعالى ذاته فقال : « وإن الله بالناس لرؤوف رحيم » .

وقال رسول الله ﷺ :

« إن لله ثلاثمائة خلق من تخلق بأحدها دخل الجنة ، .. وقد اتصف الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بخلق الحلم ووصفه الله تعالى به في قوله : « إن إبراهيم لأواه حليم ، ووصف الله تعالى كلا من نوح وموسى عليهم الصلاة والسلام بأهلها من الشاكرين فقال تعالى : « لقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً . ذرية من حملنا مع نوح أنه كان عبداً شكوراً » .

(١) سررة التوبة : ختامها .

المبحث الثالث

أخلاق الفكر

أخلاق الفكر هي كل ما نفكر فيه ونشعر به مما يتعلق بالأخلاق ، وهناك أنواع من التفكير يمارسها العقل مثل التفكير العلمي والتفكير المجرد والتفكير القائم على التداعي والترابط والتفكير التصوري والخيالي وهناك أيضاً التفكير الأخلاقي .. والأفكار الخلقية دور هام في اتجاهاتنا السلوكية وأعمالنا وتصرفاتنا ، وفي تكوين الشعور الخلق ، فالأخلاق ليست أعمالاً لا إرادية ولكنها أعمال تبدأ بالتفكير وتقليب أوجه النظر والمقارنة بين الإختيارات المختلفة المتاحة أمام الإنسان ثم يتجه القصد والإرادة إلى تبنيها وتنفيذها إن كانت ، ما يخرج إلى حيز التنفيذ أو تبقى شعوراً مصمماً عليه إن كانت مما لا يظهر ويظل قاصراً على الفكر والشعور كالبعض والحب والحقد والحسد مثلاً .. وثمة جانب من الفكر الأخلاقي يتصل بالعقيدة الدينية وما يترتب على الإيمان بها من الخير والشر والثواب والعقاب ويسمىها الغربيون « الأخلاق اللاهوتية » ، وأما بالنسبة للمسلمين فإن الفكر الأخلاقي الفاسد يسمى زندقة أو إلحاداً أو شركاً ، وليس كل ما يتعلق بدراسة التوحيد والإيمان مما يدخل في الفكر الأخلاقي ، وإنما يدخل منه ما يتعلق بالبواعت والنوايا والأغراض أو الهدف التي تتصل بأي سلوك ، كما يدخل فيها الدراسات والبحوث المتعلقة بالضمير والإرادة ..

ثم أننا نجد أنه في مجال الأخلاق تنقسم الفضائل - وهي من أهم موضوعاتها - إلى قسمين :

فضائل عملية : كالدفة والشجاعة والعدالة تحكم الانفعالات وتسيطر عليها ، وتقود الأفعال وتوجهها ، فهي فضائل خاصة بالخلق والطباع .

وفضائل عقلية : كالعلم والحكمة والتبصر وحسن فهم الناس وحسن تقدير الأمور .

والفضائل العقلية متممة للفضائل الأخلاقية متفوقة عليها نفعاً ومنزلة ، والفضائل العقلية لا تتم بطبيعة الأمر ، إلا إذا توفرت في صاحبها الفضائل الأخلاقية — غير أن إكتساب الفضائل العقلية علاوة على الاعتناء بالتعود والممارسة اللذين للرجل الفاضل ، ينترض قبل كل شيء إكمال القدرة الحاكمة المفكرة .

إنما فضائل العلم والنظر والتأمل ، وهي أسمى ما في الإنسان من فضائل ، فحصولها لا يتم على خير وجه إلا عند الإنسان الذي كان في حياته عنا شجاعاً عادلاً ، وإن لم يقف عند ممارسة تلك الفضائل الأخلاقية عند المستوى العادي (١) .

ومن الجدير بالذكر أن العاقل والحكيم يجدن فن الأخلاق الفكرية لذة لا تسمو عليها لذة ، وفي هذا يقول ابن خزم : لذة العاقل بتمييزه ولذة العالم بعلمه ولذة الحكيم بحكمته ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده أعظم من لذة الآكل بأكله والشارب بشربه والواطيء بوطئه والكاسب بكسبه واللاعب بلعبة والأمر

(١) مراحل الفكر الأخلاقي : الدكتور نجيب بلدي ١٩٦٧ . دار المعارف

بأمره ويرهان ذلك أن الحكيم والعاقل والعالم والعامل واجدون سائر اللذات
التي سميها كما يجدها المنهمك فيها ويحسونها كما يحسها المقبل عليها وقد تركوها
وأعرضوا عنها وآثروا طلب الفضائل عليها وإنما يحكم في الشبهتين من عرفها لا
من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر (١) .

وأن أكثر ما يوهن المجتمعات هو ذلك النوع المنحرف من أخلاق الفسك
الذي يشيع الفساد والإلحاد والزندقة باسم التحرر الفكري .

المبحث الرابع

أخلاق السلوك

أخلاق السوك هي الأخلاق العملية الظاهرة التي تظهر للناس في الأفعال والأقوال وسمت الشخصية كاتخذ اذ مظاهر التكبر أو الإحتقار أو السخرية أو التواضع وغير ذلك ..

ويشترط لصحة الحكم على سلوك الإنسان واعتبار ما صدر منه عملاً أخلاقياً شرطان هما :

أولاً : أن تكون أعمالاً إرادية ، تتجه إليها النية ويتأكد فيها الباعث والقصد ، أما الأعمال غير الإرادية فلا تعد من أخلاق السلوك حتى وإن إتصفت بأوصاف الحسن والقبح الخلقيين : وفي مقدمة ذلك النوع الإرادى وما يصدر عن النائم وعن المجنون وكذلك ما يصدر عن الإنسان العادى المتيقظ العاقل من أفعال بطريق السهو أو الخطأ أو النسيان فكل تلك الأفعال تخرج عن نطاق أخلاق السلوك ..

ثانياً : أن يطابق ما ظهر من أفعال السلوك ، ما بطن في نفس الإنسان ، أى أن يتفق القصد الظاهر مع القصد الخفى أو النية المستترة ، ولذلك فرق رسول الله ﷺ بين المهاجرين معه فلم يعتبرهم جميعاً أصحاب هجرة في سبيل الله فغن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله

ومن كانت هجرته لدينا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه (١) .
فلا يمد إذن عملاً أخلاقياً كل عمل يصدر عن الإنسان في مظهر أخلاق ، بل
قد يكون لانعدام القصد الأخلاقي أو لسوء النية ولخالفتها لظاهر الفعل عملاً ذمياً
قبيحاً غير أخلاقى .. لا يدل على حسن أخلاق من صدر عنه وإنما يدل على خبيثه
وخداعه ونفاقه ..

ولهذا لا يصح الحكم على أخلاق المرء بأفواله ، ولا بمظاهر عباداته ، بل
بمعاملاته وسلوكه وهكذا نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : المسلم من
سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم
والمهاجر من هجر ما نهى عنه ..

وقد فقه عمر بن الخطاب هذا المعنى وطبقه في فضائله وحكمه على الناس :
فقد جاءه رجل يشهد لرجل آخر بأنه يتصف بالعدل والإستقامة والصلاح ،
فسأل عمر ذلك الشاهد : أتعرف ذلك الرجل ؟ فقال نعم ، فسأله عمر : هل
أنت جاره الذى يعرف مدخله ومخرجه ويطلع على شؤونه ؟ فأجاب الرجل :
لا .. ثم سأله عمر : هل صاحبه فى السفر الذى تعرف به مكارم الأخلاق ؟
فقال الرجل : لا .

وأخيراً سأله عمر رضى الله عنه : هل عاملته بالدرهم والدينار المعاملة التى
يعرف بها ورع الرجل ؟ فأجاب الرجل : لا ،

(١) متن الأربعين النووية للإمام النووي . دار الكتب العلمية بيروت --
صفحة ١٢ وفيه : قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، المراد : لا تحسب
الأعمال الشرعية إلا بالنية .

فقال له عمر : انك رأيتني قائماً قاعداً يصلى فى المسجد يرفع رأسه تارة ،
ويخفضه أخرى ، فرد الرجل : نعم : فقال له عمر : اذهب فإنك لا تعرفه
والثقت إلى الرجل وطلب إليه أن يأتيه بمن يعرفه ويشهد له على هذا الأساس
الذى بينه .. وإشادة المرء بأخلافه غير معتبرة ، والله تعالى يقول :

فلا تنكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى والصديق فى السلوك الخلقى ، ومطابقة
ظاهر الأفعال والأقوال لما يضمرة المرء ويسره فى صدره إنما يتعلق بالإخلاص
قال الله تعالى : وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا
الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة (١) .

وإذا وازنا بين النية وبين السلوك الظاهر لرجحت النية ولرسول عليه الصلاة
والسلام يقول : نية المرء خير من عمله . وعن أبى عبد الله جابر بن عبد الله
الأنصارى رضى الله عنها قال : كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فقال : دأن بالمدينة
الوجالاً ما سرتهم مسيرة ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض ، وفى رواية
« ألا شر كوكم فى الأجر (رواه مسلم) » .

وفى رواية البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع
النبى ﷺ فقال : د أن أفواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم
معنا ؛ حبسهم العذر (٢) .

(١) د دين القيمة ، أى الملة المستقيمة وحنفاء أى مائلين . عن جميع الأديان
إلى دين الإسلام . سورة البينة آية ٥ — رياض الصالحين — صفحة .
(٢) الشعب بكسر الشين الطريق فى الجبل والوادي : الموضع الذى يسيل
فيه الماء ، رياض الصالحين . المرجع السابق .

ثالثاً : أن يكون الفعل أو السلوك قد تم إختياراً أى بمحض رغبة الفرد وإختياره ، ويلاحظ أن الإرادة تختلف عن الاختيار ، فقد يفعل المرء الفعل بإرادته ولكن بدون إختيار صحيح ، كمن يتصدق كارهاً ، أو كمن يقدم على الفعل بتأثير الضغط الاجتماعى المتمثل فى العادات والتقاليد ، أو إذا خاب مسعاه لسبب خارج عن إرادته ، كمن يتوجه إلى موضع ليحتسى فيه الخمر ويأق الفاحشة فيجده مغلقاً .. أو كمن يتبرع للخير فى جمع عام محرّجاً غير مختار .. أو من يقدم الطعام غير مختار لضيف يضيق بضيفته ولا يود إكرامه .. وكذلك كل حلم أو صبر أو كظم غيظ أو عفو يتم دون إختيار صحيح .

المبحث الخامس

الأخلاق الفردية

أول ما ينبغي الإشارة إليه هو أن الظاهرة الخلقية ليست مجرد ظاهرة فردية بحتة لا تهم سوى صاحبها فحسب ، فإنه لا وجود لإنسان يعيش وحده في عزلة كاملة عن كل البشر ، وحتى عندما كان آدم وحواء وحدهما في الجنة ، فإن آدم كان يفتقر إلى العزم بما أدى إلى خروجه مع زوجته من الجنة :

قال تعالى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ففسى ولم نجد له عزما . وإذا كان يتعين إقامة تفرقة بين الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية فإن تلك التفرقة إنما تتمثل في أمرين :

الأول : مدى إنتشار الظاهرة الخلقية ، ففي الأخلاق الفردية نجد صفات خلقية أقل إنتشاراً وخاصة تلك التي تتطلب استعدادات خاصة ودأباً ومثابرة لا يتوافران لدى أغلب الناس : مثل الحلم والصبر والحكمة .

والثاني : طبيعة بعض الظواهر الخلقية ، واتجاه بعضها إلى الصفة الذاتية ، كالعفة تبتدأ وأوصافاً للنفس ، وسمات للشخصية ولا تدخل ضمن مجموعة الصفات الخلقية التي تقوم عليها العلاقات الاجتماعية بين الفرد وغيره ، فإن عدم الغش في الكيل والميزان والقرض الحسن والصدقات والكلمة الطيبة وإفشاء السلام وإطعام الطعام وغير ذلك هو مما يدخل في الأخلاق الاجتماعية لأنها صفات خلقية لا يتصور تحققها إلا بين الفرد وغيره ..

أما الصبر والحلم والتبصر والرفق فهي من الأخلاق الفردية التي يعتبر سمات

للشخص وصفات تميز بها شخصيته عن غيره ، من ينتقل إلى تلك الصفات أو
يختلف عنه في درجتها لديه ..

ورغم تلك التفرقة بين الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية فإن التداخل
بينهما مستمر ، فمن ناحية نجد أن الصفات الخلقية الفردية لم تنشأ في نفس صاحبها
عزواً أو جاءته بطريق الفطرة ، وباستثناء الأنبياء والرسل الذين اصطنعهم الله
تعالى لنفسه وأدبهم فأحسن تأديبهم فإن المرء حين يتساءل عن مصدر الأخلاق
الفردية كالعلم والصبر والرفق فإنه سيجده فيمن كان له فضل غرسها من الوالدين
أو المربين أو ما تعلمه وقرأه من مؤلفات وآراء في الدين والأخلاق ..

ومن هنا فإنه يغدو عسيراً وضع حد فاصل قاطع بين السلوك الفردي والسلوك
الاجتماعي أو بين السلوك الخاص والسلوك العام ، ومن هنا فلا يقبل من أى
إنسان أن يقول : طريقة تصرفي وسلوكي الأخلاقي الشخصي هو بما يعد من الأمور
التي تهجن وحدي ولا تهم أحداً سواي .. فهذا القول بعيد عن الصواب ، إذ أن
مسلك الفرد وإن بدا شخصياً للهولة الأولى إلا أن تأثيره في المجتمع لا ينكر
وذلك للأسباب الثلاثة التالية :

الأول : أن السلوك الخلق الفردي يؤثر في شخصية الفرد ، وهذا الفرد يصبح
جزءاً من المجتمع ينفعه إذا كان حميد السلوك ويضره ويسىء إليه إذا كان منحرف
الأخلاق .

الثاني : أن الظواهر الخلقية سريعة الانتشار وتنتقل بين أفراد المجتمع عن
طريق التقليد والمحاكاة ، وإذن فمن هنا يغدو الخلق الحميد ردى عاملاً مؤثراً في
أخلاق المجتمع ويضاف إلى ذلك أن سلوك الفرد الشخصي يؤثر تأثيراً ظاهراً

على سلوكه وتصرفاته في المجتمع العام (١).

وأول من يتأثر بسلوك الفرد الشخصى هم أقرب الناس إليه أى أفراد أسرته ثم يمتد التأثير ويشمل اصدقاءه ووسطه الإجتماعى سواء كان وسط دراسة أو وظيفة أو تجاره أو جوار وتصبح الطامة أكبر لو كان من أصحاب القلم أو المعلمين .

الثالث : أن السلوك الفردى إذا كان سيئاً منحطاً فإنه يضر بالمجتمع من حيث ظهور الجرائم فيه ، فن المشاهد أن جرائم الرشوة والاختلاس وإهمال الواجبات وخيانة الأمانة إنما تصدر عن نمط معين من الأفراد إنعدم لديهم الضمير الخلقى وانحرفوا إلى مسلك الأخلاق الشائنة فانزلقوا إلى الرشوة والاختلاس لإشباع شهواتهم وإنحرافهم الخلقى .

أما بالنسبة لتأثير الأخلاق السيئة للفرد على ذاته فإننا نجد آثار السلوك الخلقى تظهر على الفرد نفسه ، فالخلق يؤثر على صحة الفرد ومزاجه وعقله وتفكيره ، فالإنهلال الخلقى يؤدي إلى خور الجسم وإنحطاط الصحة والتمور والتمدلات تضر بصحة الإنسان وتفكيره كما أن سيطرة الإنفعالات الجسدية وإستهمرارها يؤدي إلى العديد من الأمراض ، فقد أثبتت البحوث الطبية أن إنفعالات الحسد والحقد والغضب والكراهية والغيرة لها تأثيرها الذى يساعد على الإصابة بأمراض الدورة الدموية وإصابة القلب وأمراض المعدة والكبد ، وإختصار فإن سوء الطوية يؤدي إلى سقم الباطن ويؤثر في الصحة بما ينخص على الخبيث عيشه ،

(١) المشكلة الخلقية - تأليف الدكتور زكريا إبراهيم - الطبعة الثانية -

كما أنه من المشاهد الملبوس أن المتفوقين دراسياً في كل مراحل التعليم هم من تغلب عليهم الصفات الخلقية الحميدة ويتمتعون بشخصيات متزنة متكاملة .

ثم شيء آخر، هو أن تلك المئاعر الخلقية القيحية لها تأثيرها كذلك على ملامح أصحابها وميائهم ، فوجه الإنسان الحقود والحسود وملامح الإنسان الشرير ونظراتهم توحى بالنفور وتبعث على كراهيتهم ، وإين ذلك من بشاشة الوجه ونقاء الاسارير وجميل القول ، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وخسن الخلق » ، فبسط ولين القول وكرم النفس أبلغ تأثيراً من بذل المال من يفتقر إلى حسن الخلق وصدق الحدق سبحانه وتعالى حيث يقول : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » .

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام بخلق العظيم أسوة حسنة لكل راع مسئول يكسب بحسن الخلق ودمن حوله ، يقول الحق سبحانه وتعالى :
« فبإرحمة من الله لمت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

صور الاخلاق الفردية :

يميز الإسلام في مجال السلوك الخلقى بين أعمال الباطن والقلوب وبين أعمال الظاهر ويمكن لذلك أن نقسم صور الاخلاق الفردية إلى ثلاث صور :

الاولى : أفعال السلوك التي يائنها الإنسان بإرادته وباستخدام الجوارح — أعضاء الجسم الخارجية — ومن تلك الافعال ما يتصف بالخير ومنها ما يتصف بالشر — وهذا النوع من الافعال لظهوره — يكون هو الاساس في حكم الناس على الإنسان وقد تناولنا هذه الصورة عند كلامنا عن أخلاق السلوك .

والصورة الثانية : هى للسلوك الاخلاقى غير المرئى وهو يشمل كل ما يتصل بالمشاعر الباطنية وحالات القلب باعتباره مركز الشعور وهذا النوع من السلوك هو فى الحقيقة أهم من سابقه ، لأن العبرة فى أى عمل هى بالنية والباعث عليه يقول عليه الصلاة والسلام إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى ، وكمن أعمال نقوم بها الجوارح الظاهرة وظاهرها الصلاح والخير ، وهى شر دائم وتنتهى بصاحبها إلى أن يطرح فى النار إذا كان باعثها الرياء والنفاق والرغبة فى الثناء . ومن الأعمال القلبية ما لا يظهر ولا تدل عليه أعمال الجوارح ، مثل الحسد والحقد والبغض والحب وهذه توصف بأنها خيرا أو شرا يحازى عليها الإنسان :

والصورة الثالثة : للسلوك الاخلاقى لا تتعلق بأعضاء أو جوارح الإنسان ولا تتعلق بالباطن وحده أو بالظاهر وحده وإنما تتعلق بشخصية الإنسان التى تبرز عن باطنه وظاهره وأعضائه جميعاً ، "أنما ثمرة ذلك كله وتمثل فى كل أثر يتركه المرء بشخصيته فى غيره ، مثل التكبر والتواضع فى السير والجلوس والكلام اللين والرفق واحتقار الغير والهمز والذل وغير ذلك من سمات الشخصية التى يترتب عليها ذلك الأثر النفسى الذى يولده الإنسان فى غيره فيدفع إلى حبه والإقبال عليه أو لإحترامه وتقديره أو إلى بغضه والنفور منه واحتقاره . وبما له وثيق الصلة بالاخلاق الفردية ذلك الجانب من الاخلاق الذى يتصل بعقيدة الإنسان وعلاقته بربه ومدى توكله عليه وثقته بالله وكذلك آراء الإنسان حول الخير والشر والفضيلة وأفعال الله تعالى وحكمته وما يربط الإنسان بربه من روابط الحب والتعلق والتضرع ، ويتجاذب البحث فى أخلاق العقيدة هذه أكثر من علم إذ تدخل فى علوم الدين والاخلاق والكلام .

ونختتم كلامنا عن الاخلاق الفردية بالإشارة إلى أن الباعث عليها هو ذات الإنسان والرغبة فى المحافظة عليها وتحقيق ما تصبو إليه النفس من رغبات ومنافع

ذاتية ، ومن هنا كانت للذاتية والانانية أهمية كبرى في مجال الاخلاق الفردية ويقابلها من الناحية الاخرى البذل والإيثار فالأثرة والإيثار هما محور الاخلاق الفردية والإسلام قد جاء بما يحقق التوازن في حياة الإنسان بالنسبة للصراع بين الأثرة والإيثار فلا يمحو ناحية على حساب الأخرى ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا . »

ولمذن فنهج الإسلام في هذا المجال أنه لا فرار ولا بغى أى لا فرار من الحياة وإنصرفاً عنها ولا بغى على الغير من أجلها ، على أنه لا شك أن الإسلام يوجب تفضل الإيثار على الأثرة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . » « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين .. » وفي سبيل تربية النفس وتعويدها للإيثار حث الإسلام على القناعة والصبر والتواضع . ولا شك أنه في مجال الاخلاق الفردية نجد أن الانانية المفرطة هى أساس كل الرذائل الخلقية والآلام وتفكك روابط المودة والرحمة فى الأسرة والمجتمع .

ومنذ عهد بعيد والمفكرون والمصلحون يدعون إلى محاربة الأثرة وأن تكون أخلاق الفرد وسلوكه بحيث لا يؤذى غيره ، وقد عرف ذلك فى الفلسفة اليونانية وفى تعاليم البوذية والبرهمية ولكن تلك الآراء والتعاليم تفتقر إلى ما جاء بقواعد الإسلام فى هذا المجال من توازن وعدل يصلح شأن الإنسان ويصون حياته . ولا يقر الإسلام الرهبنة التى عرفها المسيحيون والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « لا رهبانية فى الإسلام » ويوصى بأن يكون الخير والإيثار لمن يدنو من الإنسان بالقرابة أو الجوار فالأقربون أولى بالمعروف .

المبحث السادس

الأخلاق الاجتماعية

يقصد بالأخلاق الاجتماعية كل سلوك أخلاقي يمكن أن ينشأ بين فردين أو أكثر وكذلك ما يسود من علاقات أخلاقية ، سواء في نطاق الأسرة أو الجماعة أو المجتمع ولذلك فسوف نبدأ ببيان مجال الاخلاق في الأسرة ثم في المجتمع .

(١) الأخلاق بالنسبة للأسرة :

أول مجال يظهر فيه تأثير السلوك الأخلاقي هو الأسرة ، فالآباء والأبناء الكبار يؤثرون في الصغار تأثيراً يلزمهم مدى الحياة فالبيت هو المدرسة الأخلاقية الأولى للطفل وأى علاقة تربط بين الأفراد الذين يعيشون معاً أو يمضى معهم الفرد وقتاً غير قصير كزملاء الدراسة أو الجماعات التي تجمع بين أفرادها علاقات مشتركة وروابط قوية كالقربان في الجيش أو الأقسام الداخلية أو السجناء أو دواوين الموظفين فتلك الجماعات - رغم إنتفاء عامل القرابة الأسرية فيها لها تأثيرها الأخلاقي البارز في أخلاق أفرادها بحيث قد يتأثرون بها تأثيراً عميقاً خاصة أولئك الأفراد الذين لم يتأثروا خلقياً بأسرهم ، ولم يتكون لديهم ما يمكن أن نسميه : « المناعة الخلقية » التي تتكون بغرس الخلق الثابت المتين . والتأثير في الأسرة لا يتم بطريق التلقين وحده وإنما يكون للقدوة دورها كذلك ، بل أن دور القدوة يفوق دور التلقين : فأخلاق الأم والأب وسلوكهما يعد العامل الأكبر في تشكيل أخلاق الأبناء وتوجيه سلوكهم وذلك لأن الأبناء إنما يقتدون بالأخلاق التي يتأكدون من إقتناع آبائهم بها والتي يعلمون أنها المعبرة بالفعل.

عن نواياهم وأهمية الاخلاق في الأسرة تبرز منذ اللحظة التي يفكر فيها الرجل في بناء أسرة ، حيث يحدد له الإسلام إختيار الزوجة ذات الدين « فاظفر بذات الدين تربت يداك » والرسول عليه الصلاة والسلام إذ قال ذلك يقول أيضاً : « تزوجوا الودود الولود ، فالمرأة الودود طاهرة القلب نقيية السريرة حسنة الخلق وأكبر ما يسبب شقاء الأسرة سوء الخلق ولؤم الطباع في الأم أو الأب أو من يتصل بها ويؤثر فيها تأثيراً عميقاً ..

والطباع السائدة لدى أحد الوالدين أو كليهما تأثيرها الضار أو الحسن على نفسية الأبناء وسلوكهم ، وذلك كطباع النزق والطيش وسرعة الاستئثار والغضب أو الحلم والصبر والرفق أو عدم ضبط النفس أمام الشهوات على أن دور الأسرة في تكوين الاخلاق تلعب فيه الوراثة عن الوالدين دوراً كبيراً يستحق أن نشير إليه .

دور الوراثة في تكوين الاخلاق : أن الوراثة هي :

١ — ميراث الطفل الحاصل من الأبوين كليهما .

٢ — وهو يتحدد بصفة نهائية عند عملية التلقيح فلا يمكن إضافة أى عنصر وراثي إليه بعد ذلك حتى من الأم التي تحمله وتمده بالغذاء لتسعة شهور تالية .

٣ — ميراثه يعم كل أعضائه لأنه موجود في كل خلية من خلاياه والصفات التي ثبت إنتقالها من الأبوين إلى أبنائهم فسيان إما صفات سائدة وهي التي تظهر في أول جبل بصفة ظاهرة أو صفات كامنة إذا لم تظهر في الجيل الأول فظهرت في الأجيال التالية . ومن هذه الصفات ما يتصل ببنية الجسم أو يرجع إلى وظائف الأعضاء أو يتصل بالعقل .

فهذه الصفات الأولى : بعض الصفات الخلقية الواضحة كالطول والقصر

ولون الجلد ونوع الشعر وشكل الرأس وبعض الحالات الخاصة بأصابع اليد أو القدم كزيادة الأصابع أو نقصها أو امتصاصها أو طولها أو قصرها . والصلع ولون العينين ولون الجلد .

ومن الصفات الوظيفية طول النظر وقصره والصمم والبكم وزيادة الحساسية وضغط الدم ومرض السكر والعمى اللوني والهيموفيليا (مرض بالدم) .

ومن الصفات العقلية :

١ — الضعف العقلي فقد درس جودارد Coddard بعض العائلات التي يكون فيها كلا الأبوين ضعيف العقل فوجد ٤٧٠ من الأطفال ضعاف العقول و ٦ عاديين وعندما درس عائلات أخرى كان فيها أحد الأبوين ضعيف العقل والآخر عاديا وجد أن ١٩٣ طفلا ضعاف العقول و ١٤٤ طفلا عاديين ودرس ٣٦ عائلة فيها كل من الأبوين غير ضعيف العقل فوجد ٨٣ طفلا عاديا و ٣٩ طفلا ضعيف العقل .

ولعل السبب في هذا يرجع إلى أن ضعف العقل عامل وراثي كامن . ومن الأبحاث المعروفة المؤيدة لوراثة الصفات العقلية إستقصاء بعض العائلات لمعرفة مدى إطرار الوراثة . ففي إستقصاء لعائلة دارون المشهورة وجد أن خمسة عشر شخصا منها وصلوا إلى عضوية الجمعية الملكية بانجلترا وقد استقصى علماء النفس الأمريكيون عائلتين لجندي أمريكي كان قد اشترك في الحرب الأهلية وعاشر فتاة بلهاة أثناء الحرب وأمكن تتبع نسله منها ونسله الآخر من فتاة عادية من أسرة عادية تزوجها بعد انتهاء الحرب فتبين من تتبع تاريخ الأسرة الأولى أنه من بين ٢١٠٠ نفس منها كان ٣٧٨ من السافقات و ١٨١ من مدمني الخمر و ١٧٠ منسولا و ١٢٩ متشردا و ١١٨ مجرما وأن حوالي نصف العائلة كان مصابا

يضعف العقل وأن كثيراً منهم مات منتحراً أو محكوماً عليه بالإعدام أو السجن
بينما كان من نسله من الزوجة الثانية من وصل إلى مرتبة المستشارين بالحكمة العليا
ومن اشتهروا بالنجاح والاستقامة والمقدرة العلمية .

وقد ثبت من دراسات الذكاء ومن دراسات التوائم خاصة أن الذكاء
هوروث (١) . ولا شك أن للذكاء علاقة كبيرة بالسلوك الأخلاقي .

٢٥) الأخلاق بالنسبة للمجتمع :

الغاية من قواعد الأخلاق الإسلامية هي تكوين المجتمع الذي يتصف بالقوة
والوحدة والقوة والوحدة هما السبيل إلى تحقيق الكرامة والعزة والخير للمجتمع
ولكل أفراد ، ورغم أهمية الأخلاق في بناء المجتمع وتوفير القوة له ، فإن
الأخلاق في الإسلام تظل دائماً هدفاً بقصد لذاته ويعلو على كل ما يعرقل تحقيقه ،
ولا جدوى من أي نجاح يحققه المجتمع في أي مجال طالما أنه لم يقترب بالتمسك
بقيم الإسلام الخلقية ، بل أن التقدم الحضاري الاقتصادي يحصل في نسيان بذور
الانحلال والتدهور إذا لم يرقم على أسس أخلاقية ، بيد أن المرء هنا يحق له أن
يتساءل وما هي الوسائل التي يمكن بها تحقيق "قوة والوحدة للمجتمع الإسلامي ؟
والجواب هو أن الإسلام قد جاء بنوعين من القواعد الأخلاقية لتحقيق هذا
الهدف : فهناك قواعد أخلاقية لوقاية المجتمع من عوامل الهدم والانحلال وهناك
كذلك قواعد أخلاقية لبناء المجتمع قوياً متحداً ، ونشير إلى نوعي القواعد
فيما يلي :

(١) مبادئ الأخلاق تأليف الدكتور ماهر كامل وعبد المجيد عبد الرحيم
الطبعة الأولى ١٩٥٨ مكتبة الانجلو المصرية صفحة ١٢٠ - ١٢٢ .

أولاً : لولاية المجتمع من أنفسهم والانتقال :

جاء الإسلام بقواعد أخلاقية تتمثل في منع الفساد والعاملين على نشر الفوضى والفسق من تحقيق ما يشتهون ، فلا حرية لأصحاب الفساد والمنسدين ، وليس معنى حرية الفرد في الإسلام أن يباح لأي فرد أن ينفث سمرم الفساد الخلقى بإسم الحرية ، وبعبارة موجزة فلا يباح أى نشاط يتعارض مع أحكام الشريعة وروحها وإذا كان من قبيل سد الذرائع يتم منع بعض المباحات إذا كان القيام بها يؤدي إلى مفسدة غالباً فإنه يكون من أولى الأمور منع المفاصد ذاتها وعدم إقرار أى فرد على إعتبار إتيانها لإحدى حرياته الفردية وبهذا المنع نحول بين بؤر الفساد وبين نشر عدواها وانتشار الفساد والعدوى به تتم بسرعة إذا سكنت عنه المجتمع فيغدو المنكر ممتارفاً عليه ولا نجد من ينكره على أن الإسلام دين الحياة والواقع والمجتمع الذى يخلو من كل صور الفساد والرذيلة لا وجود له إلا فى أذهان أصحاب المذاهب الفلسفية الخيالية ، ولهذا فقد عالج الإسلام الواقع ، فإذا وقعت بعض حوادث الفساد والجرائم الخلقية فإن الإسلام قد وضع من القواعد الخلقية ما يمنع تأثيرها الضار على المجتمع ، وذلك عن طريق سنن الجرائم ، فإشاعة الفاحشة يشجع على تقليدها وإتيانها وفى ذلك يتوعد الحق سبحانه وتعالى أولئك الذين يحبون إشاعة الفاحشة فى المجتمع ، يتوعدهم بالعذاب الاليم فى الدنيا والآخرة على مجرد حب الإشاعة فكيف بالعمل على نشر الفاحشة ، يقول تعالى : أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون (١) فلا يجوز أن تكشف أستار الجرائم الخلقية أمام الناس ، وإذا كانت العقوبة علنية فإن الجريمة نفسها يجب عدم نشر تفاصيلها ، أن إعلان الجرائم الخلقية والتشجيع على الفاحشة يفسد الجو الخلقى للمجتمع ويجعل الشر

ظاهراً وظهوره قد يغرى صغاف النفوس بأرتكابه ، ولذلك أعتبر الإسلام أن من يرتكب جريمة خلقية ثم يعلنها ويذيعها إنما هو قد ارتكب جريمتين : — جريمة إرتكاب المحذور وجريمة الإعلان عنها ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول فيما رواه الشافعي في مسنده : أيها الناس من أرتكب شيئاً من هذه القاذورات فاستتر فهو في ستر الله تعالى ، ومن أبدى صفحته أقنأ عليه الحد .

ثانيا : عوامل قوة المجتمع ووحدته :

لا يتحقق لأى مجتمع ما يشده من قوة إلا إذا قوى فيه صوت الحق وعدلا وظهر الداعون إلى الخير ، الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، وتوارى صوت حزب الفساد وزمر الشر لأن ذلك يؤدي إلى خلق ظاهرة إجتماعية هامة هى رأى العام الذى يدافع عن المبادئ الخلقية ويعمل على صيانتها ويتصدى لمن ينتهك حرمانها ، والرأى العام القوى السليم هو الذى يشد أفراد المجتمع ببعضهم إلى بعض ويقوى أواصرهم ونشر صبر الفضيلة وتشجيع أصحاب الأخلاق السامية وتزكيتهم هو السبيل إلى تقوية المجتمع وحفز عزائم أفراده للتعلم بالمثل والقيم الرفيعة ..

وبجانب ذلك الجانب المعنوى فى إصلاح المجتمع فإن الإسلام لم يترك الجانب المادى ، فجعل الزكاة للفقراء والمساكين وجعل للسائل والمحروم حقاً معلوماً ، وحث على الصدقات والاحسان والبر وإيتاء المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين .. وأهم آثار ذلك كله تنبدى : لا فى كساء العريان أو إطعام الجائع فحسب ، بل فى إيجاد مشاعر التعاطف والتراحم وظهور المودة بين أفراد المجتمع ، ومجتمع هذا شأنه يخلو من الحقد والتحاسد والبغض والتدابير ويصير كل من فيه إخواناً متحابين .

المبحث السابع أخلاق الحكم

لا تعرف مبادئ الإسلام (الحكم الميكيا فيللي) النزعة ، التي يعد الغاية مبرراً للوسيلة فالحكومة الإسلامية غاياتها وأهدافها أخلاقية ووسائلها في تحقيقها ينبغي أن تكون أخلاقية كذلك . وإذا كانت الحكومة قد يغوتها بعض السكسب المالى مقابل الحفاظ على بعض القيم الخلقية فان ذلك لا يضير وما تربيحه من النجاح في مجال الاخلاق يربو بكثير على ما يخشى فقدا نه . وقد جاء الإسلام بدعامتين هامتين للحفاظ على قوة الحكومة ، وهما الحرص على تولية الاكفاء مناصب الحكومة والإدارة ثم منع الرشوة وتهميمها . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : لعن الله الراشى والمرتشى . وإذا كانت النشريعسات الوضعية تجعل الحكام مسئولين أمام شعوبهم ، فإن الإسلام قد زاد على هذا مسئولية أخرى أخطر وأعمق ، هى المسئولية أمام أحكم الحاكمين .

وهكذا نرى أن موضوعات الاخلاق فى الإسلام هى من الدقة والشمول بحيث تشغل الحياة الإنسانية برمتها ، فهى تتناول الإنسان منذ طفولته حتى يلقى ربه ، والإسلام يجعل لبداية التربية الخلقية فى سن مبكرة حتى تصبح خلقاً ثابتاً فى حياة الفرد بعد ذلك ، حين يصير شاباً وكهلاً وإلى جانب هذا الامتداد الزمنى لموضوعات الاخلاق واستمرارها مع سنى العمر ، فإننا نجد ما تدخل كل حالات الإنسان ومظاهر نشاطه أى سواء كان متحركاً أو ساكناً ، جاداً أو لاهياً ، لا يخرج منها إلا حالات لإنعدام المسئولية وزوال التكليف الشرعى .

ومن الجدير بالإشارة أن الإنسان فى حالات السكون لا تنقطع صلته بالقيم الخلقية ، لأن المشاعر النفسية لا تتوقف فيه ، وقد يقترف المرء وهو ساكن لا

لا يتكلم ولا يتحرك من الأثام ما يربو على كثير من الأفعال والأقوال السيئة كما في حالة الحسد والحقد . يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : أنا أعلمكم بالله وأن المعرفة فعل القلب لقول الله تعالى « ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم » .

وهكذا فنحن نجد أن كسب الإنسان من الخواطر النفسية هو أمر عظيم لا يستهان به ، ولا يقل أهمية عن قوله وفعله بل هو يزيد عليها لأنها نتيجة له له يقول الله تعالى : ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض الرجال نصيب ما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله أن الله كان بكل شيء عليما . ويقول تعالى إن تبدو ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ويقول جل وعلا : والذين يتوهموا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون الناس على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

المبحث الثامن أخلاق السياسة

ربما كان عنوان هذا البحث يحمل التناقض في حد ذاته فإذا قلنا : أخلاق السياسة ، فقد يبادر البعض إلى التساؤل : وهل فى السياسة أخلاق ؟
أن السياسة هى فن تسيير الأمور : سواء فى الأسرة أو الجماعة أو الدولة ..
وهو ما يعنينا هنا بطبيعة الحال هو سياسة الدولة أو سياسة الحكم .
وليس من العيب أن نعترف بأن العرب والمسلمين قد سبقتهم شعوب عديدة
فى مجال السياسة النظرى والعملى ، وليس من العيب كذلك أن نعترف باستمرار
هذا التخلف حتى عصرنا الحاضر ..

وقد سبقتنا فى ذلك أمم وشعوب مثل اليونان فى مجال السياسة النظرية
والرومان فى مجال السياسة العملية أو فن الحكم والإدارة ثم كان الإنجليز شهرة
كبيرة فى مسائل السياسة العملية على وجه خاص ..

ومن الممكن أن نجد أن الأخلاق والسياسة قد صارا علمين مستقلين تماما فى
مجال العلوم الوضعية فى العصر الحديث بعد محاولات استمرت طيلة العصور
القديمه للربط بينهما فى نطاق دراسة علم الفلسفة .

فكانت الفلسفة تنقسم إلى قسمين كبيرين وهما الفلسفة النظرية والفلسفة العملية
وتشمل الأولى ثلاثة أقسام هى الآلهيات والطبيعيات وبينها الرياضيات أما الفلسفة
العملية فكانت تشمل علوم الأخلاق والسياسة والاقتصاد .

وقد أنشأ الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد فى عام ١٤٥ هـ ،

وأُنشأ فيها سبعة دواوين كان من بينها ديوان الشؤون السياسية . ومع التقدم العلمي الذي عرفه العصر العباسي انتقلت الآراء والنظريات السياسية من الفلسفة اليونانية إلى العربية وحاول فلاسفة المسلمين أن يجاروا فلاسفة اليونان فألف الفارابي كتابا في السياسة ولكن هذا الكتاب يصور المدينة الفاضلة بعيدا عن الحيات الحقيقية أو الواقعية (١) ..

وكان الفشل في ربط الأخلاق بالسياسة أمراً متوقفاً وطبيعياً ، لأنه إذا أمكن القول فإن السياسة يمكن أن تخضع لذات القواعد التي يخضع لها الفرد في علم الأخلاق ، وأن تطبق فيها مبادئه وقيمه مثل الصدق والوفاء بالعهد ، فإن ذلك قد بدا مسألة نظرية بحتة على مر العصور التاريخية في أكثر المجتمعات في الشرق والغرب ، لأن المجتمعات الكبيرة التي تحتوي على جماعات عديدة وعلى مصالح متشابهة ومتناقضة ، تصبح القيم الخلقية فيها أمراً شديداً للإبهام والغموض عسير التطبيق .

إن السياسة لم تكن ترتقي حتى الآن عن مستوى المنفعة ولم تكن لتتطلع إلى مستوى أعلى منه ، فإن الغرض المألوف لرجال السياسة إنما هو خدمة الأمة التي يتولون زعامتها : خدمتها بأي ثمن ولو ضحكوا في سبيل ذلك بالعدل والخير ، فالأهم عندهم هو تنمية قوة الأمة وسلطانها وثروتها وأمنها وشرورها ، وقد تختلف الوسائل التي تتخذ لتحقيق هذه الأهداف باختلاف الأزمان . غير أنه من المسلم به أن السياسة لما نزل على بعد شاسع من مبدأ الخير المقر في قانون الأخلاق ، فكأن من طرق وعرة لا بد للسياسة من ركوبها وكن من قيم ومبادئ

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية تأليف ف. ه. بار تولد وعربه عن التركية حمزة طاهر . دار المعارف بمصر طبعة ١٩٥٢ ص : ٣٩ .

تخلقية دامت وتجاهلتها تماماً المصالح السياسية ، ليس فقط مصالح الحكوميين بل وكذلك مصالح الحاكمين في أحيان عديدة .

وليس العلاقة بين السياسة والأخلاق التي انتهت إلى هذا الانفصام في الوسائل والغايات إلا أمراً مؤسفاً بل فاجعاً ، فقد كان الشرف الحق للسياسة — وما زال أن تطابق قواعد الأخلاق (١) ..

وما سبق كله إنما ينطبق على علم السياسة والأخلاق الوضعيين ، ولكن ذلك لا ينطبق من أى ناحية على علمي الأخلاق والسياسة الإسلاميين ، فإنه لا انفصام بينهما ، ويجمعها عنوان واحد تحت اسم السياسة الشرعية ، وهو أحد المؤلفات الهامة لشيخ الإسلام ابن تيمية .. كما توجد مؤلفات إسلامية عديدة لا تفصل بين الدين والسياسة والأخلاق ..

وهكذا فشل علماء المسلمين الذين ساروا على النهج الوضعي في التسايف في الأخلاق والسياسة ونسوا حقيقة هامة هي أن السياسة في الإسلام ليست غاية يضحى في سبيلها بالقيم والمبادئ الأخلاقية بل هي وسيلة تشترك مع غيرها من الوسائل في تحقيق الحياة القائمة على مبادئ الشرع وفي تحقيق القيم والمبادئ الخلقية .

(١) الأخلاق لأرسطو — المرجع السابق .. المقدمة ،

المبحث التاسع أخلاق العلماء

العلماء جمع عالم ، والعالم هو من اشتغل بالعلم وتفرد له حق إذا صارت له فيه ملكة أصبح من الراسخين فيه الذين أثنى عليهم الله تعالى باجتماع العلم والإيمان فيهم . يقول تعالى : هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابهه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولونه أئذ به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب (١) .

ولسوف نتناول الكلام في أخلاق العلماء بتقسيمه إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أخلاق العلماء بالنسبة للعلم .

الثاني : أخلاق العلماء بالنسبة للعبادة .

الثالث : أخلاق العلماء بالنسبة لسائر الناس .

(١) فأما عن أخلاق العلماء بالنسبة للعلم فيجب على العالم أن يفتن إلى أن الله تعالى قد فرض عليه عبادته . والعبادة لا تكون إلا بعلم فيستيقن لديه أن طلب العلم فريضة ، وأن المؤمن لا يحسن به الجهل حتى يستطيع أن يعبد الله تعالى كما أراد سبحانه وتعالى العبادة لا كما تموى الأنفس .

ويجب أن يدرك العالم أن طلبه العلم هو من فضل الله عليه وهدايته له ، وقد قال النبي ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ، وروى عن معاذ بن جبل

رضى الله عنه قوله : « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ، ومدارمته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة ، وبذله لأهله قرينة ، لأنه معالم الحلال والحرام والآنيس في الوحشة والصاحب في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والزين عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، يرفع الله به أقواماً ليجعلهم في الخلق قادة يقتدى بهم ، وأئمة في الخلق تقتص آثارهم ، وترغب الملائكة في حبهم ، بأجنتها تمسحهم ، حتى كل رطب وياابس لهم مستغفر ، حتى خيتمان البحر وهوائه وسباع البر وأنعامه ... » .

والمشتغل بالعلم يجب أن يكون خلقه الصدق والأمانة ، لأن كذبه وعدم أمانته لا يعود الضرر فيها عليه وخده ، بل يضر أجيالاً حوله وبعده ، فعليه ألا ينسب قولاً إلى غير صاحبه ، ولا ينسب إلى نفسه ما قاله غيره ، ولا أن يشوه رأى غيره فيمنسخه ويسيء إليه وإلى العلم ، وكل ذلك يسمى في لغة العلم المعاصر : **الامانة العلمية** ، •

على أن نمة سؤال قد يتبادر إلى الذهن في هذا المجال ، عن المقصود بالعلم : وهو يقتصر على العلوم الشرعية وحدها : والجواب على ذلك أن العلوم منها ما يتعلق بالشرعية الإسلامية ويسمى العلوم الشرعية ، وهذه ليست هي المقصود بالعلم فحسب ، بل يشمل العلم كذلك كل ما يتعلق بقوة المسلمين ، ويعين على رفع كاستهم ودفع الظلم والذل عنهم ، لأن في ذلك قوة للإسلام وإعلاء لدين الله ، وقد جعل الله تعالى لإعداد القوة فرضاً على المسلمين : فقال تعالى « وأعدو لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، (١) » .

(١) سورة الأنفال : آية ٦٠ .

ومن المعلوم أن ما لا يتم الواجب والفرض إلا به فهو واجب وفرض ،
فإذا كان إعداد القوة فرضاً وواجباً فإن العلم الذي يعين على هذا الإعداد يعد
طلبه والإشتغال به فرضاً وواجباً كذلك ...

فكل علم يبتغى به تقوية المسلمين عسكرياً وإقتصادياً وإجتماعياً هو من العلم
الذي يفرض الله تعالى طلبه ويثبت عليه بالاجر الحسن والجزاء الاوفى ..

(٢) أما بالنسبة لاخلق العلماء بالنسبة للعلماء :

يجب على العالم ألا يجادل ولا يمارى ولا يغالب بعلمه غيره من العلماء ، فلهذا
طلب العلم ، وإذا ناظر أحدهم ناظر بأدب المناقشة والمناظرة ، والمرام والجدال
المنهى عنه هو ما كان القصد منه إظهار البراعة وإدراك الغلبة . روى عن النبي ﷺ
أنه قال : « من ترك المراء وهو صادق بنى الله له بيتاً في وسط الجنة » .

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا
أوتوا الجدل » ، فالمرء من العالم العاقل يخاف على دينه من الجدل والمراء .

وعن مسلم بن يسار أنه كان يقول : إياكم والمراء فإنها ساعة تجعل العالم بها
وبها يبتغى الشيطان ذلته .

وعن الحسن قال : ما رأينا فقيهاً يمارى .

وروى عن معاذ بن جبل قوله : إذا أحببت أخاً فلا تماره ولا تشاره ولا
تمازحه .

فالمرء - كما يقول بعض الحكماء - أكثره يغير قلوب الإخوان ويورث التفرقة
بعد اللفة والوحشة بعد الانس .

والمرء لا يكون إلا بالنسبة لما يتوصل إليه العالم بنظره الشخصى ، أما فيما

ثبت من حقائق العلم فلا يسمى الرد فيه مرأ وإلما هو تصحيح واجب وإظهار
للحق لازم .. لأن الحق لا مرأ فيه ..

وعلى العالم بالنسبة لأخيه العالم واجب النصيحة والمشورة الصادقة والأخلاص
في الحضور والغيبة وأن يقلل عثرته ويعفو عن هفوته ويشاركه فيما يحزن
وبسر .

(٣) وأخيراً فإن أخلاق العلماء بالنسبة لسائر الناس تتمثل في أن يأمن
شربه من خالطه ويأمل خيره من صاحبه لا يؤاخذ بالعثرات ولا يشيع الذنوب
عن غيره ولا ينتصر منه بخير حق ، ذليل للحق عزيز عن الباطل كاظم للغيظ عمن
آذاه شديد للبعض لمن عصى إه وخان الأمانة ، يجيب السفينة بالصمت عنه ، لا
يكون مشاحناً ولا محتالاً ولا حسوداً ولا سفياً ولا جافاً .

لقد سمع ابن عيينه يقول : إذا نهary نهار سفينة وإلى ليل جاهل فما أصنع
بالمعلم الذى كتبته .

وعن على بن أب طالب رضى الله عنه قال : ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه : من
لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم فى معاصى الله ولم يؤمنهم مكر الله ولم
يقرك القرآن إلى غيره ، ولا خير فى عبادة ليس فيها تنقه ولا خير فى تنقه ليس
فيه تفهم ولا خير فى قراءة ليس فيها تدبر .

قال الفضيل : العلماء كثير والحكماء قليل وإلما يراد من العلم الحكمة فمن أوتى
الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ويعنى العلماء والفقهاء كثير والحكماء قليل أن القليل
من العلماء من هان عليه على الدنيا وطلب به الآخرة والكثير من العلماء قد أفتتن
بجعله والحكماء قليل كأنه يقول : ما أعز من طلب بعلمه الآخرة ،

ومن أخلاق العالم أن يكون متأدباً بالقرآن والسنة لا ينافس أهل الدنيا فى

عزها ولا يجزع من ذلها يمشى على الأرض هبوناً بالسكينة والوقار وقلبه مشغول
بالفهم والإعتبار .

ولا يصح للعالم أن يستعصى بعلمه حوائجه ولا أن يقرب أبناء الأغنياء
ويبعد الفقراء ، وأن يكون كالقاضي العادل في وزنه للأمور وتقديره
لطلاب العلم .

ثم على العلماء أن يعلموا ما عليهم ولا يكتُمونه ، أو يكتُموا بعضه ، قال عليه السلام :
« أن من الصدقة أن تتعلم العلم ثم تعلمه لبتغاء وجه الله عز وجل » .
وقال عليه الصلاة والسلام :

« أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت : المرابط في سبيل الله ، ومن علم
علماً أجرى له ما عمل به ، ورجل تصدق بصدقة فأجره يجرى ما جرت ، ورجل
ترك أولاداً صغاراً يدعون له » .

سئل معاذ بن جبل عن معنى القانت في قوله تعالى : « أن إبراهيم كان أمة قانتاً »
قال : « المطيع لله ورسوله » . وكان معاذ يوصف بأنه من القانتين ... ومن صفوة
علماء الصحابة وأعلمهم بالحلل والحرام كما جاء بالحديث الشريف .

ثم على العالم أخيراً أن يتأى بنفسه عن مواطن الشبهات وأن يعرف من
يستحق أن يجالسه ومن لا يستحق وكيف يعاشر الناس ويتقى شرورهم وألا
يستحى أن يقول لا أدري الجواب إذا سأله أحد من الناس ولا أن يتكبر عن
التسليم بذلك . عن عبد الرحمن بن مهند قال : جاء رجل إلى مالك بن أنس يسأله
عن شيء فقال له مالك : لا أدري .. قال الرجل : فأذكر عنك إنك لا تدري .
قال مالك : نعم ، أحك عني إنى لا أدري .

فإذا تخلق العلماء بمجيب الخلق وصانوا أنفسهم وعلمهم من النقص والسوء .

صلح شأنهم وصلاح شأن الناس ، ففي الحديث الشريف ، قال رسول الله ﷺ :
صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس العلماء والأمراء (١) .
فصلاح العلماء يرفع درجاتهم عند الله ، ويصلح بصلاحهم شؤون الناس ،
قال تعالى :

يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فأفسحوا يفسح الله لكم
وإذا قيل انشزوا فأنشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات
والله بما تعملون خبير (٢) .

(١) يقصد بالأمراء : رجال الحكم في عصرنا الحاضر وراجع : أخلاق العلماء
لابن بكر بن الحسين بن عبد الله الأحرى المتوفى سنة ٣٦٠ هـ - دار الدعوة للطبع
والنشر والتوزيع ،

(٢) سورة المجادلة : آية ١٠ .

المبحث العاشر

أخلاق النساء

جاء الإسلام في مجال الأخلاق بما يتناسب النساء من الأخلاق ، فاختصن ببعض الأحكام وجعل الرجال والنساء سواء في أحكام أخرى ، كما جعل للرجال أحكاماً يختصون بها دون النساء تنفق مع طبيعتهم وخلقتهم .

د أ ، فإما جعله الله تعالى خاصاً بالنساء تحريم تشبه النساء بالرجال . فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : د لعن رسول الله ﷺ الخنثيين من الرجال ، والمترجلات من النساء ، وفي رواية : د لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال ، (رواه البخاري) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : د صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم ميّاط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات عائلات مائلات ، رموسهن كاسنمة النجف المائلة لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وأن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا .

معنى : د كاسيات ، أى من نعمة الله ، د عاريات ، من شكرها ، وقيل معناه : تستر بعض بدنهن وتكشف بعضه لإظهار آجها ونحوه .

وقيل : تلبس ثوباً رقيقاً يصف لون بدنهن ، ومعنى « مائلات » قيل

عن طاعة الله وما يلزمهن حفظه ، وميلات ، أى يعلن غيرهن فعلمهن المذموم .

وقيل : ماثلات يمشن متبخترات ، ،يلات لأكتافهن . وقيل ماثلات يمشطن المشطة المبللة : وهى مشطة البغايا . دوءيلات ، يمشطن غيرهن تلك المشطة . د رومهن كأسممة النبت ، أى يكبرنهن ويعظمهن بلاب عمامة أو عصاوة أو نحوها . .

وعن أسماء رضى عنها : أن امرأة سألت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله أن ابنتى أصابتها الحصبة فتمرق شعرها ، وإنى زوجتها فأصل فيه ؟ فقال : لعن الله الواصلة والموصولة (متفق عليه) قولها : فتمرق : أى انتثر وسقط (١) ، فما يفعلها النساء فى عصرنا الحاضر من لبس الشعر المستعار (الباروكات) وترفع الحواجب وصبغ الجفون ، كل ذلك ليس من أخلاق الإسلام وهو مما يغضب الله تعالى ولا يجوز لها أن تبدى زينتها لإلا زوجها ولا أن يرى تلك الزينة إلا من هو محرم عليها من الذكور كآباءه والأخوة والأعمام والأخوال .

(ب) أما ما جاءت به الشريعة الإسلامية من أخلاق يشترك فيها الرجال مع النساء ، فكثيرة مثل : الصدق والتوبة ، والأخلاص ، والتقنوت ، وحفظ الأمانة والخفة ، وغض البصر .

قال تعالى : د قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أذكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون .

وقل للمؤمنات يفضضن من أهبارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدین زینتهن
إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدین زینتهن إلا لبعولتهن
أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو بنسائهن أو أبناء بعولتهن أو أخوانهن أو بنی
بنی أخوانهن أو بنی أخواتهن أو نسائهن أو ما ملکت أیمانهن أو التائبین غیر
أولی الاربة من الرجال أو الطفل الذین لم یظهروا على عورات النساء ولا یضربن
بأرجلهن لیعلم ما یخنین من زینتهن ، وتوبوا إلى الله جمیعاً ایها المؤمنون لعلکم
تفلحون ، (١) .

المبحث الحادى عشر الأخلاق النظرية

الأخلاق عمل وسلوك والخلق طبع وأدب ، وليست الأخلاق مجرد العلم بما يحتمل وما لا يحتمل فإن العلم بذلك بغير عمل هم أمر لا جدوى منه ، ولذلك اعتبر العلماء علم الأخلاق من أقسام الفلسفة العملية مع الإقتصاد والسياسة ..

ولا جدوى فى أحكام الأخلاق إن تحولت إلى مجرد كلام يقال ، أو يسيطر فى الكتب أو يلقى فى المحافل أو يوعظ به فى المساجد دون أن يعمل بها ، وتكون المصيبة أكبر والخطب أفذح الا يعمل بها من يأمر بها ويدعو اليها فيكون ممن حقى فيهم قول الله تعالى :

«أنا مرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون» (١)
وقال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، (٢) .

وقال تعالى اخبارا عن سيدنا شعيب عليه السلام : وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه (٣) .

وعن أبى زيد اسامه بن زيد بن حارثة رضى الله عنها قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «د يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أفتاب (أمعاء)

(١) سورة البقرة آية : ٤٤ .

(٢) سورة الصف آية : ٣ و ٣ .

(٣) سورة هود آية : ٨٨ .

بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية، (١) فالإسلام دين وعمل وعقيدة وشريعة وأخلاق وسلوك.

وإذا نحن نظرنا إلى حال المسلمين اليوم وجدنا عندهم ظاهرة الأخلاق تتخذ صورتين :

الصورة الأولى :

العناية بالوعظ والإرشاد وتأليف الكتب وكتابة الأبحاث التي تتصل أو تقوم على الدين وعلى الدراسات الإسلامية ، وهذا أمر لا نثريب عليه ولا لوم فيه ، ولكن ما يفوت المسلمين في هذا المجال غفلتهم عن الجانب العملي أو التطبيقي ، فلا تكفي الكتابة والخطابة وتعليم الدين بالمدارس ولا تفيد فائدتهما المرجوة إلا إذا اقترنت بمنهاج عمل وطريق سلوك ، يقوم على الثواب والعقاب ، والمنع والمنع . . ومراجعة التشريعات الوضعية لسد ما بها من خلل يقوض الأخلاق ، ويهدد القيم : فمثلا عقوبة القذف والسب في التشريع الوضعي جنحة يسيرة مع أنها في الإسلام جرم عظيم :

يقول تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون (٢).

ويقول تعالى : ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا

(١) رياض الصالحين : للإمام النووي صفحة ١٠٥ .

(٢) سورة النور : آية ٤ .

والآخرة ولهم عذاب عظيم (١) .

فكيف يترك البعض يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ويسعى في المجتمع فساداً ويشيع الفاحشة فيه ؟ وقد توعد الله تعالى أولئك المفسدين الفاسقين بالعذاب الاليم في الدنيا والآخرة ، يقول تعالى : « ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٢) .

فلا يكفي للأخذ بالأخلاق أن ينهض المسلمون نهضة نظرية تتمثل في الكتابة والتلقين والنصح والإحتفالات وإقامة المعارض وإنما على من يريد الأخذ بالأخلاق أن يفكر ويخطط وينفذ بما يجعل صاحب الخلق محترماً في عمله مقدراً من رؤسائه ، وما يجعل الطلاب والطالبات توزن أخلاقهم فينحى عن مسيرة العلم من ساء خلقه لأنهم أسوأ قدوة لمن حولهم ، وكذلك يجب العمل على أن يراعى في اختيار من يشغلون مناصب القيادة كالوزراء ونوابهم والمديرين ورؤساء المصالح والهيئات ، أول ما يراعى حسن الخلق وطيب السمعة لأن أمثال هؤلاء إذا كانوا من أصحاب الخلق السيئ ، لم يعرفوا إلا ببطانة السوء وحاشية الشر ، وأبعدوا أهل الصلاح والتقوى ، وما أودعهم ما ينجم عن ذلك من عواقب في جهاز الحكم وفي المجتمع ..

لقد انفصلت الأخلاق في المجتمعات غير الإسلامية عن الحياة الواقعية لأنها أخلاق وضعية تصورها المفكرون تصاح شؤون الناس ، فإذا بها تخفى إخفاً

(١) سورة النور : ٢٣ .

(٢) سورة النور : آية ١٩ .

شديداً دفع بعض المفكرين هناك إلى القول بأن كل الجهود التي يبذلها الفلاسفة في سبيل تحديد موضوع الأخلاق لا تصلح « نقطة انطلاق » لاية دراسة أخلاقية جادة ، إذ أن المشكلة الخلقية ليست مجرد أشكال نظرية بحث أو مجرد بحث منطقي لغوي خالص ، وإنما هي أولا وبالذات مشكلة وجودية ، يواجهها المرء على مستوى الخبرة المباشرة .. وكذلك ذهب بعض المفكرين هناك إلى أن الأخلاق هي مجرد دراسة نظرية صرفة ، ما دام الغرض الذي تهدف إليه هو فهم طبيعة الحياة الخلقية .. وهكذا تشعبت دراسة الأخلاق الوضعية إلى شعبتين أو اتجاهين :

الاتجاه الأول :

دراسة الأخلاق دراسة واقعية أو عملية تقوم على تصوير حياة المجتمع الخلقية على أساس أن تكون نقطة انطلاق أى بحث أخلاق فلسفي لا بد أن تكون هي الخبرة الأخلاقية :

« Morri Experience »

ومن هنا تبنى النظريات والمبادئ الأخلاقية على الأعراف الفاسدة والعادات السيئة ، ويهبط بذلك علم الأخلاق إلى مستوى الواقع السيئ في الحياة .

الاتجاه الثاني :

فينظر إلى الأخلاق نظرة مثالية باعتبارها تلك القواعد والمثل العليا التي ينبغي على الإنسان والمجتمع التمسك بها وتطبيقها في شتى ظروف السلوك والمعاملات .

وقد لاقى هذا الاتجاه نقداً شديداً ينبى على أن الأخلاق لا يمكن أن تكون نظرية وعملية في وقت واحد ، بمعنى أنها تضع النظرية وتشرع لها التطبيقات

العملية ، فهذا فاسد منطقياً لأن الاخلاق حتى لو أريد لها أن تكون نظرية فإنها دائماً معيارية ، ولأنها دائماً معيارية ، فإنها لا تكون نظرية بالمعنى الصحيح ، ذلك لأن النظرى يصف ويصدر أحكاماً واقعية ، بينما المعيارى يصدر أحكاماً عقويمة تأمر بكذا وكذا ، ولا يمكن الجمع بين النظرية والتقويم ، بين الوصف وبين التقرير الواجب .

ومن المستحيل وضع النظرية ولما يجب أن يكون ، وإنما توضح النظريات لتفسير ما هو كائن ، ثم أن المعرفة لا يمكن أن تكون معيارية : لا حين نريد أن نستخلص قواعد السلوك من المعرفة العقلية ولا حين نستخلصها من المعارف التجريبية وملاحظات الوقائع ..

ويذهب د ليني بريل ، إلى الاخلاق النظرية لا فائدة منها ثم أن تطور عادات الناس لا يتم بفضل النظريات الاخلاقية ، وإنما يتم بطريقة مباشرة ومستقلة ، لهذا فهو يرى أن طرح الاخلاق النظرية التى تقوم على التصورات العقلية على نحو مجرد ويستبدل بها علم دراسة الواقع الاجتماعى وتحليل ماضى المجتمعات الإنسانية وإدراك القوانين والروابط التى تحكم الظواهر الاجتماعية والاخلاق فى نظر د ليني بريل ، هى مجموعة من الوقائع الاجتماعية وينبغى أن ندرسها بوصفها كذلك وبالمنهج المستعمل فى دراسة الظواهر الطبيعية ، وليست مهمة الاخلاق عنده وضع القواعد وتحديد ما ينبغى أن يكون بل موضوعها تحصيل المعرفة بالوقائع الاخلاقية ونبد كل أخلاق نظرية وكل فلسفة خلقية على أن يحل محلها علم وضعى جديد يكون نوعاً من د الفيزياء الاخلاقية ، مناسطراً للفيزياء الطبيعية ، ، يتولى وصف العادات والاعراف والتقاليد والرسوم الاخلاقية عند مختلف الشعوب فى مختلف العصور ، ثم اكتشاف قانون تطورها

الذي يحول الأخلاق إلى علم موضوعي لا ذاتي .

وهكذا تزعم د لينى بريل ، هذا الإتهام الجديد الذي يصرف الأنظار عن الفلسفة الأخلاقية ونظرياتها ونشر آرائه هذه في مؤلفه : « الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية » الذي يعد ثورة جديدة في هذا الموضوع من الدراسات ، وبعد تعبيراً كذلك لما يطلق عليه الآن إسم : المذهب الوضعي أو مذهب الوضعيين . في دراسة الأخلاق ، ومن أنصار هذا المذهب كذلك د كونت ، وه دوركايم ، اللذين أرادا تطبيق منهج البحث في العلوم التجريبية على دراسة الظواهر الاجتماعية من أخلاق واقتصاد وتاريخ ولغة وغير ذلك (١) .

وهكذا فشلت الأخلاق الوضعية ، ليس في مجال التطبيق العملي وإنماصراف المجتمعات عنها فحسب بل لم تنجح في أن تكون مجرد دراسة نظرية لا تتعرض للتناقض والنقد .

والواقع أن هذا كله قد نسانا الله تعالى من شروبه فالأخلاق في الإسلام عمل وسلوك وواجبات وليست مجرد أفكار ونظريات كما حدث في الأفكار الوضعية ، ونحن نجد أن أرسطو قد فطن لأهمية الجانب العملي في الأخلاق فحتم كتابه : « الأخلاق » بقوله : في الشؤون العملية ليس الغرض الحقيقي هو العلم نظرياً بالقواعد ، بل هو تطبيقها ، ففيما يتعلق بالفضيلة لا يكفي أن يعلم ما هي بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها وإستعمالها ، لو كانت الخطب والكتب

(١) الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوي ، الناشر وكالة المطبوعات بالكويت - طبعة ١٩٧٥ صفحة ٨٠ .

قدرة وحدها على أن تجعلنا أخياراً لاستحققت كما كان يقول « فيوغنيس » ، أن يطلبها كل الناس وأن تشتري بأغلى الأثمان ، ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادىء في هذا الصدد هو أن تشدد عزم بعض فتيان كرام على الثبات في الخير ، وتجعل الشريف بالفطرة صديقاً للفضيلة وفيماً بعدها (١) وهذا القول لا رسطو ، لأن كان بصدق على الأخلاق الوضعية التي كان من مؤسسيها ، فهو لا ينطبق على الأخلاق الدينية ، حيث تفرضها أحكام الله تعالى فرضاً على كل من دخل في الدين هو آمن بالله ورسوله .

أما الصورة الثمانية التي نجد عليها حال المسلمين اليوم فهي أنهم قد غفلوا تماماً عن أخلاق النهوض ، والامم تنهض وتتقدم بغلبة تأثير مجموعة معينة من القيم مثل : الثقة بالنفس والطموح والجد والإتقان واليقظة والنظام والبسالة والإستئانة بالمشقات والمتاعب بل وبالمرت في سبيل تحقيق الأهداف المرجوة وكذلك الأخلاق الصبر وحب الجماعة وتقدير قيمة الوقت وقيمة الحياة ..

وهذه القيم الخلقية لو تمسكت بها أمة غير مسلمة ، أرحى كافرة ، لتقدمت ونهضت إقتصادياً واجتماعياً ، وهذا مشاهد معروف في عديد من دول العالم في الغرب والشرق .. وذلك لأن شعوب تلك الدول عرفت سنن الحياة ودرست قوانين الطبيعة ولمست بالتجربة أن العمل والصبر والمثابرة والأخلاص تحقق النجاح في الحياة ..

ولا شك أن لدى تلك الأمم والشعوب مع أخلاق القوة هذه بعض أخلاق

الضعف كما ينتشر الرذائل المختلفة ، ولكن ذلك لا يوقف عجلة الحياة ولا يعوق
عندهم الرقى والتقدم الحضارى .

أما المسلمون فقد قصرُوا على علم أخلاق الفضائل التى تشمل فى الخير والحق
وتركوا أخلاق العمل جانباً ولو أنهم اهتموا بها إلى جانب « أخلاق الإسلام »
لكان لهم شأن وأى شأن ولحققوا من التقدم العلبى والرقى الحضارى ما يجعلهم أقوى
أمام الأرض (١) .

(١) بحث بعنوان : خواطر حول أزمة الخلق المسلم المعاصر بقلم عبيد الحليم
محمد أحمد أبو سقة منشور بمجلة - المسلم المعاصر - أبريل ١٩٧٥ ص ٤١ .

المبحث الثانى عشر

أخلاق المنافقين

ليست معرفة المنافقين من الأمور الهيئة البيرة ، وهذا ، يريد من خطورتهم على الأفراد والمجتمعات ، إذ يناسبون بين الناس ، ويندسون فى المجتمعات ، فينشرون الفتنة ويغفون الفساد ، دون أن يحظهم أحد ، بل قد يلبسون ثياب الناصحين العاملين وينالون الثواب والتقدير والقرب والزلفى عن أيديهم مقبلا اليد الأمور :

ذكر البغوى وغيره من عن ابن عباس أنه قال لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة ، والظاهر أن مراده : لم يكن يعرفهم كلهم ويعرف شئونهم بمثل ما فى هذه السورة من التفصيل كما قال الله له فى الذين مردوا (١) على النفاق « ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم نعتبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم » لا تعلمهم نحن نعلمهم ، (٢) ومن المعلوم أن ذكر المنافقين وبعض صفاتهم وأقوالهم وأفعالهم جاءت فى عدة سور ، نزلت قبل سورة براءة منها سورة المنافقين والأحزاب والنساء والأنفال والقتال والحشر وأما سورة براءة فهى الفاضحة لهم والكاشفة لجميع أنواع نفاقهم الظاهرة والباطنة ، ولعله ﷺ لم يعلم التفرقة بينهم وبين المؤمنين إلا بعد نزولها .

(١) مردوا أى ألفوه فأصبح خلقاً ثابته فيهم .

(٢) سورة التوبة : آية ١٠١ .

صفات المنافقين

إذا أردنا أن نلخص صفات المنافقين والسمات التي تميز شخصياتهم أمكننا أن نجعلها في خصلتين أو صفتين هما : الحرص والانانية المفرطة ، فهم يحرصون على حياتهم وأعمارهم ويحرصون على سلامة أجسادهم من الجهد والمشقة والتعب في غير ما يلزمهم ويرضى شهواتهم ثم هم يحرصون على ما يودون إمتلاكه والسعي للمستحواذ عليه وهاتان الخصلتان في المنافقين هما الأصل الذي تفرعت عنه كل صفاتهم الأخرى .. ويمكن لنا أن نجعلها فيما يلي :

أولا : كراهية الجهاد والبلد :

وقد ورد وصفهم بهذا الوصف في قوله تعالى : « لا يستأذك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم » ،

ثانيا : الإرتياب والشك :

قال تعالى : « إنما يستأذك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم » ، أي قد وقع لهم الريب والشك في الدين من قبل فلم تطمئن به قلوبهم ولم تدعن له نفوسهم ، وإنما الإيمان يتمثل في اليقين المقارن للإذعان والإنقياد لله تعالى وسوله عليه الصلاة والسلام وخضوع النفس لأحكام الإسلام .

ثالثا : التردد :

والفرق بين الإرتياب والشك وبين التردد أن الإرتياب والشك من صفات الفكر أما التردد فهو من صفات الإرادة والعزم وقد يرتاب المرء ويشك في عواقب أمر من الأمور ، فإذا انتهى من الشك والإرتياب ، استقر على رأى وعزم عليه دون تردد ، أما المتناقض فيجتمع الوصفين معا : وصف الإرتياب ووصف التردد ، المنافقين متحيرين في أمرهم مذبذبين في عملهم .

محبون للحياة : فهم خريصون عليها يخشون الموت ولا يذكرون ويفرون منه ، يقول الله تعالى في ذلك : « لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون » (١) .

خامسا : ترك الاستعداد : فهم لا ينوون الجهاد ولا يقدرون عليه ولا يقدرون عليه ولا يطيقون مشقاته وتضحياته وتكاليفه فهم أهل دنيا والجهاد طريق الآخرة .. يقول الله تعالى فيهم : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا لهم عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبظهم وقيل أفعدوا مع القاعدین » (٢) .

سادسا : خلق الافساد والفتنة : فهم إذا خالطوا الناس فتنوهم وأثاروهم ووسوسوا في صدورهم بما يوهن عزائمهم ويوغر الصدور ويشير الاحقاد ، ويقول تعالى : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خيالاً ولا وضعوا خلالكم يبعثونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » (٣) .

والخيال كما قال الراغب : الفساد الذي يلحق الحيوان فيسورته اضطراباً كالجنون ، والمرض المؤثر في العقل والفكر : أي ما زادوكم إلا ضعفاً وفشلاً ومنسدة كما حدث في غزوة حنين فإن المنافقين ولو الادبار في أول المعركة وتبعهم ضمهء الايمان من المؤلفة قلوبهم من طلقاء ففتح مكة فاضطرب لذلك جيش المسلمين كله وفسد نظامه .. وهكذا تكون قلة مؤمنة صابرة خير من فئة كبيرة

(١) سورة التوبة : آية ٥٧ .

(٢) « » « » ٤٦ .

(٣) « » « » ٤٧ ، ٤٨ .

يندس في صفوفها المنافقين . ويمكن أن نقارن في ذلك بين غزوة بدر وغزوة حنين .

والفتنة هي من بين أهداف المنافقين وغاياتهم وهي ديونهم دائما ، في الاسرة والجماعة والجيش والمجتمع . يقول تعالى : **وَلَا وَضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ** أي ولا سراعوا في الدخول في خيالاتكم وما بينكم سعيا بالنميمة وتفريق الكلمة وفي قوله تعالى : **« وَيَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ »** إشارة إلى كونهم يحبون أن يفتنوكم بالذم والكيد في الدين والتنشيط عن القتال والتخويف من قوة الأعداء .

سابعاً : الخداع : ومنهم يقول انذن لي ولا نفتنى ألا في الفتنة سقطوا وأن جهنم لمحيطة بالكافرين .. قال **عليه السلام** لجد بن قيس : ما نقول في مجاهدة بني الأصغر (الروم) قال أنى أخشى أن رأيت نساء بني الأصغر أن أفتن فائذن لي ولا تفتنى فهو بذلك ينتحل الأعذار الكاذبة والمبررات الخداعة .

ثامناً : القدر : يقول تعالى : **« لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ »** ابْتَغُوا الفتنة قبل غزوة تبوك وفي غزوة أحد حين أعزل المؤمنين عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين بنحو ثلث الجيش في موضع يسمى الشوط بين المدينة وأحد فطنق يقول لهم : **« أَنْ النَّبِيَّ ﷺ أَطَاعَهُمْ وَعَصَانِي »** وفي رواية أطاع الولدان وعن رأى له فما ندرى علام نقبل أنفسنا ها هنا وكان رأى ابن أبي لحنه الله عدم الخروج إلى أحد ورأى الجمهور ورأى الشبان الخروج فعمل الرسول **ﷺ** برأى الأكثرية على أنه كان خلافاً وأباه أيضاً . فخرج ابن أبي بن اتبعه من المنافقين .

تاسعاً : وقلبوا لك الأمور : أي دبروا الخيل والمكايد ودوروا الآراء في كل وجه من وجوهها لا بطل دينك وفض قومهم من حصولك فإن تقلب الشيء

تصريفه في كل وجه من وجوهه . والنظر في كل أنحائه ليعلم أنها الأولى وهذا يدل على الإصرار على الحق والعداوة وإتمام كل وسائل الكيد وسبله حتى ما كان منافياً لقيم الشهامة والرجولة والشرف ، فعند المناققين الغاية تسبرر الوسيلة ، وأى وسيلة ، وقد حارل بعض المنافقين إغتيال رسول الله ﷺ عند العودة من غزوة تبوك وهى المشار إليها بقوله تعالى : « وهموا بما لم ينالوا » (١).

عاشرا : خلق أشمها له :

والمنافق لا يحب إلا منفعتة ولا يهتم غير ذاته ، الأمانة بالسوء ، فهو يريد لها النجاة وحدها والعلو عن غيرها ، ولا ينبغي أن يصيب الخير غيره لأنه لا يحب غير نفسه ، ولا يود الخير لأحد وينرح لما يصيب غيره من مصيبة ويحزن لما يناله من خير .

يقول تعالى : « أن تصيبك حسنة تسوهم وأن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون ، .. لقد ساء لهم النصر في بدر ، وفي يوم أحد فرحوا فرح البطر والشجاعة .

أحد هشى : الفسوق : والفسوق هو الخروج عن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ولا يقبل الله الفاسقين عملاً ولا إنفاقاً .. يقول تعالى : « قل إنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم أنكم كنتم قوماً فاسقين » وهذا تعليل لعدم قبول نفقاتهم ومجناه أن إنفاقكم طائعين أو مكرهين سيان في عدم القبول لأنكم كنتم قوماً فاسقين . وإنما يتقبل الله تعالى من المتقين .

وخروج الفاسقين عن دائرة الإيمان الذى هو شرط لقبول الأعمال مع

الإخلاص هو سبب عدم قبول أعمالهم ولا نفقاتهم . ولفظ الفسوق كثير الاستعمال في القرآن الكريم والفقهاء جرى عندهم اصطلاح الفسوق دلالة على المعاصي .

فليعتبر بهذا المنافقون في هذا الزمان وفي كل زمان ، الذين ينفقون إبتغاء شهرة أو رياء أو رغبة أو رهبة .

ثنا عشر : الحلف الكاذب :

لا يتورع المنافقون أن يبذلوا الإيمان المغلظة يحلفون بها ليصدقهم الناس ، لأن كلمة الله وعده لا يسارى عندهم ما يبتغون من عرض الدنيا ومن متاعها القليل ، يقول الله تعالى : « ويحلفون بالله أنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون » (١) .

ثالث عشر : الخوف : الخوف خلق عام في المنافقين فهم يخشون الناس ويخافون الفقر ويخافون نزول المصائب بهم ، ويخافون الجبابرة والظلمة بين الناس أكبر مما يخافون الله تعالى ، ويخافون نقصان المال بالزكاة ، وفقدان الأولاد بالجهاد ، وفقدان لقمة العيش بالصدق والجهر بالحق ، ولشدة حرصهم على ذلك يشتد خوفهم حتى يصل إلى حسد الفرق وفي ذلك يقول تعالى : ولكنهم قوم يفرقون ، أى يخافون الموت والفرق الخوف الشديد الذى يفرق بين القلب وإدراكه أو هو الذى يفرق القلب أشتاتا من الخوف ..

رابع عشر : اللز : لزمه عابه وطعن عليه مطلقا أو في وجهه وأما همزه

همزاً فعناؤه عابه في غيبته وأصله العصر والضغط على الشيء والمنافق يعيب ويلبس
ويطعن لسببين:

الاول : أنه لا يحب الناس بل يمتهم ويردريهم ولا تحمل نفسه الغارقة في
أموالها وآربها المودة ولا تعرفها ، ثم أن فيه من خصال إبليس حبه
التعالى على الخير ، ويظن أنه وحده خير من جميع الناس وأجسدر منهم
بكل الخير .

الثاني : أنه أسير المنفعة ، فإن حصل على ما يبتغيه فذلك همه وإن لم يحصل
على مراده ثار وغضب وعاب من حرمه حتى ولو كان عادلاً ويحكم الله قاضياً .

خامس عشر : الطمع فيها لا يحق له :

لا يعرف المنافق الحق وليس من خلقه التسليم به ، بل مصلحته هي الحق
ومنفعته الذاتية هي العدل ، ولهذا ترى المنافقين في كل عصر أفدر الناس في التزني
والتحايل للحصول على ما يشتهون من غير وجه حق ، وبعيدا عن السبيل المشروع ،
ففي الوظائف يصل إلى الترقية بالكذب والمداينة والرياء ، وفي التجارة يحقق
أرباحه الوفيرة بالخلاف والكذب والغش والخذاع وفي السياسة والحكم يصل إلى
مالا يحسنه من المناصب السامية بالأساليب الملتوية والسبل المعوجة وفي عصر
الرسول عليه الصلاة والسلام كان المنافقون يسعون للحصول من أموال الصدقات
على مالا يستحقون ، ويقول تعالى :

ومنهم من يلمرك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وأن لم يعطوا منها إذا
هم يسخطون (١) .

سادس عشر : عدم الرضى بما قسم الله :

فالمنافق يرى دائما أنه أحق من غيره من الناس بالخير والفضل ، وأنه لا يعرف قدره ، وأنه يستحق من الجاه والاموال أكثر مما يمنح الله له ، ومادام المنافق لا يؤمن بالله ، والنفاق والإيمان نقيضان لا يلتقيان ، فأنى له أن يؤمن بقضاء الله تعالى وقدره وقسمته العادلة بين خلقه ، وأنى له التسليم بما قضى الله والإمتثال لها وخلو نفسه من الموجددة والسخط على ما قضى .

• • •

فالمنافق إذن من أسوأ الخلق ، وأخبث الصفات النفسية والأمراض التي تصيب القلوب ، يحول المتصفين به إلى أصحاب أنفس دنيئة فاسدة القطرة لا يرون وسيلة للحصول على مطامعهم في المال ومطامعهم في الجاه إلا الكذب والرياء والتصنع والخداع ولين القول ومعسول الحديث : يقول الله تعالى فيهم : وإذا رأيتمهم تهجرك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ، (١) .

والبعض من العلماء يقسم النفاق إلى قسمين :

أ — نفاق خاص .

ب — ونفاق عام .

فالنفاق الخاص هو الذى يحاول صاحبه أن يلقى كل إنسان بما يرضيه عنه ويحببه إليه ، ولا سيما من بيدهم الحكم والقوة وأصحاب الجاه والمال ، رجاء الانتفاع بما يملكون من كل ذلك ، أو لإقواء لشر قد يتأله منهم إذا لم يرضوا عنه ومن هؤلاء من يعرفون فى عصرنا الحاضر بالمسولين والانتهازيين .. لا

(١) سررة المنافقون : آية ٤ .

يعرفون صاحب فضيلة ولا يابهن بنى خلق أو دين أو ذمة والمنافق من هذا النوع يلبس لكل موقف لباسه ولكل زمان رداؤه ، حتى أنه يقترب إلى حاكم فإذا سقط تقرب إلى عدوه أو غريمه ، ثم هو يلبس أحيانا للصالحين لباس الصلاح لإرضاء لهم ويخلع للفساق جلباب الحياء ، ويفرغ على المستكبر حلل الإطراء .

أما النفاق العام فهو ما يبتغى به صاحبه إفساد الدين وإفساد الدولة وخيانة الأمة والملة ومحاربة المجتمع وتقويض أركانه .. ولاشك أن هذا أخطر من سابقه ، لأن النفاق الخاص على ضرره وخبثه يبتغى به صاحبه عرض الحياة الدنيا ، وربما نال من ذلك ما ربه من يعطيه مداراة له أو إلهاء له أو صرفا له عن مناوراته ومعاداته ، أما النفاق العام فوجهته فتنة المسلمين وهدم الدين ، ولاشك أن من أهم وسائل هذا الضعف من المنافقين فى ذلك سلاح الفكر المفسد ، وبذر الشقاق والخلاف وإثارة النفوس وإيقاظ الفتنة ، ونشر كل ما يوهن العقيدة ويصد عن سبيل الله (١) .

(١) تفسير القرآن الكريم للسيد محمد رشيد رضا . الطبعة الأولى ١٣٤٢ هـ .
الجزء التاسع صفحة : ٤٦٧ .

الفصل الرابع

خصائص النظرية الأخلاقية

في الإسلام

نتناول في هذا الفصل إبراز الخصائص العامة التي تميز النظرية الأخلاقية في الإسلام ، ومنجعل ذلك في مبحث أول ثم نعليه بمبحث ثان نوضح فيه تطبيقات هذه النظرية في واقع المجتمع الإسلامي وكيف أدى ذلك التطبيق وظهور آثاره العملية في ذلك المجتمع إلى حقيقة لا مرأ فيها ، هي أن البناء الخلق الإسلامي ليس مجرد بناء نظري أو تصور خيالي أو مثالي، لا يتيسر تطبيقه والعمل بما فيه، بل هو بناء يتيسر الأخذ به أكله في جميع جوانب الحياة الإنسانية بالنسبة للفرد والأسرة والجماعة والمجتمع .

وفيما يلي تفصيل ذلك :

المبحث الأول

خصائص النظرية الأخلاقية

في الإسلام

تنفرد النظرية الأخلاقية في الإسلام بخصائص هامة تميزها عن سائر النظريات الأخلاقية ، السماوية والوضعية على حد سواء وهذه الخصائص نجد أن منها ما يتعلق بالقواعد العامة الأخلاقية ذاتها ، ومنها ما يتعلق بالفرد أو الإنسان المسلم وببواعث السلوك الأخلاقي لديه وسنورد فيما يلي تلك الخصائص :

أولاً : إمكانية التطبيق :

ليس في القواعد الأخلاقية الإسلامية ما يجعلها تنصف بالتعجيز أو استحالة التطبيق ، فهي قد جاءت بحيث يستطيع الفرد العادي الأخذ بها ، والله تعالى يقول في كتابه العزيز :

« ما جعل عليكم في الدين من حرج » ولكن ذلك لا يعنى أن تكون القواعد الأخلاقية بعيدة عن أى نوع من المشقة أو أن تكون بحيث لا تتطلب أى جهد في العمل بها ، فإن ذلك ليس هو الواقع ، فإن تربية النفس وتهذيب السلوك ومقاومة الرغبات والشهوات كل ذلك يتطلب مجاهدة ومشقة ولكن يمكن إحتمالها وليس العنت والضيق مقصودين بها والرسول عليه الصلاة والسلام إنما جاء للباس ليضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، والقواعد الإسلامية واقعية ومناسبة لطاقة البشر وهي ليست قواعد مثالية يتطلع إليها الإنسان دون أن يتمكن من تطبيقها وبلوغها وهي مع تلك الصفة الواقعية فيها كفيلة ، إذ طبقت أن تخلق الإنسان المفلح المستقيم في خلقه وسلوكه وشخصيته ، والله سبحانه وتعالى

قد جعل التقوى على الإنسان قدر الإستطاعة فيقول سبحانه وتعالى : فاتقوا الله ما استطعتم .

ثانيا : الموامة :

ونقصد بها موامة القواعد الأخلاقية لحالات الافراد ودرجاتهم ومستوياتهم فالضعيف يجد فيها ما يؤتمه وكذلك المتوسط والقرى ، كما أنها تتدرج في الفعل الواحد بحسب درجة الإيمان ، وكل يأخذ منها ما تطيق نفسه ، ولأخذ مثل ذلك خدمة الجماعة فهي تبدأ بإمالة الأذى من طريق الناس ، ثم تتدرج القواعد الخلقية إلى أعلا حتى تصل إلى التصديق بما يملك الفرد في سبيل خير الجماعة وبين هاتين المنزلتين توجد منازل ودرجات متعددة توائم حالات الناس ومستوى الفرد الخلق والنفس ، ويأخذ الإنسان من الخير إستطاعته وكل فرد وما يطيق وما يحسن ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وعندما مست الحاجة إلى الجهاد بالمال ودعا الرسول عليه الصلاة والسلام الصحابة بالتبرع والإنفاق في سبيل الله تعالى ذهب عمر بن الخطاب فأتى بشطر ماله أما أبو بكر فقد أحضر ماله كله وقال للرسول عليه الصلاة والسلام عندما سأله تركت لأهلك قال تركت لهم الله ورسوله .

فالإسلام لا يتطلب أن يكون جميع الناس على مستويات خلقية واحدة لأن الله تعالى أعلم بعبادته واختلافهم في العقول والإدراك والطاقت النفسية والجسمية ، ومن هنا كانت الرخصة بجانب العزيمة في كثير من الأحكام وكان رفيع الأثم عن المسكره والمضطر والناسي ، ثم أنظر إلى الحدود وهي تتفاوت في جرمية واحدة كالزنا فهي الرجم للمحصن والجلد مائة جلدة لغير المحصن الذي لم يتزوج أبليس . ذلك دليلا على موامة أحكام الإسلام لكل فرد ولكل حالة ، ثم أن مستويات

الأخلاق تتفاوت بتفاوت درجات الإيمان فأخلاق المسلم وخلقه غير أخلاق المومن .
أو المحسن وخلقه ولهذا قيل : سيئات المقر بين حسنات الأبرار .

ثالثا : الاعتدال :

تقسم قواعد الإسلام في مجال الأخلاق كغيره من المجالات الأخرى ، ونقصه .
بالاعتدال إتخاذ الوسط الذي ينأى عن جانبي الإفراط والتفريط فليس فيها من
التشدد ما يجعلها قواعد لا تطاق كما أنها ليست قواعد فيها السائب والعجب من
الأمر وصدق الحق سبحانه وتعالى إذ يقول : أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وإنكم
إلينا لا ترجعون ، أما عن هذه الوسطية فهي في الحقيقة أهم سمات القواعد والأحكام
الإسلامية عامة ، وشخصية الفرد المسلم سواء كان رجلا أو امرأة تتصف بالاعتدال
طبقاً للنهج الإسلامي في تربية الخلق وتكوين السلوك فهي ليست شخصية المنزمت
المتجهمة المعسر لكل الأمور الجامد في كل المواقف الصعب في كل الحالات ،
العابس الوجه في كل لحظة ، كما أنها ليست شخصية العايب اللاهي في كل الأوقات
الذي لا يكف عن المزاح والضحك في كل حين ، والذي يستهتر بكل أمر ولا
يترك الخلود إلى الدعة والراحة ، فكلا الشخصيتين بعيد عن الخلق الإسلامي ،
والأصل في ذلك كما ذكرنا يعود إلى قواعد الإسلام في مجال الأخلاق ويعود
للأُسوة الحسنة لنا في شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام وخلقه كذلك ، والله
تعالى يقول : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر
وذكر الله كثيرا (١) وعلى المؤمنين التشبه في خلقه وسلوكه سواء مع الناس أو في
بيته وأهله ، مع الزوجة ومع الابنة ومع الحفيد ومع الأقارب ، كان عليه الصلاة
والسلام يلعب حفيديه : الحسن والحسين ويسابق السيدة عائشة فيسبقها مرة .

(١) سورة الأحزاب : آية ٢١ :

وتسببه أخرى فيقول لها هذه بتلك ، كما كان يعاون أهل بيته ويقوم بها
: يخفف عنهم .

رابعاً : القيمة الذاتية للأخلاق :

الأخلاق في الإسلام لها قيمة ذاتية فهي غايات تقصد لذاتها وليست وسيلة
لتحقيق غايات أخرى ، فالأخلاق في الإسلام لا ترتبط بقواعد المنفعة بحيث تدور
معها وجوداً وعدمها وهي كذلك لا ترتبط بمذاهب اللذة التي عرفت المذاهب
الخلقية لدى بعض فلاسفة اليونان ، وإنما الأخلاق الإسلامية هي أهداف ينبغي
السعي إلى تحقيقها بغض النظر عما يؤدي إليه اختلاف وجهات النظر بشأنها ومن
الأمثلة في ذلك أن حجاب الانثى قاعدة شرعية لا يمكن إهمالها لأي سبب سواء
بسبب العمل والتكسب أو الرغبة في مجاراة الأعراف والتقاليد الفاسدة وأن
أعظم المشاكل التي تصاب بها بعض الشعوب الإسلامية إنما يأتي بسبب ترك
قواعد الأخلاق للرغبة في تحقيق منافع مادية أو خضارية مع نسيان أمر هام هو
أن تلك القواعد إنما تقصد لذاتها ولا يجب بأي حال قياسها أو ربطها بقيم وضعية
أخرى . بل أن بعض الدول تدوس على القيم الخلقية الإسلامية من أجل السياحة
أو التعليم ، (التعليم المختلط في الإعدادى والثانوى وما فوقهما) وقد تأكد
للأمريكيين وهم من أكثر الشعوب تحوراً — أن اختلاط المراهقين والمراهقات
في المدارس أدى إلى نتائج وخيمة ومخزية ونشرت إحصاءات وتقارير عن حالات
الحمل غير المشروع والإجهاض .

خامساً : عنصر الجزاء :

ومن أهم خصائص القواعد الأخلاقية في الإسلام ارتباطها بالجزاء الإلهي ،
سواء بالحسن وبالفوز بنعيم الآخرة بالنسبة لإتيانها أو بالسوء وبعذاب الله ولعنته

لمن يخرج عليها ، ويمثل عامل الجزاء ركناً مكملاً للأخلاق في الإسلام ، لأن الباعث على التمسك بقواعد الأخلاق هو حرص المسلم على إرضاء الله تعالى ورغبته في الفوز بحسن ثوابه ، وهذا الباعث له الأثر العظيم في تقوية إيمانه ومعاونته على الصبر لتحمل ما يتطلبه السلوك الأخلاقي من مجاهدة للنفس وأخذها بما يخالف هواها أو رغباتها العاجلة أو نزعاتها الفطرية ويتمثل الجزاء كحقيقة ماثلة أمام المسلم لتبدو القواعد الخلقية أمراً عادلاً متساوياً فلا ينهى النفس عن الهوى فإنما ينظر إلى ما يعده لها الله تعالى ومن باع عن دنياه شيئاً في سبيل الخير والبر فإنما باعه إلى الله تعالى وليست بشر ببيعته ، وبالشئ الذي أدخر له .

ومن المهم أن تلاحظ أن للجزاء كنتيجة أو أثر للعمل الأخلاقي قيمة معنوية كبيرة بحيث لا يعد لها أى أسلوب آخر ، سواء في الحث على الخير والترغيب فيه أو في الكف عن الشر ومنعه والتنفير منه ، وقد لا نحتاج إلى شاهد للتدليل على أن الزجر عن طريق القوانين والتشريعات الوضعية لا يجدى كثيراً مثلاً تجدى عقيدة الجزاء الديني وقد فشلت الولايات المتحدة الأمريكية في منع الخمر عن طريق الحظر التشريعي كما فشلت آلاف القوانين والقرارات واللوائح في مقاومة الإباحة والانحراف الخلق في كثير من المجتمعات ولكن الأمر الذي يتأكله نجاحه هو نشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة عن طريق تربية الصغار الحى وغرس الخلق الإسلامى القوى الذى يحكم صاحبه بأكثر ، تحكمه الأوامر والقوانين .

على أن تمثل الجزاء أمام الإنسان في كل أفعاله ليس أمراً ميسوراً لكل فرد وإنما هو يأتى ثمرة تربوية خلقية ولقدوة حسنة وبهيئة صالحة تحيط بالمرء منسقة أحداثه وترافقه في سنى حياته ومراحل عمره .

وقد يظن إنسان أن الجزاء ليس مما تتميز به قواعد الأخلاق الإسلامية وحدها

بل أن التشريعات الوضعية تضع هي الأخرى جزاءات على مخالفة نظمها الأخلاقية التي تقرها لمجتمعاتها ولكن شتان ما بين الجرائم وما أعظم الفارق بين النظامين

(١) فالأخلاق الوضعية إذا كان لها جزاءات فهي غير ثابتة ولا دائمة ، فما أكثر ما يتبدل وتتغير بتغير الحكومات أو بتغير الظروف والأعراف والعادات ، وهذا لا يتيح لها فرصة الرسوم والنجاح في الوصول إلى مستوى العقائد الثابتة المستقرة في وجدان أفراد المجتمع كما هو شأن القواعد الأخلاقية الإسلامية .

(٢) ثم أن القوانين الوضعية لا تتناول من النواحي الخلقية إلا مسائل متناثرة لا تصل إلى الإحاطة الشاملة بكل مناحي الحياة الإنسانية ، فهي لا تعنى إلا بما يراه الناس ضرورياً ولا تهتم إلا بما يشكرون منه ، أما ما يراه الناس موافقاً لأهوائهم فقلما تتدخل الحكومات للحد منه أو العقاب عليه ومن أمثلة ذلك أن كل حكومات العالم تعلم أن العري جريمة خلقية وأن جميع الديانات لا تحله ، والمسيح عليه الصلاة والسلام كان يقول : من نظر إلى امرأة أجنبية وهو يشتهيها فقد زنى بها ومع ذلك فما تعهد تشريعاً يحرم العري وكشف ما يحرم كشفه في أغلب دول العالم في الشرق والغرب على السواء ، ونفس الأمر ينطبق على الخمر ولكن الأخلاق في الإسلام غير ذلك ، فإن قواعدها من الشمول بحيث لا تترك من حياة الفرد أو الجماعة أمراً إلا نظمته ووضعت أحكامه .

(٣) والجزاء يتطلب توقيعه مشقات ونفقات مالية كبيرة بالنسبة للقوانين الوضعية : من رجال تحقيق وقضاة وسجون وجند وغير ذلك ، بينما يقوم العنصر الأخلاقي بما تعجز عنه القوانين والجنود ورقابة الإنسان لنفسه أهم وأجسدى من الرقابة الخارجية عليه ، بل أن الكثير من الجرائم والآثام يمكن للناس ارتكابها في

الخلفاء وبعيداً عن أعين الشرطة وجنودها ، ولهذا فشلت أغلب القوانين التي وضعت لمنع تعاطي المخدرات ومنع البغاء والإتجار بالأعراض ، وفشلت في منع الرشوة أو الحد منها ، وفي المحافظة على السكينة العامة ومنع الإزعاج والإساءة للناس .

٤ () ويلاحظ أن الجزاء في القوانين الوضعية هو مجرد زاجر لمنع وقمع الجريمة الخلقية فحسب ، ولا يتجاوز في أهدافه ذلك إلى الحث على فعل الخير ، فهو جزاء عقاب وليس جزاء ثواب بينما الجزاء الديني في الأخلاق الإسلامية جزاء عقاب وجزاء ثواب معاً يقول الحق سبحانه وتعالى : ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى (١).

(١) سورة النجم : آية ٣١ .

المبحث الثاني

تطبيقات النظرية الأخلاقية

في واقع المجتمع الإسلامي

نشأة المجتمع الإسلامي وعوامل قوته

أن أعظم ما يشير الدهشة والإعجاب ، ويقترح المجال للتأمل العميق ذلك التغيير العظيم الذي أحدثته إعتناق الأمة العربية للإسلام ، فتحول العرب من أمة متنافرة غير منظمة ليس لها شأن أو تأثير فيمن حولها من الأمم إلى أمة متحدة منظمة ، عرفت الحكم المستقر القوي لأول مرة ، ثم خرجت جيوشها تهزم الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية وتفتح الأقطار قطرا بعد قطر في بضعة عشرة سنة وليس لذلك كله من تحليل إلا إعتناق العرب للإسلام واتخاذ عقيده راسخة وشريعة محكمة نافذة والتخلق بآرائه وأخلاقه العظيمة السامية .

وسوف نتناول بيان ذلك في ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : نشأة المجتمع الإسلامي .

والمطلب الثاني : عن العقبات التي واجهته .

والمطلب الثالث : عن بعض صفاته وسماته .

المطلب الأول

نشأة المجتمع الإسلامي

أولاً : المجتمع المكي :

بدأ المجتمع الإسلامي ظهوره في مكة على صورة مجتمع ديني بحيث ، ليس له أى صبغة سياسية ؛ وهذا أمر طبيعي ؛ فقد بدأت الجماعة الإسلامية في مكة فيلة العدد ضعيفة خائفة ، ثم أن المجتمع نشأ نشأة متدرجة بدأت أولاً بتقرير العقيدة ثم بث المثل العليا في النفوس حتى إذا ما تهيأت لذلك أمكن بعد ذلك تنظيم المجتمع على أساس سليم .

وأهم ما يميز المجتمع الإسلامي الأول في مكة هو ذلك التجانس التام بين أفراده، فقد كانت تجمع بينهم وحدة العقيدة الإسلامية ووليهم الله تعالى ورسوله ﷺ ، وكانت العقيدة الجديدة هي شغلهم الشاغل ومحور تفكيرهم وامتثالهم ليل نهار ؛ ولكن المجتمع المكي المشرك وقف في وجه تلك الجماعة الإسلامية الناشئة وأحكم حولها حصاره حتى لا ينتشر تأثيرها ويقوى نفوذها وقد أتبع في سبيل ذلك كل السبل من السخرية والاستهزاء إلى الإحراج بالأسئلة والإنكار إلى الإغراء والوعيد كما لجأوا إلى العنف والتعذيب . وقد أشفق الرسول عليه الصلاة والسلام على أتباعه فدعاهم إلى الهجرة إلى الحبشة حيث ملكها النجاشي كان عادلاً صالحاً وقال لهم عليه الصلاة والسلام : لو خربتكم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده ، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه ، وكانت الحبشة تدين بالذهب يعقوبى الذى يعرف التليث في المسيحية وكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة في رجب من السنة الخامسة وكان المهاجرون يومئذ اثني عشر

رجال وأربع نسوة (١) .

وقد تبع الهجرة إلى الحبشة أمر آخر زاد قريشاً تحاملاً على الرسول ﷺ وصحبه ، ذلك هو إسلام عمر بن الخطاب وحمة بن عبد المطلب وكان كلاهما قوياً جريئاً ، فلجأت قريش إلى تدبير آخر للحد من إنتشار الإسلام ، وهو كتابة صحيفة ، وقعتها كل بطون قريش يتعاهدون فيها على بنى هاشم وبنى عبد المطلب : ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يديحوهم ولا يذبحوهم منهم شيئاً ، وقد وضعوا تلك الصحيفة في جوف الكعبة ثم حاصروا بنى هاشم والمسلمين في شعب خارج مكة تسمى : شعب أبي طالب وقامت قريش على هذا الحصار الإقتصادي ثلاث سنين ، ولكن على الرغم من أن المسلمين المحاصرين أجهدوا أيما إجهاد وكادوا يهلكون من الجوع فلمنهم ثبتوا على موقفهم في بطولة وظل النبي ﷺ يدعوهم إلى الإسلام بين العرب (٢) وقد قبل دعوته من أهل يثرب اثنا عشر رجلاً ومنهم امرأة واحدة بايعوه عند مكان بين منى ومكة أسماه العقبة ولذلك سميت ببيعة العقبة الأولى أو ببيعة النساء (٣) وقد بايعوه على ألا يشرکوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأبوا بيهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم

(١) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية تأليف : الدكتور عمر فروخ طبعة

١٩٧٦ صفحة : ٥٣ .

(٢) دور الحجاز في الحياة السياسية العامة للدكتور أحمد إبراهيم الشريف

ص : ٧٣ .

(٣) وذلك لأن نصرص هذه البيعة جاءت في سورة الممتحنة آية ١٢ :
« يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك على أن لا یشرکن بالله شيئاً ولا یسرقن ولا یزنین ولا یقتلن أولادهن ولا یأبنین بیهتان یفترینه بین أيديهن وأرجلهن ولا یعصینک فی معروف فبایعنن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحیم » .

ولا يعصوه في معروف فإن وفوا فلهم الجنة وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم
إلى الله وبعد عامين بايع من أهل يثرب ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان فيبيعة
العقبة الثانية (٣ قبل الهجرة = ٦١٩ م) وإذ ذاع الإسلام في يثرب فقد قرر
الرسول ﷺ الهجرة إليها مع أبي بكر الصديق في يوم الاثنين لإثني عشر ليلة
تخلت من ربيع الأول (سبتمبر ٦٢٢ م) (١) وبالهجرة بدأ عهد جديد هو
العهد المدني .

ثانياً : المجتمع المدني :

كان أول ما فعله الرسول ﷺ في المدينة هو بناء المسجد وكان مسجداً بسيطاً
البناء ، فلم يكن غير فناء ضيق يحيط به جدار من اللبن ، وليس فيه غير مكان
مسقوف ، يغطيه الجريد المثبت على جذوع النخل ، أما بقية أجزائه فكانت
مكشوفة ، وقد أفرد النبي عليه السلام الجزء المسقوف لبعض من جاء معه من مكة ولم
يحمدوا ما رأى وسنوا لذلك « بأهل الصفة » أي الذين يأوون إلى صدقة (١٢) المسجد ،
وهو المكان المسقوف .

وبعد أن كان الرسول ﷺ يعيش وجماعة المسلمين الأول في مكة في عزلة
عامة في مجتمع مكة ، إذ بهم في مجتمع المدينة وقد خرجوا عن تلك العزلة
وإختلطوا بمجتمع المدينة وبمن فيه من اليهود ، وبعد أن كان المسلمون في مكة
جماعة دينية فحسب إذا بهم في المدينة يصبحون مجتمعاً دينياً سياسياً يتسأل من
المهاجرين والانصار ، ويتعاش مع باقي طوائف المدينة ، وأهم ما يميز ذلك

(١) التاريخ السياسى للدولة العربية تأليف الدكتور عبد المنعم ماجد الطليعة
الطبعة ١٩٦٧ ص : ١٠٩ .

(٢) وصفة الدار جمعها صفف (الصباح) ص ٢٦٥ .

المجتمع الجديد أن أصبح يمثل أمة لها كيائها ونظامها وقد كتب النبي ﷺ ميثاق تلك الأمة الذي عرف بالصحيفة نظم فيها شؤون المهاجرين والانصار وعلاقاتهم باليهود (١).

وهكذا أصبح الإسلام ديناً ودولة في المدينة ، وأصبح للمسلمين حكم ثابت ، وكان ثمة مشكلة تواجه ذلك الحكم وهي تنظيم هذه الدولة الفتية الجديدة فيما يتعلق بمرافق الحياة المختلفة مثل : الإدارة والقضاء والجبائية والدفاع والحرب والتنظيم الاجتماعي لمسائل الزواج والطلاق وكفالة اليتامى والإرث ، ثم حل المشاكل المتبقية من الجاهلية مثل الثأر والربا والزواج الفاسد ويضاف إلى ما تقدم العمل على التهذيب الاجتماعي بمقاومة السكر والميسر والفسق والخسافات . وقد جاء القرآن الكريم في سورة المدنية بوجوه التشريع المختلفة التي عالجت كل تلك الأمور (١) ونظمت للمسلمين كذلك علاقاتهم الخارجية مع أصحاب العمود والمراثيق وتطبيق قواعد الحرب والسلام والحياد بما جعل للمسلمين أرقى نظام تشريعي عرفه العالم أجمع .

وعلى رأس تلك الأمة كان الرسول ﷺ ، يحكم من فيه بما أنزل الله تعالى من أحكام ، ويقضى فيما شجر بينهم ، ويفصل في منازعتهم ويصرف زكاة أموالهم في مصارفها لمن يستحقونها . ويعلمهم ويربيهم ، ويقود معارك الحرب مع أعدائهم . أعداء الله ، ويرسل الرسل إلى القبائل وإلى حكام الدول المجاورة يدعواهم إلى الإسلام ،

وقد نجح ذلك المجتمع الإسلامي الجديد أيما نجاح ، ولا ريب أن أفسوى

(١) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية للدكتور عمر فروخ ص ٦٠ .

ما عاون على نجاحه أن الله تعالى ألف بين قلوب أفرادها ، فأصبحوا بجمعة الله
أخواناً ثم ما اتسمروا به من مناقب خلقية رفيعة جعلت المسلمين يتغلبون على
العقبات والتحديات التي واجهها المجتمع الإسلامي ، وهو ما سوف نعرض له
في المطلب الثاني ثم نبرز في المطلب الثالث السمات والخصائص التي بدت في
المجتمع الإسلامي وأظهرت نجاحه في الاستفادة من القيم الخلقية والمبادئ الأخلاقية
التي جاء بها الدين الإسلامي الحنيف .

المطلب الثاني

العقبات والتحديات

التي واجهها المجتمع الاسلامي

واجه المجتمع الإسلامي عقبات عديدة وتحديات كثيرة يمكن تقسيمها إلى قسمين أو نوعين من المشاكل .

أ — المشاكل الداخلية .

ب — المشاكل الخارجية .

أ — المشاكل الداخلية

تمثلت المشاكل الداخلية في ثلاثة أمور هي : —

١ — قلة المال .

٢ — كيفية التعامل مع الأعداء .

٣ — توحيد المجتمع .

فأما بالنسبة للأمر الأول فقد تغلب المسلمون على نقص الأموال وقلة الموارد بالإيثار والبذل في سبيل الله، فلم يؤثر أحد من الصحابة نفسه بمال من دون المسلمين، بل قدم كل واحد ماله للجماعة، وعندما نزل المهاجرون بالمدينة لقيهم الأنصار أحسن لقاء وبذلوا في سبيلهم كل مرتخص وغال، حتى أن الرجل كان يطلق إحدى زوجتيه لكي يتزوج بها المهاجر .

٢ — وأما عن كيفية التعامل مع الأعداء ، فقد داهن الرسول عليه الصلاة

والسلام أعداده في أول الأمر ؛ فمقد المعاهدات مع اليهود ومسح بعض القبائل المشتركة من العرب ، كما عقد صلح الحديبية في عام ٦ هـ مع المكيين (١) ولمدة عشر سنين ، ونص فيه على أن يترك الخيار للناس في أثناء هذه الهدنة في أن ينضموا إلى المكيين أو إلى المسلمين وأن الرسول عليه الصلاة والسلام أن يرجع بعد عام إلى مكة فيدخلها حاجا في نفر من أصحابه ويمكث فيها ثلاث ليال فقط والايكون مع المسلمين إلا سلاح المسافرين . ولكن لا اليهود ولا المكيين حفظوا عهدهم مع المسلمين مما دعا إلى قتلهم وهزم اليهود كما تم فتح مكة عام ٨ هـ .

٣ — اما المشكلة الثالثة فكانت تتمثل في كيفية توحيد المجتمع ، وقد كان العرب قبل الإسلام متعودين على الفرقة والتشتت ولا يعرفون غير مجتمع القبيلة وقد غير الإسلام من حياة العرب فأخذت روح الفردية تتضاءل وتحل محلها روح الجماعة ، وبعد أن كان العرب قبل الإسلام جماعات متفرقة وقبائل متنازعة ، لا يجمعهم دين ولا حكومة ولا شريعة إجتماعية سامية منتظمة ، جاء الإسلام فربط بين العرب ودعم الأمة العربية وأبرز وحدتها ومنحها نظما راقية في السياسة والإجتماع والفكر والإقتصاد وفتح أمام هذه الأمة أبواب التاريخ والحضارة والإنطلاق (٢) . وقد آمن الله على المسلمين بتلك النعمة ، نعمة الوحدة فقال تعالى : واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (٣) .

(١) وكان يمثل المكيين في هذا الصلح سهيل بن عمرو .

(٢) التاريخ الموحد للأمة العربية للدكتور علي حسن الخربوطلي ص ٤٠ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

وبعد وفاة الرسول ﷺ حدثت فتنة الردة ولكن نجح أبو بكر الصديق في القضاء عليها وكان من أشهر القادة الذين حاربوا المرتدين خالد بن الوليد والمثنى بن حاذة الشيباني ويزيد بن أبي سفيان وعمر بن العاص وشرحبيل بن حسنة وقد أخفقت حركة الردة تماما وانتصر الإسلام على العصبية القبلية وعلى الروح الانفصالية التي هددت وحدة المجتمع الإسلامي .

ب - المشاكل الخارجية

ترجع المشاكل الخارجية إلى أن المجتمع الإسلامي في الجزيرة العربية كان محاطا بقوى خارجية غير مسلمة تمثلت في الفرس والروم وكانت الأولى تسيطر على العراق والثانية تسيطر على الشام ومصر ، كما كان يعيش على أطراف جزيرة العرب قبائل عربية تدين لهاتين الدولتين بالولاء ولا تعرف شيئا عن الإسلام بل وتقف منه موقف العداء .

وقد كان المسلمون يعطفون على أهل الكتاب من يهود ونصارى وكانوا يتمنون إلتصارهم على الوثنيين والمجوس ؛ فلما كانت جيوش الفرس تكتسح أراضي الدولة الرومانية المسيحية في آسيا ومصر نزل الوحي مؤكدا إلتصار الرومان في النهاية وذلك في قوله تعالى في سورة الروم : (ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من يحد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) .

وقد تحقق ذلك ، ففي عام بدر انتصر المسلمون واستعاد الروم ما فقدوه من ممالك بل اجتاحت بلاد الفرس ، وعلى الرغم من عطف المسلمين على الدولة الرومانية فما كانت تستطيع السكوت على إمتمرار إنتشار الإسلام وقد وقعت معها . حركة في مؤاته ، وقد إستعد الرومان لغزو حدود الجزيرة العربية ولكن

المسلمين كانوا أسرع تحركاً في عهد أبي بكر الصديق فكر المثنى بن حارثة الشيباني بعد أن انتهى من قتال أهل البحرين أن يسير بمن معه لقتال القبائل العربية التي كانت تعيش على تخوم شبه جزيرة العرب في العراق خاصة والتي لم تكن قد دخلت في الإسلام بعد ولم يكن مع المثنى سوى أربعة آلاف رجل فأشفق أبو بكر أن تصيبهم هلكة إذا لقوا جيوش الفرس في عددهم وعدتهم ، من أجل ذلك أسرع أبو بكر فأجعد المثنى بن حارثة بعشرة آلاف رجل بقيادة خالد بن الوليد (١) .

وتصدى الفرس والروم مجتمعين لقتال العرب وعاونهم في ذلك عدد من القبائل العربية على الحدود ولكن خالد بن الوليد انتصر في معارك كثيرة منها ذات السلاسل والولجة وعين التمر ودومة الجندل وذلك في عام ١٢ هـ (٢) .

ولما ثبتت أقدام المسلمين بعد تلك الانتصارات كان ذلك مشجعاً لهم على استمرار الفتح الذي تم في عهد عمر بن الخطاب والذي امتد ليشمل فارس والشام ومصر .

(١) التاريخ الموحد للأمة العربية للدكتور علي حسن الخربوطلي ص ٥٥ .

(٢) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية للدكتور عمر فروخ ص : ٩٦ .

المطلب الثالث

سمات المجتمع الإسلامي وصفاته

كان للمجتمع الإسلامي الأول سماته المميزة ، التي جعلته مجتمعاً يتصف بالمثالية والنقاء والسمو ، وجعلته على مر القرون القدوة الصالحة لكل المجتمعات التي تليها بعده .

وسوف نتخير من بين تلك السمات بعضها بعضاً عارضين لها وفق الترتيب الآتي : —

- الفرع الأول : التلاحم والتآلف .
- الفرع الثاني : الحيوية .
- الفرع الثالث : المثالية .
- الفرع الرابع : النمو المطرد .
- الفرع الخامس : غلبة روح الجهاد .
- الفرع السادس : يقظة الضمير .
- الفرع السابع : تحقيق المساواة .
- الفرع الثامن : إبتغاء الآخرة .
- الفرع التاسع : الإيثار .
- الفرع العاشر : الأخوة .

الفرع الأول التلاحم والتآلف

إذا بحثنا عن سر تفكك المجتمعات وانعدام التعاطف بين أفرادها لوجدنا
يمكن في أمر واحد هو **الأنانية أو حب النفس** ، فبى الداء العياء الذى يزرع
الخصومات وينمى الحزازات ولا يتحقق معه فى المجتمع تلاحم وتآلف بين
أفراده .

وقد جاء الإسلام فقضى على تلك النزعة المدمرة : نزعة الأنانية ، وبين أن فيها
إتباع الهوى والهلاك ، وإصلاح النفس لا يتم إلا بالتخلص من الهوى وكبت
الشهوات والسمو عن النقائص الخلقية ، ولما تغلب المسلمون على نفوسهم وقهروا
نقائصهم ونزعاتهم ، زال ما يحجب المرء عن أخيه من الأثرة وإتسقى الصراع
والتكالب على المتاع الذى يوغر الصدور ويقسى القلوب وتمثل المسلمون قول الحق
صبحانه وتعالى :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (١) .

وقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

وقد آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار وأخى بين الأوس والخزرج
فأصبح المجتمع الإسلامى وحدة متلاحمة ، وأخوة متحابية ، ولانتهت العصبية التى
ألفها الناس فى الجاهلية وكانوا يتفاخرون بها وتثور بينهم المازعات من أجلها ،

وقد قضى الإسلام على هذه العصبية المفرقة ثم تبرأ من كل من يدعو إليها فقال رسول الله ﷺ : ليس منا من دعا إلى عصبية ، وعلى هذا الاساس أوجد الإسلام تنظيمًا جديدًا للناس في المجتمع وأصبح المسلمون أمة واحدة متآخية لهم رب واحد وكتاب واحد وشرعة واحدة وهدف واحد يسعون جميعاً إلى بلوغه ويتكاتفون معاً لتحقيقه وهو نشر الإسلام وجعل كلمة الله هي العليا وجعل كلمة الذين كفروا السفلى .

ولم يدع رسول الله ﷺ باباً يضعف المجتمع ويفرق صفوفه إلا سده . قال الذين دخلوا الإسلام يطلبون الخير به ، وهم سماهم القرآن الكريم المؤلفة قلوبهم ، كانوا أصحاب سهم في الصدقات ، وكان رسول الله ﷺ يتعهدهم دائماً تأليفاً لقلوبهم وضماً لهم إلى صفوف المؤمنين .

وبذلك أصبح المجتمع الإسلامي مجتمعاً يسوده الحب والتآلف والترحم يزهد في الدنيا طلباً لما عند الله تعالى ويتمثل أفرادُه دائماً قول الحق عز وجل : إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ألقاها أمراً ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون (١) .

وكذلك قوله تعالى : وأضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرآ . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً

وخير أملاً (١) ولا عجب أن يكون هذا شأن مجتمع ينزل عليه وحى الله تعالى ويعلمه ويرببه رسول الله ﷺ ، وهو الذى يقول : لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنون حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم .

وقال معاذ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تبارك وتعالى : « وجبت محبتي للمتحابين فى ، والمتجالسين فى ، والمتزاورين فى ، والمتبادلين فى » . وقال رسول الله ﷺ :

وما تحاب إثنان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه (٢) .

(١) سورة الكهف — آية ٤٥ — ٤٦ .
(٢) دعوة الإسلام للشيخ سيد سابق ص ١٢٦ .

الفرع الثاني

حيوية المجتمع الإسلامي

حفل المجتمع الإسلامي بعوامل القوة التي جعلته حياً دائماً متجدداً ولقد أتى عليه من المحن والشدائد ما يوهن القلوب ويضعف العزائم ويزلزل النفوس ، فلم تزد المحن والشدائد إلا ثباتاً و يقينا وصبرا وتسليما لله تعالى . ففي مكة لقي النبي وأصحابه من المشركين بمكة أذى كثيراً ، روى أن خباباً قال : أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة ، ولقد لقينا من المشركين شدة فقلت ألا تدعو الله فقهده وهو محمر وجهه فقال لقد كان من قبلكم ليمشط بتسحاط الحديد ما دون عظامه من اللحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله (١) .

ولقد أعان المسلمين على تحمل الأذى والتغلب على المحن وتخطي الفتن ما أمرهم به الله تعالى من الصبر والمصابرة وتحمل المكاره ، يقول عز وجل : يا أيها الذين آمنوا اصبروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون (٢) وكذلك اعتقاد المؤمنين أن تلك الشدائد هي لإختبار لهم من الله تعالى مصداقاً لقوله عز وجل : ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم (٣) .

ولقد كان الصبر والصلاة أعظم العوامل في قوة المجتمع الإسلامي وحيويته

(١) صحيح البخاري ح ٤ ص : ٢٣٨ .

(٢) سورة آل عمران . آية : ٢٠٠ .

(٣) سورة محمد . آية : ٣١ .

وقد رته على الصمود والتجلد ، يقول تعالى :—

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ، ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والشمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون (١) ولو تأملنا في سر تلك القوة التي اكتسبها المجتمع الإسلامي والتي جعلته يتصف بالحياة والتجدد لما وجدنا غير الإيمان الذي غرسه رسوله الله ﷺ في أفرادهم وهداهم سبيله ، فلم تفلح قوى البغى والشر في القضاء عليهم ، عندما كان المسلمون قلة لا تتجاوز أصابع اليدين أمام قريش بكبريتها ومتكبريها وأغنيائها ومترفيها ، قال عمار بن ياسر : رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر (٢) ثم أي قوة أعظم من أن يواجه المسلمون فتن اليهود والمنافقين في المدينة — فيستغلّبون عليها ويتصرون عليهم ويحققون العزة التي وعدهم بها الله : ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون (٣) .

أن مجتمعاً يواجه كل قوى الشر في داخل جزيرة العرب ، ثم يواجه كل قوى الظلم - والبغى في خارجها - وينتصر في هذا الزمن القصير على الفرس والروم لهُو مجتمع قوى بالله مملوء بالحياة التي ترد منه عوامل الوهن والضعف والإحلال وصدق الحق سبحانه وتعالى حيث يقول : ولا تهنوا ولا تهزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين (٤) .

(١) سورة البقرة . آيات : ١٥٣ — ١٥٧ .

(٢) صحيح البخاري جزء ٤ صفحة ٢٤٠ .

(٣) سورة المنافقون . آية : ٨ . (٤) سورة آل عمران . آية : ١٣٩ .

الفرع الثالث مثالية المجتمع الإسلامي

كم حار المفكرون والفلاسفة في البحث عن المجتمع المثالي وهل يمكن أن يقوم على ظهر الأرض وكيف يمكن له أن يقوم وذهبت نظرياتهم وأفكارهم سدى ، لأن ما تخيلوه لم يكن ليتحقق ولأن ما يضعه البشر لا يمكن أن يرقى إلى ما يأتي به . وحى الله تعالى الذى خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه ويحقق له الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة .

لقد أفلح الإسلام في خلق المجتمع المثالي النموذجي ، ولمن يتخيّلون أن المثالية لا يمكن أن تتحقق أن يتطلّعوا إلى ذلك المجتمع الإسلامي الأول اسكى يدركوا أن المثالية تحققت فيه .

غير أنه ينبغي لنا أن نحدد المقصود بالمثالية لكي نعلم مقدار بعد المجتمعات الأخرى عنها ، وكم من مجتمعات بلغت من الثراء والتقدم الحضارى أقصى ما ينال وهى مع ذلك أبعد عن مجرد التطلّع إلى المثاليات . إنما المثالية في مجتمع إذا توفر فيه أمران :

الأمر الأول : أن تكون له قيم عليا سامية كالعبادة والعدل والحب والإيثار.

والأمر الثانى : أن ينجح في تحقيق تلك القيم وتحويلها من عالم الأفكار والآراء إلى عالم المشاهد المحسوس .

فلا يكفي لقيام المجتمع المثالي وجوده أن تكون لديه مثل عليا بلغت الغاية من السمو والإرتفاع إذا لم تكن تلك المثل مما يؤخذ به في مجال العمل والتطبيق ، فلن تعدو أن تكون مجرد شعارات لا تنفع وتضعف المجتمع ولا تقويه .

كما لا يكفي لقيام المجتمع المثالي أن يسعى بكل قواه إلى الأخذ بأسباب القوة أو الثراء أو الهيمنة والنفوذ ، دون أن تكون له قيم رفيعة ومثل عليا حقيقية يتضمنها حين تحقيق تلك الغايات وحق حين ينجح في بلوغ قمة القوة والثراء والنفوذ وهو لا قيم عنده فإنه لا يلبث أن يصيبه الوهن والإنهيار كما رأينا في انهيار العديد من الإمبراطوريات ؛

ولكن المجتمع الإسلامى الأول قد بلغ ما لم يبلغه أى مجتمع إنسانى فى تاريخ البشرية القديم والحديث على حد سواء ، فلم يحدث أن قام مجتمع فضائل الصدق والصبر والمساواة والعدل والرحمة كما قام المجتمع الإسلامى وتطابقت النظرية مع التطبيق العملى كما تطابقت فيه .

الفرع الرابع النمو المطرد للمجتمع

لو تأمل إنسان حالة المجتمع الإسلامى عند نشأته الأولى فى مكة لما كان يوجهه أن يصدق أن ذلك المجتمع الصغير الضعيف سيمزم أكبر إمبراطوريات الأرض أى الفرس والروم ، بل ولما وصل به الظن إلى أن يعود أولئك المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم وتركوا مكة ، إلى مدينة البيت الحرام مرة أخرى ، وانهم يدخلونها آمنين أعزة منتصرين غالبين ، ولكن هذا كله هو ما تحقق لذلك المجتمع القوى العجيب وهو ما كان يبدو بعيداً فى أعين المنافقين المتخاذلين المتخلفين ، وقد وصف الله تعالى كل ذلك حيث يقول : سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئاً أن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدًا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً (١) .

وليس أدل على نمو المجتمع الإسلامى نمواً سريعاً متزايداً من ذلك التغيير الكبير الذى طرأ عليه فى سنين قليلة فقد إزدادت أعداد المسلمين واتضاعفوا مرات كثيرة وفى ذلك يقول عز وجل : إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً (٢)

(١) سورة الفتح — آية ١١ — ١٢ .

(٢) سورة النصر — آية ١ — ٣ .

كما لازدادت الموارد المالية حتى أصبح المسلمون يبت المال تتجمع فيه الاموال
من مصادر مختلفة هي : —

١ — أموال الزكاة .

٢ — أموال الصدقات .

٣ — أموال غنائم الحرب وهي نوعان : —

أ — الغنائم التي يستولى عليها الجيش المنتصر بعد معركة .

ب — الفئ وهو ما استولى عليه المسلمون من مال ومتاع وأرض بلا قتال
ولا هجوم .

٤ — أموال الجزية التي كانت تؤخذ من أهل الكتاب (١) .

وأخيراً فقد اتسعت رقعة البلاد الإسلامية ، فبعد أن كان المسلمون كالفرس بام
نقى وطنهم مكة ، يخافون أن يتخطفهم الناس إذا بهم فى أقل من نصف قرن
يصبحون وأرض المسلمين تمتد من المحيط الاطلسى غرباً إلى نهر السند شرقاً
ومن جبال طوروس شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً .

(١) تاريخ صدر الإسلام والعهدة الاموية تأليف الدكتور عمر فروخ

الفرع الخامس

غلبة روح الجهاد

كان الجهاد من أبرز سمات المجتمع الإسلامى الأول، وصحيح أنه لم يكن أحدهم من المسلمين يجبر على الدخول فى الجيش الإسلامى، إذ كان الأمر متروكا للرغبة فى التطوع فإن الجيش الإسلامى كان فى أيام الرسول ﷺ يشمل مجموع الرجال القادرين على حمل السلاح، بل كان يسارع إلى صفوف المجاهدين الفتيان والاحداث وأصحاب الأعداء فى التحلف عن القتال لحرص الجميع على أداء ذلك الواجب المقدس والفوز بإحدى الحسنيتين : الإستشهاد أو النصر على أعداء الله. ولم يكن الجهاد قاصرا على الجهاد بالنفس فحسب بل كان هناك الجهاد بالمال، فكان من الصحابة من يجاهد بثلث ماله أو بنصفه أو بكل ما يملك، كما فعل أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وكان منهم من يجهز الجيش الخارج إلى الغزو من ماله كما فعل عثمان بن عفان رضى الله عنه، ولم يكن الباعث على الجهاد رغبة من رغبات الدنيا ولا حاجة من حاجات النفس، وإنما كان الباعث والغاية أن تكون كلمة الله هى العليا وأن يفوز المجاهد برضوان الله فذلك عنده أكبر من كل ما عداه.

الفرع السادس

يقظة ضمير

تميز المجتمع الإسلامي الأول بيقظة ضمير أفراده ، يقظة لا زالت تعد مضرب
المثل في المثالية والسمو ، وقد ظهر ذلك في كل مناحي الحياة الاجتماعية ، فهذا
عز بن مالك يأتي رسول الله ﷺ ويقول يا رسول الله ظلمت نفسي وزينت
وأني أريد أن تطهرني ويطلب إقامة الحد عليه فيجد صابرا محتسبا وكذلك فعلت
العامدية التي قال عنها رسول الله ﷺ بعد رجوعها : .. لقد تابعت توبة لو قسمت
بين سبعين من أهل المدينة لومعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت
بنفسها لله تعالى ، لقد ساقهما الضمير إلى الرجم دون أن يكون شاهدا على كل
عنهما إلا الله تعالى .

وبعد الفتح الإسلامي لفارس أتى إلى عمر الكثير من الغنسات التي يخف حملها
ويغلوا ثمنها ، أداها بأنفسهم جنود مخلصون لوجه الله لا يريدون جزاء ولا
شكورا ، فقال عمر رضي الله عنه في إعجاب وتقدير ، أن قوما أدوا هذا الأمانة ،
وقال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة
فمررنا في بعض الطريق فأنحدر بنا راع من الجبل ، فقال له : يا راعي بعني شاة
من هذا الغنم . فقال إني مملوك فقال : إختبارا له — قل لسيدك أكلها الذئب .
فقال الراعي : فأين الله ؟ فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا مع المملوك فاشتراه من
مولاه واعتقه وقال : أعتقتك في الدنيا هذه الكلبة وأرجو أن تعتقك في الآخرة ،

هذا الضمير هو الذي جعل عمر في عام الجماعة المعروف بعام الرمادة لا يأكل
إلا الخبز والزيت حتى أسود جلده فيمكله بعض الصحابة في ذلك فيقول : بشس

الوالى أنا إن شجعت والناس جياح .. ويحدثنا الشعبي أن عليا رضى الله عنه ضاعت
منه درع فوجدها عند نصراني فأقبل به إلى القاضي « شريح » ، يخاصمه وقال على :
هذه الدرع درعى ولم أبيع ولم أهب . فقال شريح للنصراني : ما تقول فيما يقول
أمير المؤمنين ؟ فقال النصراني : ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندي
بكاذب فالتفت شريح إلى على وقال : يا أمير المؤمنين ، ألك بينة ؟ .. فأقسم
على وقال : أصاب شريح مالى بينة ، ففضى بالدرع للنصراني ، فأخذها ومشى
خطوات ثم رجع ، فقال أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء ، أمير المؤمنين
يديننى إلى قاضيه ، فيقضى عليه ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ،
والدرع والله درعك يا أمير المؤمنين ، سقطت منك وأنت منطلق إلى صفين ،
فقال على : أما إذا أسألت فى لك ، وهكذا كان الضمير المؤمن هو الذى يحكم أمير
المؤمنين وهو الذى يحكم القاضى وهو الذى يتحكم فى أفراد ذلك المجتمع
الإسلامى (١) ۝

(١) الإيمان والحياة تأليف الدكتور يوسف القرضاوى ص : ٢٢٠ ۝

الفرع السابع

تحقيق المساواة

جاء الإسلام بالدعوة إلى المساواة بين الناس جميعاً :

ووضع قاعدة الربوبية لرب واحد ويوحده الإنسانية لهدف واحد وهو عبادة الله وحده وتوحيده ، ولما كان الناس جميعاً ينتسبون لأب واحد هو آدم وآدم من تراب ، فقد نادى الإسلام بالقضاء على كل مظاهر التفرقة بين البشر التي اخترعها الإنسان إتباعاً للهوى وجعل بها الناس طبقات وأصنافاً وذلك باعتبار السادة والأراذل ، والأغنياء والفقراء ، واللون والعنصر ، والعربي وغير العربي ، قضى الإسلام على كل ذلك فقال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) فلا فضل إلا بالتقوى ، وقد ترتب على تلك المساواة التامة بين الناس ، ثمرتها العملية وهي المساواة بينهم في الحقوق والواجبات (٢) .

وقد قرر الرسول ﷺ مبدأ المساواة وأكد عليه في حجه الوداع فعن أبي نظر قال : حدثني مع من سمع خطبة النبي في وسط أيام التشريق .. فقال : يا أيها الناس أن ربكم واحد وأبائكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا أسود على أحمر ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى .. إلا هل بلغت .

(١) سورة الحجرات . آية ١٣ .

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة للإمام الأكبر محمود شلتوت صفحة ٤٧٢ .

.. اللهم فاشهد قالوا بلغ رسول الله ﷺ أخرجه أحمد ورجاله (رجال الصحيح) (١).

والمساواة في الإسلام يترتب عليها نتائج وآثار هامة نجملها فيما يلي :

أولاً : قيمة الإنسان واحدة ، من حيث هو إنسان ، لا فرق بين غني وفقير. وعالم وجاهل وذى حسب وغير ذى حسب ، ومسيد وخادم : يقول عليه الصلاة والسلام : خدمكم خولكم فمن كان أخوة تحت يده فليطعمه مما يأكل وليكسره مما يلبس .. ولذلك فإن الإسلام لا يقر شعور إنسان بتميزه عن غيره ، والخيرية لغة إبليس فهو أول من قال : أنا خير منه .. يمتقها القرآن ويأبغها وب العالمين ..

ثانياً : المسلمون أمام شريعة الله سواء ، وهذا ما يعبر عنه في عالمنا المعاصر بالمساواة في الحقوق والواجبات وفي الحصول على المزايا وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص .

ثالثاً : لا يقر الإسلام أى نوع من التفرقة على أساس القيم المادية ، كالثراء أو القوة أو الجنس أو الجاه ، ولكن يقر بعدم المساواة في القيم المعنوية كالدين والتقوى والعلم . بقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويقول تعالى : قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، والآنخذ بهذا المعيار في تحقيق المساواة يؤدي إلى غلبة القيم المعنوية على المجتمع فلا يسوده الجهلاء ولا الأغنياء ولا أهل الجاه والمال والنفوذ .. وإنما يسوده ويسوسه أهل الخلق والتقوى والعلم .

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين الهيثمي . ٣ ص ٢٦٦ دار الكتاب العربي .

الفرع الثامن

إبتغاء الدار الآخرة

الدعوة لدين جديد تتطلب مشقات كبيرة وتضحيات عظيمة لأنها تقابل دائماً بمعداوة شديدة من الكفار والمشركين والجرمين ، يقول تعالى : وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من الجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً (١) . والنبي والذين استجابوا لربهم وآمنوا بما جاء به هم الذين يتحملون ما لا يظيقيه إلا المؤمنون حقاً والمجاهدون الصابرون . وقد قامت دعوة الإسلام على جهاد شاق وإيثار للأخرة على الدنيا وتضحية بالأنفس والأموال والأهل وكل نفيس واثير لدى المؤمنين . وقد قدموا كل ذلك راضية نفوسهم مطمئنة قلوبهم قانعين بما عند الله وبوعده مستيقنين أنه تعالى لا يخلف الميعاد .. وقد اتقى الله تعالى على حسن عملهم وأخبر عن رضاه سبحانه وتعالى عنهم فقال عز من قائل : لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولسك لهم الخيرات وأولسك هم المفلحون ه أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم (٢) ه عرف صحابة رسول الله ﷺ قصر عمر الدنيا بالنسبة للخلود الدائم عند رب العالمين فكانوا أصبر الناس على البلاء وأثبتهم في الشدائد وأعضاءهم نفساً في الملبات . ولم يطمعوا أن تكون دنياهم جنة قبل الجنة ويمثلوا قول الحق سبحانه وتعالى : ه قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ه (٣) دوما الحياة الدنيا إلا متاع

(١) سورة الفرقان : آية ٣١ .

(٢) سورة التوبة : آية ٨٨ — ٨٩ .

(٣) سورة النساء : آية ٧٧ .

الغرور ، (١) وعرفوا من منه الله في الذين خلوا من الأنبياء والمرسلين أنهم أشد الناس بلاء في الدنيا وأقل الناس استمتاعاً برخائها فلم يطمعوا أن يكونوا خيراً منهم ولهم فيهم وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة يقول الحق سبحانه وتعالى : **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مِثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلِينَ الْبِأَسَاءِ وَالضَّرَاءِ** . وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه مقى نصر الله ، ألا أن نصر الله قريب (٢) . ويقول تعالى : **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** (٣) وترك المهاجرون ديارهم وأموالهم وعشيرتهم وقرابتهم وأهلهم إبتغاء وجه الله وإبتغاء الدار الآخرة ، غير آسفين ولا نادمين ، وبذل الأنصار في سبيل الله دورهم وأموالهم وأهلهم ، وكلا أرض الله تعالى وفيهم يقول عز وجل : **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** (٤) . **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (٥) .

لقد استجابوا لله والرسول ﷺ ولم يؤثروا عليهم شيئاً (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) ويحبون من يحبهم الله ورسوله ويبغضون من يبغضونهم إمتثالاً لقول الحق سبحانه وتعالى : **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ**

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٥ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢١٤ .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٢١ .

(٤) سورة الأنفال : آية ٧٤ .

(٥) سورة الحشر : آية ٩ .

بِالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو
أخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم
جَنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب
الله ألا إن حزب الله هم المفلحون (١). وهكذا ضحوا بالقربابات وبالآرحام
فالآرحام لا تجدى شيئاً في الآخرة إذا كانت سبباً في أن يحبط العمل ويضيع الإيمان
ومن قبل ضحى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالقوم وبالقرابة في سبيل الله تعالى
يقول عز وجل : لن نفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما
تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم
إنا برآؤ منكم وبما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة
والبغضاء أبدأ حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لا متغفرن لك وما
أملك لك من الله شيئاً ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير (٢) وصدق
رسول الله ﷺ : من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه . .

(١) سورة المجادلة : آية ٢٢ .

(٢) سورة الممتحنة : آية ٣ - ٤ .

الفرع التاسع الإيثار

كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة في الإيثار على النفس ، ومن أروع صور الإيثار ما قام به الانصار في المدينة مع إخوانهم المهاجرين من مكة حيث آثروا المهاجرين على أنفسهم حتى أن من كان عنده إمراةان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم ووقاهم الله شح النفس فتغابوا على ما جبلت عليه من حب المال وبغض الإنفاق ، حتى أن الله تعالى أنزل فيهم قوله : والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١) ،

وقال رسول الله ﷺ للانصار : أن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم فقالوا أموالنا بيننا قطائع فقال رسول الله ﷺ أو غير ذلك : قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر ، فقالوا نعم يا رسول الله وقرله تعالى : ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٢) . يعني فقرا وحاجة أى يقدمون المحتاجين على حاجة أنفسهم وبدأون بالناس قبلهم . وقد ثبت الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : دأفضل الصدقة جهد المقل ، وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله : دأيطعمون الطعام على حبة ، وقوله تعالى دأأتى المال على حبه ، فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به وهؤلاء آثروا

(١) سورة الحشر . آية : ٩ .

(٢) الخصاصة والخصاص يعنى الفقر (الصحاح ص : ١٧٧) .

على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ومن هذا المقام تصدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه يجمع ماله فقال له رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال رضي الله عنه : أبقيت لهم الله ورسوله ، وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء فردده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يثر به أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم قال البخاري حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير حدثنا أبو أسامة حدثنا فضيل بن غزوان حدثنا أبو حازم الأشجعي عن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أصابني الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال النبي ﷺ : ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخر به شيئا فقالت والله ما عندي إلا قوت الصبية قال فإذا أراد الصبية العشاء فأويهم للنوم وتعالى نطني السراج ونطوى بطوننا الليلة : ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال : لقد عجب الله عز وجل من فلان وفلانة — أو ضحك — من فلان وفلانة ، وأنزل الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وكذا رواه البخاري في موضع آخر والترمذي والنسائي من طرق عن فضيل بن غزوان . وعن جابر عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماهم واستحلوا محارمهم : وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لا يجتمع غبار في مسبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدأ ، وقال ثنيان الثوري عن طارق بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن الأسدي قال كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلا يقول : اللهم قتي شر نفسي ، لا يزيد على ذلك فقالت له فقال إنى إذا وقيت بشح

نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل وإذا الرجل : عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه
رواه بن جرير (١) .

والمأمل فى إيثار الصحابة على أنفسهم يعرف أن ذلك الإيثار سببه الحب ،
فالإيثار وليد الحب ، حب بعضهم بعضاً ، وإعدام الأثرة
والأنانية ، لأن الأنانية هى تنفى المقدرة على حب الغير وإيثاره عن أبي هريرة
رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : طعام الاثنين كافى الثلاثة فطعام الثلاثة كافى
الأربعة ومتفق عليه ، وعن جابر رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : طام الواحدة
يكفى الاثنين وطعام الاثنين يكفى الأربعة وطعام الأربعة يكفى الثمانية ، وعن
أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : بينما نحن فى سفر مع النبي ﷺ إذ جاء
رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا ، فقال رسول الله ﷺ :
« من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد
به على من لا زاد له ، فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد
منا فى فضل رواه مسلم (٢) .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ — ٣٣٨ .

(٢) رياض الصالحين للإمام النووي - طبعة دار الفكر - ص ١٧٠ .

الفرع العاشر

الاخوة

جاء الإسلام بصراط مستقيم - يجمع الله بين من هدى إليه برباط واحد
ليكونوا أخوة متحابين، قال تعالى : فآلف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً (١)
وهو سبحانه وتعالى يأمر عباده بالأخوة وبأن تلك هي العلاقة التي ينبغي أن
تكون بينهم ، إنما المؤمنون أخوة (٢) والأخوة التي يربط بها الإسلام معتقيته
هي من أوثق الروابط ، نزول أمامها جميع الفوارق من نسب عريق ومال وفير
وجاه عريض إلى غير ذلك مما تواضع عليه الناس واعتبروه بما يميز بينهم .

ولكن وفقاً لنظرية الإسلام فإن أى إنسان مهما كان عريق النسب أو كثير
للمال أو كان ذا شأن فإنه أخ لمن كان دونه نسباً أو أقل منه مالاً أو شأناً .

آثار الأخوة :

والأخوة كما جاء بها الإسلام ليست مجرد مشاعر نفسية أو إعتبارات معنوية
لا تتجاوزهما إلى أبعد من ذلك بل أن ثمة آثار عملية تترتب عليها فى السلوك
والمعاملات بعضها ينبغى تركه وتجنبه والبعض الآخر يتعين عمله والقيام به .

وسنبداً أولاً بذكر ما توجب الأخوة تركه ثم نبين ما توجب فعله وعمله .

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .

(٢) سورة الحجرات : آية ١٠ .

الأول : ما توجب الأخوة تركه :

(١) توجب الأخوة الإسلامية أن يترك المسلم كل ما من شأنه الخط من شأن أخيه وتحقيره ، ويقول عليه الصلاة والسلام ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه ، ويتصل بذلك عدم السخرية منه والإستهزاء به ، فيقول تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا يسخروا من قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلبسوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ولم يتبأوا أشكهم إذا المؤمن (١) .

(٢) ترك الغيبة وسوء الظن : ولعرض المسلم حرمة في غيبته فلا ينبغي أن يغتاب أو يساء به الظن بلا مبرر ومجرد الاستماع لاي غيبة أو مس بالاعراض يكسب المستمع إثمًا ، يقول عز وجل : يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم ، ولا نجسسوا ولا يغتاب بعضكم بعضا (٢) .

ويقول ﷺ : (ما من امرئ يخذل مسلما ، في موضع تلتك فيه حرمة ، ويتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته .. وما من امرئ نصر مسلما إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته (٣) .

(٣) حرمة المال : ولا يقتصر الأمر على ترك المساس بالأمور المعنية أي بالعرض والكرامة والشرف ، بل يحرم على المسلم أن يمس مال أخيه المسلم إلا

(١) سورة الحجرات ص ١١ .

(٢) سورة الحجرات ص ١٢ .

(٣) عناصر القوة في الإسلام فضيلة الشيخ مريد سابق ص ١٨٢ .

بإذنه وبحقه ، فكل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه وقد قال عليه الصلاة والسلام : لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه وتعظم الحرمة ويكبر الجرم إذا كان مال يتيم ، فهذا التواعد بعظم العذاب أنظر قول الحق عز وجل أن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً (١) .

كما حرم الله تعالى أخذ مال المسلم بغير وجه حق فقال تعالى : ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون (٢) .

٤ (عدم المساس بجسم المسلم وبسلامته فكل المسلم على المسلم حرام وأول الحرمة دمه .. كما قال عليه الصلاة والسلام .. ويقول تعالى : وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ (٣) ..

ثانياً : ما توجب الأخوة عمله :

١ (إن حقوق الأخوة الإسلامية لا تقف عند كف الأذى ومنع الشر عن المسلم والمحافظة على حرمة دمه وماله وعرضه ، بل أن لتلك الأخوة تبعات وهي تعرض على المسلم واجبات ينبغي عليه القيام بها وأول هذه الواجبات أن يهتم كل أخ بامر أخيه ، أن يعنى بشأفه والدفاع عنه والزيادة عن حاجته والعمل الدائب على ترقية حاضره وإعداد مستقبله أعز وأكرم قال تعالى والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض (٤)

(١) سورة النساء : آية ١٠ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٨٨ .

(٣) سورة النساء : آية ٩٢ .

(٤) سورة التوبة : آية ٧١ .

وروى البخارى والمسلم عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . ومن مظاهر هذا الإهتمام ألا يدع المسلم أخاه للأحداث تتحكم فيه وتنال منه ، بل عليه أن يبذل له من ذات نفسه وذات يده وأن تدفع كل أذى يصيبه أو شر يقع عليه وأن يحفظ أمانته ويصدق معه الحديث ويوفى له بما عاهده عليه أو وعده به فى الحديث : لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ويقول تعالى : يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود (١) ويقول عز وجل : يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتغونوا أماناتكم وأنتم تعلمون (٢) ويقول تعالى : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها (٣) .

٢ : خفض الجناح :

والتواضع وخفض الجناح واين الجانب كل ذلك واجب على كل مسلم لأخيه المسلم ، فيحسن خطابه ومعاملته ، ويعمل على زيادة الود وتأليف القلوب ، فكم من كلمة أصححت موقفاً وكم من تسامح بحلب المودة وزاد فيها ولا يسكون لمسلم أن يتكبر على أخيه المسلم والله تعالى يقول : واخفض جناحك للؤمنين (٤) . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : إن الله أوحى إلى أن تواضعوا ، حق لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد (٥) .

(١) سورة المائدة : آية ١ .

(٢) سورة الأنفال : آية ٢٧ .

(٣) سورة النساء : آية ٥٨ .

(٤) سورة الأعراف : آية ١٤٦ .

(٥) عناصر القوة فى الإسلام لقضية الشيخ مبيد سابق ص ١٨٦ .

وقد آخى الرسول ﷺ بين المسلمين في المجتمع الإسلامي الأول وذلك
بالتوجيه الحسن وبالقدوة والاموة الحسنة ، وآخى بين المهاجرين والانصار
فخساروا إخوانا متحابين في الله وضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثلة في
حسن الاخاء وجميل المعشر مما عاون على بناء مجتمع متكاتف متآزر جاهد في سبيل
الله حتى حقق لهم النصر ،

الفصل الخامس

بعض القيم الأخلاقية الإسلامية

أولاً : الصبر

تغلب المسلمون في أول الدعوة الإسلامية بمكة على كل ما لاقوه بالصبر فصبروا على أذى الكفار والمشركين من قريش وتحملوا الأذى والسخرية والإستهزاء بهم وتعذيبهم ليردوهم من بعد إيمانهم كافرين فإ وهنوا لما أصابهم وما زادهم ذلك كله إلا إيماناً والتفافاً حول الرسول ﷺ . والرسول نفسه عليه الصلاة والسلام قد صبر كثيراً على المبارزين لرسالاته والمتنكرين له وحشة الله تعالى على الصبر والتأسي بمن سبقه من الرسل ؛ فيقول عز وجل : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم (١) ويقول تعالى : اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب (٢) .

ولقد كان صبر الرسول ﷺ والمسلمين معه هو القوة المعنوية التي انتصروا بها على قوى الشر المادية الظالمة وفي كل ما ينصح به الإسلام أتباعه يعني دائماً بالقوة المعنوية في الدرجة الأولى ، يقول تعالى : يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة في مواجهة الأعداء وفي مقابلة أزمات الحياة وشدائدها التي تشمل في الخوف والجوع ونقص الأموال والافئس والثمرات ، ثم يبدد بالنصر في القتال وباجتياز الشدائد والأزمات في سلام لا أولئك الصابرين .. وهذه

(١) سورة الاحقاف آية ٣٥ .

(٢) سورة ص آية ١٧ .

الشدائد وتلك الالتزامات ما هي إلا ابتلاء من الله تعالى يمتحن به عباده ويمحص به قلوبهم ويرفع به درجاتهم .. يقول عز وجل ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأفئس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون (١) .

وقد صبر المسلمون مع رسول الله ﷺ على أعدائهم في كل المواقف كما صبروا كثيرا في القتال ، ووعد الله الصابرين بأن يغلبوا عشرة أمثالهم من الكافرين المشركين فيقول سبحانه وتعالى : يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون (٢) .

ويمكننا أن نجمل المواطن التي صبر فيها المجتمع الإسلامي الأول فيما يلي :

- (١) الصبر على الأذى والضرر من المشركين والكافرين .
 - (٢) الصبر على الطاعة لله وحسن عبادته .
 - (٣) الصبر على فقد وترك الأموال والأهل بالهجرة من مكة إلى المدينة ،
 - (٤) صبر الأنصار واحتمالهم مشاركة المهاجرين لهم في كل ما يملكون .
 - (٥) صبر المسلمين كافة في معاركهم مع الكفار والمشركين .
- ويمكن لنا أن نجمل صور الصبر كلها في نوعين : صبر الإنسان على ما يكره ،

(١) سورة البقرة آية ١٥٥ — ١٥٧ .

(٢) سورة الأنفال آية ٦٥ ،

وصبره عما يجب : على أن الصبر بنوعية يتطلب قوة العزيمة وضبط النفس لتحمل
المتاعب والمشقات والآلام . وربما يتساءل بعض المفكرين : أيها أكثر مشقة :
الصبر على ما يكره الإنسان أم الصبر عما يحبه ؟

غير أنه ينبغي القول أن التفرقة بينهما دقيقة ؛ لأن الإنسان يكره ما يكرهه
لأنه يحرمه عما يحبه ، فالمرء يكره الموت لأنه يحب الحياة ، ويكره الجوع لأنه
يحب الطعام ويكره السهر لأنه يحب النوم ؛ أما إذا تساوى الأمران عند الإنسان
فلا يكون ثمة ما يكره ولا ما يجب ، فن لا يجب الحياة يستوى عنده العيش
والموت ومن يعاف الطعام يستوى عنده الجوع والشبع ومن يألف الأرق يستوى
عنده النوم والسهر .

ومع هذا تبقى لهذا التقسيم لنوعى الصبر قيمة فيما يتعلق بالصبر على الفعل
والصبر على الكف ، فالأول صبر على ما تكره النفس والثاني صبر عما تحب
وتهوى ، وذلك لأن التكليف بالفعل يسبب مشقة للنفس إذا لم يكن مما تهواه
كما أن الكف والترك فيه مشقة كذلك إذا كان كتما عما تميل إليه النفس . وتبقى
المسألة الجوهرية في كل ذلك هي النفس ورغباتها ، فن زهدت نفسه هان الصبر
عليه وسهل عنده لأن نفسه ضعيفة التماق بالرغبات :

والنفس راغبة إذا رغبتهما وإذا ترد إلى قليل تنقع

وأصعب ما يكون الصبر ثقيلًا على ذوى النفوس الالامارة ، والرغبات القوية
والشهوات الملحة . على أن ذلك ليس معناه أن الصبر خلة لا يمكن التوصل إلى
اكتسابها إلا بزهد النفوس وضعف الرغبات ، كما قد يتبادر إلى الذهن لأول
وهلة ، ولكن عند التحقيق يتبين أن زهد النفس وضعف رغباتها هو بذاته
مرتبة لا يتم الوصول إليها إلا بصبر ومصابرة وجهد ومجاهدة لا يطيقها جميع

الناس .. لأن الإنسان لا يولد زاهدا بطبعه ولا تكون نفسه قناعة بفطرتها ..
على أن لذلك استثناء ينبغي التنبيه إليه : وهو أنه إذا وجد إنسان فقدت نفسه
الرغبة في إحدى الرغبات أو الشهوات دون مجاهدة منه لها ، فلا فضل له فيها
يتصف به إزاءها ولا يعد بهذا واحدا من الصابرين . فمن تعاف نفسه طيب الطعام
لسقم عنده لا يعد من الزاهدين ، ومن لا يعرف كيف يتكلم بما يقنع به السامعين
لا يحسب بين أصحاب الحكمة وإيثار الصمت عن الكلام ..

و ن هنا ندرك أن وزن الصبر هو دائما وفق ميزان شخصي وليس على أساس
قاعدة واحدة تجرى على جميع الأفراد ، وتقدير درجة الصبر وقوته يتوقف على
إنسان بحسب حالته وظروف النفس والجسم والنعمة المتاحة على حد سواء . ولهذا
كان من يؤتى المال على حبه أفضل ممن يؤتیه وعنده منه الكثير ، ومن يعف في شبابه
خيرا ممن يكون عناقه بعد زوال الصبوة وحلول المشيب .

ويتصل بذلك أن نبين ماذا يعين على الصبر ويقويه لدى الإنسان : إن فلسفة
الصبر تقوم في الحقيقة على اعتباره دائما صراعا بين أمرين أو بين طرفين ، وما
يجود كفة الصبر ترجح هو تقليب أمر على أمر أو طرف على سواه ، فالمجاهد في
سبيل الله يتصارع في نفسه حب الحياة وحب الإسلام وشهاد في سبيل الله ، فإذا تغلب
الأخير صبر على القتال ولم يبال بالموت حيثما جاء .

وقل مثل ذلك في الصائم والقائم والمجاهد بماله والكاظم الغيظ والمحسن إلى من
أساءه والقرآن الكريم حين يخاطب المؤمنين فإنما يذكرهم بالأمر الذي قد لا تميل
نفوسهم إليه أو بالطرف الذي لا يدور بخلدكم أن يؤثروه ، فإذا تنبهوا لذلك
لأنزاح عنهم طائف الشيطان وتذكروا فإذا هم مبصرون وإذا هم صابرون !
يقول تعالى : قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم

وأموال إقترتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين (١) .

ويقول جلا وعلا : ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم (٢) .

وعندما سمعها أبو بكر الصديق قال بلى ، إنى لأحب أن يغفر الله لى . وعاد إلى خيلة سطح وإكرامه إمتثالا لأمر الله تعالى رغم ما كان من دور في حادثة الأفك مع إبنته عائشة ولذلك فإن إختيار الصبر وإبتلاء الناس به ليس مثل ورقة إمتحان واحدة لجميع الممتحنين ، وإنما هو إبتلاء لكل فرد بحسب نفسه ، ويعلم درجة الصابر وفوزه منزل الإبتلاء ، رب العالمين ، لأنه وحده العليم بما فى كل نفس وما تؤثره على كل سواء . فهذا إنسان يؤثر المال على نفسه وعلى ولده ، وهذا يؤثر صحة بدنه وفراغ عيشه على كل ما عداهما وثالث يؤثر بنيه على نفسه وما ملك يده ، فالصبر لدى كل واحد من أولئك يقاس فى الحقيقة لدى إبتلائه فيما هو أثير لديه .

للصبر باعث وغاية :

على أن الصبر ، وهو شطر الإيمان لا وزن له عند الله تعالى إلا إذا إقترن بباعث وغاية فى النفس ، فأما الباعث فهو إبتغاء مرضاة الله وأما الغاية فهي حسن

(١) سورة التوبة آية : ٢٤ .

(٢) سورة النور آية : ٢٢ .

جزائه ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه : والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلا نية ويدرمون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار (١) .

وعن غاية الصبر يقول تعالى : إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (٢) .

مواضع الصبر :

تتعدد المواضع التي تتطلب الصبر في حياة كل إنسان ، ويمكن أن نجملها فيما يلي :

١ — الصبر على شهوات النفس :

وذلك فيقول الحق سبحانه وتعالى : والذين هم لفرجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٣) ويقول تعالى الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين (٤) ،

٢ — الصبر على الشدائد :

ويكون ذلك بتحمل الجهاد ومشقاته والصبر في المكاره ، كالحرب وغيرها وفي ذلك يقول الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا (٥) . ويقول جلا وعلا : والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس .. (٦) .

(١) سورة الرعد . آية : ٢٢ .

(٢) سورة الزمر . آية : ١٠ .

(٣) سورة المؤمنون . آية : ٥ ، ٦ .

(٤) سورة آل عمران . آية : ١٣٤ .

(٥) سورة آل عمران . آية : ٢٠٠ .

(٦) سورة البقرة . آية : ١٧٧ .

ويقول تعالى : ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين (١) .

ويقول سبحانه وتعالى : أم حسبت أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (٢) .

٣ — الصبر على فتنه الناس :

وفي ذلك يقول تعالى : وجعلنا بعضكم لبعض فتنه أتصبرون وكان ربك بصيرا (٣) .

٤ — الصبر على زوال النعم :

وفي ذلك يقول الحق جل وعلا : ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (٤) .

٥ — الصبر على مصائب الحياة :

سواء كانت المصيبة في النفس أو المال أو الصحة أو طمأنينة القلب أو يحفظ الدنيا وإلى هذا أشار الذكر الحكيم في قوله تعالى : فلهكم إله واحد فله أسألو وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون (٥) .

(١) سورة محمد . آية : ٣١ .

(٢) سورة آل عمران . آية : ١٤٣ .

(٣) سورة الفرقان . آية : ٢٠ .

(٤) سورة البقرة . آية : ١٥٥ .

(٥) الاخبات : الحشر . يقال اخبت لله تعالى أى خشع . مختار الصحاح

ص : ١٦٧ . سورة الحج . آية : ٣٤ و ٣٥ .

٦ - الصبر كخلق ناسى :

وقد أثنى الله تعالى على الصبر كصفة فى عباده وسمة مميزة لنفوسهم حين يصبح طبيعة وخلقاً يتحلون به ، كأنهم الجند المرابطون فى سبيل الله ، والرضى بأحكامه وفى أولئك يقول تعالى : أن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات (١) وقد جعل الله تعالى الصابرين محل رضوانه وموضع حبه وعلامة فوز أصحابه :

يقول تعالى : والعصر ان الانسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (٢) .

ويقول تعالى : ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . ويقول جل علاه : إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير (٣) .

نماذج من الصبر :

ومن أعظم مواضع الصبر التى ينبغى على المؤمنين تمثيلها ، كل بما يتفق مع حالته ووضعه ، ما كان من أولى العزم من الرسل ، وأولهم بالذكر محمد ﷺ وكيف صبر على الأذى والتكذيب والامتناء من الجاهلين الذين لا يعقلون وقد حثه الله على الصبر : فأصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل (٤) وفى قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مواضع للعبر فى مجال الصبر تمز الوجدان وتحى النفوس :

١ - فقد صبر إبراهيم عليه السلام على إجمام قومه وهمهم بإحراقه .

(١) سورة الأحزاب : آية ٣٥ :

(٢) سورة العصر .

(٣) سورة هود : آية ١١ .

(٤) سورة الاحقاف : آية ٣٥ .

٢ — وتلقى بالصبر والرضى أمر الله تعالى أياه بنقل زوجته وولده إلى جوار الكعبة بواد غير ذي زرع .

٣ — وتلفت هاجر صابرة أمر الله وفعل زوجها بتركها وحيدة مع طفلها إسماعيل .

٤ — وصبر إبراهيم عليه السلام حين أمره ربه بذبح ابنه وإمتثل للأمر خاشعاً .

٥ — وأطاع إسماعيل صابراً أمر الله وفعل أبيه وسلم نفسه لأبيه ليفعل ما يؤمر به .

أو لا يحدّر بنا كسلبين أن نتذكر مواطن الصبر كلها حين نذكر أنبياء الله ورسله وحين نؤدى شعائر الله لاسيما فى العمرة والحج .

ثانياً : الصدق

تعريفه :

الصدق لغة ضد الكذب وقد صدقه وتصادقا فى الحديث والمودة والصدق (بالكسر) الدائم التصديق وهو أيضاً الذى يصدق قوله بالعمل (١) . ويمكن تعريف الصدق بأنه الإخبار بالحقيقة أو فعل ما يدل عليها .

أهميته :

الصدق من أسمى وأهم الصفات الخلقية وكفى به أنه من أفعال الله سبحانه . وتعالى ، يقول سبحانه : دقل صدق الله فأتبعوا ملة إبراهيم خنيفاً وما كان من المشركين (٢) ويقول تعالى : الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب

(١) مختار الاصطاح : ص ٣٥٩ .

(٢) سورة آل عمران : آية ٩٥ .

فيه ومن أصدق من الله حديثاً (١) ثم هو من صفات الأنبياء والمرسلين والله تعالى يصرفهم به في قوله : يوسف أيها الصديق (٢) . وفي قوله تعالى : وأذكر في الكتاب إبراهيم انه كان صديقاً نبياً (٣) . ويقول جل وعلا : فلما اعترهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً . وهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا (٤) .

والكذب من علامات النفاق : فالمنافق إذا حدث كذب ، ولا يكون المؤمن كاذباً لأن الكذب يناقض الإيمان .

انواعه :

يتخذ الصدق صوراً عديدة وأنواعاً مختلفة ، أهمها ما يلي :

١ — الصدق في الوعد أى الوفاء بالوعد والعهد وألا يقول المؤمن غير ما يعمل ولا يعمل غير ما يقول .

٢ — الصدق في القول وفيما ينبر به المرء عن نفسه وغيره .

٣ — الصدق في نقل الأفكار والآراء العلمية وذكر المصادر التي أخذ عنها الكاتب أو المؤلف ما يكتبه ويسمى ذلك الأمانة العلمية وعدم التحريف أو التحوير فيما ينقل . وخاصة في مجال التشريع وقد قال رسول الله ﷺ من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار وكذلك عدم إخفاء الحقائق وعدم كتمان العلم عن طالبيه ومستحقيه .

(١) سورة النساء : آية ٨٧ .

(٢) سورة يوسف من آية ٤٦ .

(٣) سورة مريم : آية ٤١ .

(٤) سورة مريم : آية ٤٩ -- ٥٠ .

(٤) الصدق في أداء الشهادة وعدم الجنوح إلى قول الزور وشهادة الزور من أعظم الموبقات وقد قرنها الله تعالى بالشرك فقال سبحانه وتعالى : « فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور » .

ولكن ما الذى يدفع بعض الأفراد إلى الكذب ؟ إن الدوافع إلى الكذب عديدة وأهمها ما يلي :

- ١ — المحافظة على حياة الإنسان والحرص على البقاء .
- ٢ — رغبة الإنسان في تحقيق مصلحة مادية أو أدبية لنفسه أو لذويه .
- ٣ — الغرور وعدم الرغبة في الظهور بالمظهر الحقيقي .
- ٤ — الكبرياء والرغبة في التعالي عن طريق إيهام الغير بغير الواقع .
- ٥ — الميل إلى المبالغة لاستشارة الغير أو لإضفاء صفات معينة على الوقائع .
- ٦ — التجميل ولصق صفات غير حقيقية للشيء الموصوف .
- ٧ — الرغبة في إثارة شعور الغير .
- ٨ — التعود على المبالغة بغير هدف وهو ما يسميه البعض « التهويل المجاني » .

٩ — وهناك الكذب المرضى ، وهو كذب مجرد عن أية بواعث سوى ذلك الباعث المرضى عند صاحبه بحيث لا يستطيع أن يصدق ولا يستطيع إلا أن يكذب حتى ولو كان الكذب يضره والصدق يفيدده ويسمى علماء الجريمة هذا اللون باسم المحرم السيكوباتى .

والصدق مثل كل فضيلة طرفا إفراط وتفریط ، فالإفراط يكون بالضراحة

الجارية لمشاعر الآخرين بغير مبرر وفضح معاييهم بقسوة في كل حقيقة بواجب أن يقال . وإيس كل ما يعرف يقال ، وكل ما يقال حضر أهله أو جاء أو أنه . أما التفريط فيكون في المبالغة في التحوط والتحفظ والتواء أساليب التعبير مما يؤدي إلى التناق أو إلى السذاجة والجماقة (١) .

وهكذا كان شأن المسلمين الأولين : الإقتداء برسول الله ﷺ في طاعة الله لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر كثيرا (٢) وساروا على قاعدة وجوب الإتياع في العقائد والعبادات ورعاية المصالح التي يراها أولو الحل والعقد في المعاملات وعلى الرجوع إلى الكتاب والسنة عند حصول النزاع إمتثالاً لقول الحق عز وجل : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول لمن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً . (٣)

ثالثاً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وصف الحق سبحانه وتعالى أمة محمد ﷺ بأنها خير أمة أخرجت للناس فقال تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (٤) .

فبين الله سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس ، فهم أنفعهم لهم وأعظمهم إحساناً إليهم ، لأن كل أمورهم خير نفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن

(١) الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوي . المرجع السابق ص ١٨٧ .

(٢) سورة الأحزاب . آية ٢١ .

(٣) سورة النساء . آية ٥٩ .

(٤) سورة آل عمران . آية : ١١٠ .

المنكر ، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم وهذا كل النفع للخلق .

كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من صفات المؤمنين ، يقول عز وجل : والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض : يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . (١)

وأمر الله تعالى المسلمين بأن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فقال تعالى : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (٢) قال الضحاك : هم خاصة الصحابة كما تشمل المجاهدين والعلماء ، وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام : رسول الله ﷺ : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ثم قال : الخير لإتباع القرآن ومنتقى . رواه ابن مردويه : والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الامة متوجهة لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الامة بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) وفي رواية : وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل ، وعن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال : والذي نفس بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعونه فلا يستجيب لكم (٣) .

واقبل كان رسول الله ﷺ قدوة حسنة للصحابة رضوان الله عليهم في الأمر بالمعروف

(١) سورة التوبة : آية ٧١ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٠٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ : ص ٣٩٠ .

والنهي عن المنكر ، يقول تعالى : الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراه والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحمل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون (١) فبالرسول ﷺ أكمل الله الدين المضمن للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر وإحلال كل طيب وتحريم كل خبيث . وتحريم الخبائث يندرج في معنى النهي عن المنكر كما أن إحلال الطيبات يندرج في الأمر بالمعروف .

ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة لان الله تعالى قد أخبر أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر فلو اتفقوا على إباحة محرم أو إسقاط واجب أو تحريم حلال أو إخبار عن الله تعالى أو خلقه بباطل ، كانوا متصفين بالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف (٢) .

وقد تأسى الصحابة بالرسول ﷺ واقتدوا به ، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتناصحوا فيما بينهم ووفوا بما بايعوا عليه رسول الله ﷺ ، تلك البيعة التي حدث عنها الوليد بن عباد بن الصامت فقال : (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا (٣) ، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله الا أن نركوا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم (٤) .

(١) سورة الاعراف . آية : ١٥٧ .

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية - دار الكتاب الجديد - ص ٩ .

(٢) الاثره : الانفراد بالشئ عن له فيه حق والاختصاص بالمشترك .

(٣) رياض الصالحين للإمام النووي - ص ٦٨ .

وإذا كان المجتمع الإسلامى قد قام ومن قواعده الهامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه ينبغي التنبيه إلى أنه كان مجتمعاً نقيماً سليم الفطرة ولذلك كان ما تراه عتول أفراد من منكر حقاً وما يروونه معروفاً هو معروف فى حقيقته ، أما إذا فسدت الضمائر فى المجتمع واختلت الأمور فإن الحكم على المعروف والمنكر قد يندو مقلوباً وغير سديد ، والمعروف هو ما تتفق العقول على عدم إنكاره ، أما المنكر فهو كل جريمة إجتماعية ، أى كل جريمة تتجاوز آثارها للشخص الذى أرتكبها إلى المجتمع الذى يعيش فيه ، كالزنا والقتل والسرقة والغيبة والنميمة والكذب والشهادة الزور .

وإذا أفترست الفاحشة بالمنكر كما فى قوله تعالى : لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر (١) كأن القصد من الفحشاء أو الفاحشة هو جريمة الزنا وحدها ، أما المنكر فيبقى عاماً يشمل الجريمتين الأخيرتين : القتل والسرقة (٢) .

كما يشمل المنكر كل ما تستنكره العقول السليمة وتأباه النـسـوس الزكية والفطرة النقية .

(١) سورة النور : آية ٢١ .

(٢) من مفاهيم القرآن للدكتور محمد البهى ص ٢٣٩ .

القسم الثاني الأخلاق المقارنة.

تتناول في القسم الثاني من هذا الكتاب ، دراسة الأخلاق المقارنة ، أي دراستها في الديانات السماوية التي كانت قبل الإسلام وأوردنا منها ما كان في الديانتين اليهودية والمسيحية وسوف نجعل ذلك في مبحثين ثم نخصص مبحثاً ثالثاً للأخلاق في الفكر اليوناني القديم .

ونختتم هذا القسم لمبحث رابع يتناول دراسة بعض القيم والمسائل الأخلاقية دراسة مقارنة وقد تخيرنا منها مسألتين هامتين هما : الفضيلة والضمير ونجعلهما في مطلبين .

المبحث الاول

الاخلاق في الديانة اليهودية

أبرز ما ترتب على ظهور الديانة اليهودية ، هو أن الإنسان أصبح لا شأن له .
بالمبحث عن القواعد الأخلاقية ومحاوله وضعها وصياغتها ، فقد تولت أحكام
شريعة موسى عليه الصلاة والسلام تلك المهمة ، غير أن ذلك التحول عن العقائد
الوثنية والقواعد الأخلاقية اليونانية اللاتينية لم يتم في سهولة وفي وقت وجيز ،
فقد كان عسيراً تحويل الناس عن معتقداتهم الوثنية من ناحية وإقناعهم بقبول
شريعة السماء من ناحية أخرى ، ليس في مجال الاخلاق فحسب بل في كل جوانب
الحياة الإنسانية ولذلك ظل للفكر اليوناني اللاتيني تأثيره وامتزج بالدين اليهودي
الجديد ، فظهرت العقائد الدينية والنظم الفلسفية التي تمثلت في يهودية « فيلون » ،
وأكثر ما ظهر هذا الإمتزاج في الاسكندرية حيث امتزجت آراء روما واليونان
والشام في المدنية والعلوم والدين ، واتصل الدين بالفلسفة لإتصالاً وثيقاً كان من
نتائج ظهور عقائد لاهي من الفلسفة المحضة ولاهي من الدين الخالص وكان وراء
ذلك عاملان :

الاول : هو ميل اليهود إلى التوفيق بين معتقداتهم الدينية والعلم الغربي الذي
كان متأثراً بالعلم اليوناني .

والثاني : أن المفكرين الذين استمدوا آراءهم من الفلسفة اليونانية رأوا
أن يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية وبين القضايا الدينية المحضة (١) . على أن
الجانب الأخلاقي في ذلك كله ، وهو ما يهمنا ، نجد فيه إتجاهات وآراء جديدة .

(١) مبادئ الفلسفة . أ. م. رابوبرت : المرجع السابق ص ١١٧ :

جاءت في التوراة وتضمنتها ثلاثة أسفار منها هي : الخروج والاختبار والثنية .
وأول ما يلاحظ عليها تعارضها مع الكثير من أخلاقيات الفلسفة اليونانية خاصة
لدى الرواقيين والابيقوريين . ويمكن أن نلص ذلك على الخصوص فيما يتعلق
بالأخلاق التي وردت في الوصايا العشر :

- (١) لا يكن لك آلهة أخرى أمسى .
- (٢) أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك .
- (٣) لا تقتل (٤) لا تزن (٥) لا تسرق هـ
- (٦) لا تشهد على قريبك شهادة زور .
- (٧) لا تشته امرأة قريبك ولا غيره ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً
مما لقريبك .
- (٨) من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً .
- (٩) ومن سرق إنساناً وباعه أو وجد في يده يقتل قتلاً .
- (١٠) ومن شتم أباه وأمه يقتل قتلاً (مضر الخروج) .

فلا نجد في تلك الأحكام القوية روح المسالمة والسعى إلى السكينة اللتين سادت
العديد من المبادئ الخلقية في الفلسفة اليونانية القديمة خاصة لدى سقراط
والرواقيين ، كما عرفت الإنسانية معنى الحرمة والتحرير وإنتهى عهد الإباحية
وانطلاق الغرائز والشهوات وطلب اللذات بغير ضوابط أو قيود . وظهرت
فكرة الخطيئة التي تدنس الخطيئة ويمكن التكفير عنها بالهبات والقربان .
على أنه يلاحظ أن اليهودية لم تقض على نظام الرق بل ظل قائماً في ظلها ،
فأباح التوراة الإسترقاق بطريق الشراء أو بسبب الحرب ، وجعلت للعبري
أن يستبعد العبري إذا افتقر فيبيع نفسه للغنى ، كما أباحت أن يقدم المدين

نفسه للدائن حتى يوفى له الثمن ويظل عبداً لديه لمدة ست سنوات يتحرر بعدها
في العام السابع ، وأباحث التوراة للعبري أن يبيع بنته فتكون أمسة للعبري الذي
يشتريها (١) .

ونلس العزوف عن نصائح الزهد التي شاعت في ثانيا الفلاسفة الأخلاقية
اليونانية فيما جاءت به الديانة اليهودية مثل : ثروة الغنى مد يئته الحصينة ومثل :
مبور عال في تصوره أمثال ١٨ : ١١ .

— النفي يكثر الاصحاح والتقرير يتفصل عن قريبه أمثال ١٩ : ٤ .

على أن النظرة للمرأة تبدو قاسية بالنسبة لذات الخلق السىء .

— السكنى في أرض برية خير من امرأة مخاصمة حردة .

— المتراخى في عمله هو أخو المترف ١٨ : ٩ .

على أن الشريعة اليهودية لم تقتصر على ترك الزهد والتسامح فحسب ، بل لها
أخذت بهداً الشار المتشدد ، فالعين بالعين والسن بالسن ، وإذا كانت قد دعت إلى
حب الاصدقاء فقد دعت إلى بغض الأعداء على أن أكبر ما يستلتمت النظر هو
النعم على أن العمل السىء لا يقتصر أثره والجزاء عليه على فاعله فحسب بل أن
الجزاء يتعداه إلى ذريته كذلك .. ففي نصوص التوراة : حرمت عليكم الاضنام
والتمائيل وتصوير ما فى السماء أو فى الأرض أو فى قاع البحر . لا تعبوا شيئاً
منها ولا تقيموا الشعائر لها لأن الرب إلهكم الإله النوى الغيور الذى يتأمر من
الآباء العصاة ويأخذ بجريرتهم أبناءهم وأحفادهم إلى الجيل الثالث والرابع حيث

(١) مقارنة الإديان : اليهودية للدكتور أحمد شاي صفحة ٢٩٥ الناشر مكتبة
النهضة المصرية . الطبعة الرابعة .

أنهم أبغضوه بالمعصية . ويمنح الغفران لمن أحبوه وحافظوا على فروضه
وليسببهم يمنح هذا الغفران لابنائهم وأحفادهم بل إلى ألف جيل من ذريتهم (١) .

ويكفينا بعد ما أسلفناه أن نجعل النظرية الأخلاقية اليهودية فيما يلي :

أولاً : أصبحت الأخلاق ذات مصدر سماوى وأن الله تعالى هو الذى يقرر
ما يكون خيراً وما يعد شراً وبذلك أفسحت أفكار النظريات الأخلاقية الوضعية
المجال للمبادئ الدينية لتحل محلها .

ثانياً : كما أنه أصبح أمام البشر نظامان أخلاقيان : النظام اليهودى السماوى
والنظام الإغريقى اللاتينى الوضعى وقد نسب بينهما الخلاف فى أول الأمر ثم عمل
رجال الدين والمفكرون على المازج بينهما بعد ذلك .

ثالثاً : إسمت المبادئ الأخلاقية اليهودية بالعدل الشأرى (٢) وبتأكيد
شخصية التردد والحافطة على حقوقه .

رابعاً : تميزت القواعد الأخلاقية اليهودية بالتباين الكبير بالنسبة للنظريات
الأخلاقية اليونانية سواء فيما يتعلق بنظرية القيم الخلقية أو بالأهداف والوسائل
التي تؤدى إليها أو بأساليب السلوك عامة .

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة تأليف أندريه كرسون . المرجع السابق

صفحة ٩٣ .

(٢) ويقصد به العدل فى القصاص ، أى الثأر من الجانى بما يساوى جنايته .

المبحث الثاني

الأخلاق في الديانة المسيحية

مهدت الديانة اليهودية السبيل لظهور الأخلاق التي مبعثها وحى السماء ،
جاءت بعدها الديانة المسيحية بقواعد خلقية تتناسب والعصر الذي جاءت فيه .

وأهم ما تتميز به القواعد الخلقية في المسيحية أمران :

الأول : يتعلق بالقيم .

والثاني : يتعلق بالسلوك .

وسوف نشير فيما يلي إلى كل منها .

أولا : القيم في المسيحية :

لأول مرة يجد البشر قيما جديدة لا عهد لهم بها لا في فلسفة اليونان ولا في
شرعية اليهود ، جاءت بها المسيحية ، فإذا كان ما يهم الإنسان هو سعادته فإن
تلك السعادة ليست في هذا العالم . فليست الأرض إلا منقذ ، أما ملكة الله فليست
في عالمنا الأرضي بل هي في العالم الآخر . وهكذا جعلت المسيحية كل قيم الحياة
الدنيا لا تساوى شيئا بجانب القيم الخالدة في الحياة الخالدة . ولهذا فإن الإهتمام
بهذا العالم الآخر هو الذي ينبغى أن يستحوذ على كل رغبات الإنسان وآماله .
ويسيطر على سلوكه وأفعاله وأفكاره . ففي الإنجيل :

(١) لا تجمعوا الدفانس حيث السوس والصدأ يتلفان كل شيء ، وحيث
الصوص ينقبون ويسرقون ، لكن أجمعوا وأكثروا الدفانس في السماء حيث
السوس والصدأ لا يتلفان وحيث الصوص لا ينقبون ولا يسرقون ، وفيه أيضاً :

(٢) ليس بالخبز وخبذه يحيا الإنسان إنجيل متى ٤ : ٤

(٣) ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم كله وخسر نفسه إنجيل متى ٢٦ : ١٦

(٤) لا يقدر أحد أن يحترم سيدين لأنه إما أن يهتف الواحد ويحب الآخر أو يلزم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدروا أن تخدموا الله والمال .

(٥) لا تهتموا بحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس إنجيل متى ٢٥ : ٦

فالمسيحية تدعو إلى ترك متع الحياة الدنيا والزهد في نعيمها وعدم التعلق بالمال ، والمسيح عليه السلام ينصح أتباعه قائلا : أترك ما لك واتبعني . والمحبة قيمة منحوت عليها المسيحية . ففي الإنجيل وصية جديدة أنا أعطيك : أن تحبوا بعضكم بعضاً
إنجيل يوحنا : ١٣ : ٣٤ .

ثانيا : الوسائل الحقيقية (السلوك) :

دعا المسيح عليه الصلاة والسلام إلى تغيير شامل في النفس الإنسانية يؤثر على السلوك الفردي والاجتماعي ، ولاتباعه ، ويتجلى ذلك من نصائح الإنجيل ومنها :

(١) طوبى للساكنين بالروح لأن لهم ملكوت السموات إنجيل متى ٣ : ٥

(٢) طوبى للحوزان لأنهم يتعزون إنجيل متى ٥ : ٤

(٣) طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض إنجيل متى ٥ : ٥

(٤) طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون إنجيل متى ٥ : ٦

(٥) طوبى للرحماء لأنهم يرحمون متى ٥ : ٧

(٦) طوبى لأنقياء القلب لأنهم يرايون الله متى ٥ : ٨

على أن الفارق الجوهرى بين المسيحية واليهودية ينجلي فى مسألة الجـ زاء ،
فبينما أخذت اليهودية بقاعدة الجـ زاء ، فالعين بالعين والسن بالسن ، نجد المسيحية
تدعو إلى مقابلة الشر بالخير والرد على السوء بالحسنى :

١ — أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينكم ، احسنوا إلى بعضكم وصلوا لأجل
الذين يسيئون إليكم أو يطردونكم متى ٥ : ٤٤

٢ — لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً
متى ٥ : ٢٩

٣ — فإن جاع عدوك فاطعمه وإن عطش فأسقه لأنك إن فعلت هذا تجمع
جهر نار على رأسه رومية ١٢ : ٢٠ (١)

وهكذا نجد أن فى المسيحية من تعاليم الزهد ورياضة النفس ما يذكرنا
بمبادئ الفلسفة اليونانية واللاتينية فى مجال الاخلاق خاصة آراء سقراط
وأفلاطون والرواقين وشيشرون . وهو ما ظهر أثره فيما بعد من إمتزاج تلك
الفلسفة الاخلاقية بالديانة المسيحية . وقد ظهر هذا الإمتزاج منذ القرن الأول
الميلادى ووجد له تبرير أن الإيمان يحتاج إلى الفهم وإلى الأدلة العقلية ثم أن
الإيمان لا يناقض العقل وظهرت ثمار ذلك فى القرون الخمسة الأولى للمسيحية فى
الإنتاج اليونانى للقديس « كليمان » الاسكندرى والقديس « جريجوار دى نازينز »
والقديس « جريجوار دى نيس » وحيث ظهر الإنتاج اللاتينى « لجوستين »
و« نوبا » والقديس « امبرواز » والقديس « أوغسطين » .

ومنذ القرن الثالث عشر ، بعد فترة الركود العقلى الذى ساد القرون الوسطى .

أخذ الغربيون في دراسة الشروح العربية لفلسفة أرسطو وعلى الخصوص شروح ابن رشد وتكونت مدارس « البير الكبير » ، « القديس » « توماس الاكوينى » ودون سكوت وأخيرا مدرسة جيوم دو كام وقد أخذت تلك المدارس لا عن أرسطو فحسب بل وعن أفلاطون والراقين والأفلاطونية الحديثة ، وبمجهود « توماس الاكوينى » عند وجه الخصوص أمكن صهر كل تلك المذاهب والفلسفات الأخلاقية مع المبادئ المسيحية ، وصاغ المؤرخ المعاصر جيلسن ذلك المذهب وأبان أصالته (١) .

الجانب التطبيقى فى الاخلاق المسيحية :

أشرنا فيما سلف إلى الاخلاق النظرية كما جاءت بها تعاليم الديانة المسيحية وأغرب ما نلسه عند النظر فى الاخلاق العملية والسلوك الواقعى لمعتنقى هذه الديانة هو الجون الشامخ بين النظرية والتطبيق وبين المبادئ والواقع لافى عصرنا الحاضر فحسب بل وعبر عصور التاريخ أيضاً .

وأما بالنسبة لتاريخ الشعوب المسيحية فيكفى أن نذكر الحروب الصليبية التى شنوها على المسلمين فى الشرق وما جرى فيها من مذابح خاصة فى القدس وفى معرة النعمان حيث كانت خيولهم تجرى فى سبيل من الدماء بشوارع القدس وحيث ذبحوا النساء والشيوخ والأطفال وزاد ضحاياهم فيها على مائتى ألف مسلم شهيد . بل ولا ننسى مذابح المسلمين فى الاندلس بعد انتصار المسيحيين فيها وأيضاً ما فعله الإمبراطور المسيحي بشعوب البلاد الإسلامية من أندونيسيا وشرق آسيا شرقاً إلى الجزائر والمغرب غرباً ، ولقد قامت فى أوربا الجمعيات الثورية التى غايتها القضاء على من تراهم أعداء للمسيحية ووسيلتها الدماء والمقاصل

(١) المشكلة الأخلاقية والفلسفة : المرجع السابق صفحة ١٠٠ .

وكان أشهرها جمعية الصليب المقدس في تورينو بإيطاليا بل ولا ننسى ما ارتكبه المسيحيون الكاثوليك ضد المسيحيين البروتستانت خاصة مذبحة باريس في ٢٤ / ٨ / ١٥٧٢ التي دبرها لهم .. فأين هذا كله ، وما نراه الآن في الغرب المسيحي ، وما هو قائم في أمريكا بالنسبة للزواج والسود والملونين والهنود الحمر من مبادئ المسيحية .

ومن قول المسيح عليه السلام : أحبوا أعداءكم باركوا لاعينكم ، أحسنوا إلى مبغضيك ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم ، لقد أصبحت تلك النصائح وغيرها مجرد كلمات يرددونها القسوس في الكنائس دون أن تجد لها صدق في الواقع الخبيث . أين قول المسيح من نظر إلى امرأة وهو يشتهيها فقد زنا بها مما هو مشاهد الآن في الحياة الأوروبية المسيحية من العري وانطلاق الشهوات ؟ على أنه ليس ما يدخل في مجالنا الآن ونحن نتحدث عن الأخلاق أن نتتبع العوامل التي أدت إلى هذا الواقع ، ولا أن نبحث عن سبل تلافيها ، فذلك موضوع آخر ، ولكن ترك المسيحيين الغربيين لمبادئ المسيحية وقواعدها وأخلاقياتها إنما يدل على أنهم آثروا الحياة الدنيا ونعيمها على الآخرة وعلى أن تعاليم المسيحية لم تعد تلبى حاجاتهم الحاضرة ومعيشتهم المعاصرة فانصرفوا عنها .

الرهبة في المسيحية :

على أن ما يستلقت الإنتباه أنه في مقابل هذا الخروج عن تعاليم المسيحية والعمل بما يناقضها نجد ، ومنذ زمن بعيد إتجاهاً آخر مخالفاً لهذا الإتجاه ومُطرفاً في تطبيق تلك التعاليم والتشدد فيها ، ونعني به الإتجاه نحو الرهبة وإيثار حياة الأديرة ، ويقضيها تناول هذا الإتجاه أن نبين نشأته .

نشأة وتطور الرهبنة :

عانت المسيحية منذ بدء ظهورها من الإضطهاد ، وقد اتى المسيح عليه السلام من صنوف العداء والتنكر الكثير، خاصة عن اليهود الذين ساءوا أخواريه وأنصاره صنوف القسوة والتنكيل ، ولما انتشرت المسيحية استمر إضطهاد المؤمنين بها من جانب أباطرة الرومان الذين اعتبروهم إمتدادا لليهود محل بغضهم الشديد ، ولأن أولئك الأباطرة كانوا وثنيين يمتنون كل دين سواى ، وما زاد فى إضطهاد المسيحيين أنهم كلما أوذوا وحوربوا إزدادوا تمسكا بعقيدتهم وتعضباً لها وأعلنوا أن هدفهم هو القضاء التام على العقائد الوثنية وتحطيم الحضارة والثقافة الرومانيةتين لوفوفهما فى وجه رسالة السماء .

وقد كان أفنبلع أعمال التنكيل التى لقيها المسيحيون فى القرن الأول تلك التى قام بها د نيرون ، (٦٨ م) فقد كان يلقى بهم أحياء الوحوش الضارية تنهش أجسامهم وكان يأمر فتطلى أجسامهم بالآفار وتشعل فيها النار لتكون شعلات فى الإحتفالات التى كان يقيمها فى حدائق قصره .

• وفى القرن الثانى الميلادى أعلن أن المسيحيين أنبياس ليس لهم الحق فى إرتياد المحال العامة واستمر التنكيل بهم بجهنمهم يواجهون السباع والوحوش تطلق عليهم فى ملاعب روما ليتمشى برآهم آلاف المشاهدين الوثنيين .

وفى القرن الثالث الميلادى وفى عهد الإمبراطور دقلديانوس لقي المسيحيون من إضطهاده الكثير ، إذ أمر بهم الكنائس وأسقط حقوقهم المدنية باعتبارهم نيس ودنس ، كما قبض على الكهان ورجال الدين وملايهم السجون ، وقتل الآلاف ولذا أطلق على عهده « عصر الشهداء » (٢٨٤ م) .

ولم ينعم المسيحيون بالهدوء إلا فى القرن الرابع الميلادى عندما أصدر

الإمبراطور مراميم التسامح والعفو عن المسيحيين (٣١١ — ٣١٣ م) ثم اعتنق هو نفسه المسيحية بعد ذلك بعشر سنوات . ويمكن لنا أن نلاحظ ما يلي حول اضطهاد المسيحيين :

أولاً : أن تعاليم المسيحية بإهمال الجسد والتخلي عن المتع والرجبات وإذلال الفرد المسيحي نفسه في سبيل ملكوت الله ؛ كل ذلك كان من العوامل الهامة التي عاونت المضطهدين على تحمل آلام الاضطهاد وصنوف التعذيب والتعكيل القاسيين وكان المسيحيون يجدون القدرة والأمرة فيما يمثّلونه من تعذيب المسيح عليه السلام ويجدون الفزاء في إقتران الإيمان بالمسيحية بما تصوره من الصليب والصليب .

ثانياً : وعندما انتهى اضطهاد المسيحيين في مستهل القرن الرابع عشر الكثيرون من المسيحيين بالإنعاطف الشديد مع أولئك الذين ذاقوا يلات التعذيب في سبيل نشر المسيحية ، واعتقدوا أن المسيحي الحق هو من يبذل نفسه وينفذ متع جسمه في سبيل دينه ، خاصة وقد أصبح الصليب علامة على التعذيب والقتل وشعاراً للمسيحية ، فاشتاق الآلاف إلى أن يضطهروا بهم في الحياة بعد إذ فاتهم التضحية بالدماء ، وبدأت بذلك الرهبة في الظهور .

تطور الرهبة :

لم تكن الرهبة من تعاليم المسيحية الأولى إذن ، وإنما ظهرت في القرن الرابع الميلادي . ويمكن تعريف الرهبة بأنهم أترك إختيارى للمشاركة فى الحياة الاجتماعية والإقطاع للعبادة المسيحية والتضحية برغبات النفس وشهواتها تقريباً للمسيح وتشبهاً به وخدمة لعقيدته . ولم تقم الرهبة كما هى اليوم مرة واحدة وإنما مرت بمرحلتين متتابعتين :

ففى المرحلة الاولى : بدأت الرهينة بالحرب من الحياة الاجتماعية والبعد عن الناس وهجر العيش فى المدن والقرى المليئة بالدنس والآثام والشرو ورو الإلتجاء إلى الجبال والبرارى والصحارى للعيش فيها بحوار صخرة كبيرة أو فى كهف أعشاب وشجيرة أو داخل كهف أو مغارة ، على أن الجدير بالملاحظة هنا أن الخروج لم يكن جماعيا بل كان يتم بصورة فردية ، ويهدف به الفرد إلى تحقيق ثلاثة أهداف :

الاول : البعد عن بواعث الخطيئة وعوامل الوقوع فى الآثام وسط حياة الجماعة بتركها إلى الحياة الفردية الجماعية .

الثانى : حمل النفس على حياة التقشف والحرمان حيث الحياصة فى الجبال والبرارى بغير المتاع والآثاث وبأزهد الطعام واللباس .

الثالث : إتاحة الفرصة للنفس لكى تتفرغ للمحاسبة والتقصية ، والتأمل فى رحلة الحياة وفى ملكوت الله بعيداً عن شواغل النفس ، حيث لا أسيرة ولا زواج ولا إنشغال بأقارب أو أصدقاء .

وبمرور الزمن كثر عدد المترهبين وشعروا أن حياتهم فى جماعات صغيرة أفضل لهم وبذلك إنتقلوا بالرهينة إلى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية : شعر المترهبون (١) أن حياة الوحدة القائمة فى القفار والجبال تؤدي إلى مخاطر عديدة ، منها عدوان اللصوص والمجرمين والوحش فضاء عن صعوبة الحصول على القوت والماء فى أغلب الأحيان ، ولذلك فقد اتجهوا إلى أن

(١) الراهب : المقطع للعبادة ومصدره الرهبة والرهبانة . والذهب التعبد مختار الصحاح صفحة : ٢٥٩ (رهب) .

عيني كل راهب لنفسه صومعة ولا بأس أن يعيشوا في صوامع متجاورة ، ثم انتهى الأمر إلى إحاطة عدد من تلك الصوامع بأسوار عالية ، وبذلك نشأ نظام الدير (١) وأصبحت تلك الأديرة تحمل أسماء القديسين والشهداء أو حواري المسيح تخليداً لذكراهم وأصبح لها بمرور الزمن نظام داخلي تسير عايمه ولا زال نظام الرهبنة قائماً حتى وقتنا الحاضر ومن أهم أسسه عدم الزواج والتبطل .

غير أن البعض لا يميل إلى جعل نظام الرهبنة نظاماً مسيحياً صرفاً ، فعلى الرغم من أن المسيح عليه السلام قال : إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط النقرام فيكون لك كنز في السماء وتعالى اتبعني ، ومع أن المسيح نفسه كان يصعد إلى الجبل حين كان يريد أن يصلى أو يعظم يدياً وكذلك يوحنا المعمدان كان يعيش في البرية ، نقول على رغم ذلك كله فإن البعض يرى -- في مجال مقارنة الأديان -- أن المسيحيين قد اتبعوا المنهاج والسلوك الهندى درين تهريف ، فإن التردد والتبطل وتمذيب الجسم هى سياسة الهندوسية والبرذية (٢) ، وإن كان يبدو لى أن هذا الرأى لا يزال يفتقر إلى الأدلة التى تؤيده ، هذا ويذهب بعض الباحثين إلى أن نظام الرهبان نشأ فى مصر أولاً ثم انتقل منها إلى إيطاليا وفرنسا وغيرهما من الدول .

تقييم الأخلاق فى المسيحية :

نلاحظ على نظرية الأخلاق فى المسيحية ما يلى :

-
- (١) مقارنة الأديان المسيحية : للدكتور أحمد شلبى الطابعة الرابعة عام ١٩٧٢
مكتبة النهضة المصرية . صفحة ٢٠٩ .
- (٢) مقارنة الأديان المسيحية . للدكتور أحمد شلبى المرجع السابق ص ٢٠٩

أولاً : أن الفكرة الأولى فيها تقوم على إنكار حقوق الفرد في الحياة الطبيعية وفي تلبية حاجاته الضرورية ونزعاته النفسية النظرية وفلسفة الأخلاق في المسيحية تقوم إذن على قاعدة الكبت كبت الرغبة في الانتقام من المعتدى (من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً . متى : ٥ : ٣٩) وكبت مشاعر الإنسان الطبيعية في أن يبغض الإنسان من يبتغضه ، ولا شك أنه من العسير على الإنسان العادى أن يحب جميع الناس ومن بينهم أعداؤه .

ثانياً : لم تستطع المسيحية أن تحافظ على نقاء المصادر الأخلاقية فيها طويلاً ، إذ ما لبثت أن دخلتها أفكار وضعية عديدة لفلسفة ومفكرين كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

ثالثاً : تركز إهتمام الأخلاق في المسيحية بالفرد ، وبالأخلاق الفردية خاصة وقد أكد هذا الإتجاه أن المسيح عليه والسلام قد أكد أن المسيحية لا شأن لها بإصلاح المجتمعات ، ولا بمسائل الحكم : « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، ولذلك نجد جانب الأخلاق الاجتماعية خافتاً ضعيفاً في التعاليم المسيحية .

رابعاً : وقد كان نتيجة للنحى الفردى في الأخلاق المسيحية وترك إصلاح الجماعة ، ولعسر المنهج الأخلاقى المسيحى وتشدده ، أنراً ملموساً في إنقسام المجتمع المسيحى إلى قسمين متناقضين تماماً : القسم الأول يمثل الأقلية المتشددة من الرهبان ورجال الكنيسة والقسم الثانى يمثل أغلبية المجتمع ، لم يستطيعوا إلا نصياح لأخلاقيات المسيحية وتعاليم الكنيسة فهاشوا على أسس جديدة من التشريعات والأخلاق الوضعية ، أو القضايتين الأساسيتين : أى قضية تحديد الخير الأعظم وقضية تحديد الواجب أى السلوك الذى يوصل إليه .

والجدید. بالملاحظة أن الفكر الغربي في مجال الأخلاق قد ترسم هذا الطريق نفسه والذي سلكته الفلسفة اليونانية وظلت آراء الفلاسفة والأخلاقين متأثرة به هناك حتى بعد ظهور الديانة اليهودية ثم المسيحية ثم إنتشارهما ولهذا فسوف نقسم هذا الفصل إلى مطلبين نتناول في الأول منها النظريات الأخلاقية في الفلسفة اليونانية ونتناول في المطلب الثاني نظرية الأخلاق في الديانتين اليهودية والمسيحية .

المبحث الثالث

النظريات الاخلاقية

في الفكر اليوناني القديم

لا يتسع المجال لعرض ما حمله النظريات الفلسفية اليونانية في الاخلاق ،
ولذا فسوف نقصر الكلام على مدارس خمسة تمثل جل اتجاهات الفكر اليوناني
القديم في هذا المجال ، وهي مدارس تضم آراء متميزة ومذاهب تقرب حيناً
وتبتعد عن بعضها حيناً آخر ، وسنذكر منها مدارس سقراط وأفلاطون
وأرسطو ثم مدرستي الالبية-وريين والرواقين جااعين اكل منها
فروعاً مستقلة .

الفرع الأول

الفكر الأخلاقى عند سقراط

يعد سقراط مؤسس الفلسفة الأخلاقية فى العالم الغربى وتمثل أفكاره فى اعتماد الفضائل الخلقية على أربع قواعد أساسية هى :

١ - معرفة النفس ٢ - العلم ٣ - القناعة ٤ - العمل .

١ - فأما معرفة النفس فقد اعتبرها سقراط ركيزة النجاح فى الحياة . وتحقق بتمثل الإنسان للقاعدة المكتوبة على معبد دلفى ، والى تقول : « أعرف نفسك بنفسك » ، فحتى عرف الإنسان نفسه عرف ما يصلح له وما لا يصلح وقصر أقدامه على ما يعلم ونأى عما لا تقدر نفسه على بلوغه فبأى بها عن الزلل والخطأ ويتجنب بذلك الشقاء ويمكنه الوصول إلى حسن تقدير الأمور وفهم الأشخاص . وإذا كان هدف الإنسان هو السعادة فلو تأمل الإنسان لتحقيق من أن السعادة ليست شيئاً مادياً ، بل هى شىء معنوى أو حالة نفسية أخلاقية تتمثل فى قدرة الإنسان على الترفيق بين ما يرغب فيه وبين ما يملكه بالفعل ، وناس من هذا كيف يحبذ سقراط القناعة فهو يقول :

ما هى السعادة ؟ إنها ليست الجمال ولا القوة ولا الثراء ولا المجد ولا شيئاً مماثل ذلك ، فكم من مرة كان الجمال فيها ضحية لغاؤ متهمك وكم من مرة غرت القوة أشخاصاً فتهمروا فى مشاريع لا طاقة لهم بها ، فناء كاهلهم بالشقاء . وكم من أشخاص بعث فيهم الثراء نرجاً من الرخاوة طغت مضاره على ما كانوا يأملونه من نعيم ! وكم من أشخاص كان إسمهم ملء السمع والبصر فكان يحدهم وثقة الناس فيهم عاملين فى ضياعهم ونبتد تفصيل آراء سقراط تلك فى محاوراته

وهو يرد على « أتقيفون » بأنه لا يرى السعادة في الرفاهية والآلهة كما يراها أتقيفون ، وإنما يراها في الزهد ويقول إذا كان من صفات الإله أنه لا يحتاج إلى شيء ، فإن ما يقرب من الألوهية أن لا يحتاج الإنسان إلا إلى القليل ، وبما أنه لا أكل من الله فإن القرب منه قرب من السكال . فليست الثروة إذن وليست السعادة إلا الانسجام بين رغبات الإنسان وظروفه وكلما قلت الرغبات كثر إمكان الوصول إليها ، ليس موطن الثراء والفقر كما يقول « أتسميتين » في بيوتنا وإنما في نفوسنا وليست السعادة في مجرد إكتناز الذهب والفضة لذاتها وإنما في سلوكنا الحكيم تجاه حاجتنا ورغباتنا . على أن فلسفة سقراط الأخلاقية قد تضمنت عبارتين يبدو معناهما غامضاً وهما قوله :

١ — لا يعمل الإنسان الشر باختياره .

٢ — والفضيلة ثمرة العلم .

ولكن موازنتهما يباقي أقواله يزيل عنهما الغموض ، فهو إذا كان يقول أن السلوك الخير يتمثل في سير الإنسان في السبل المؤدية إلى السعادة بعد معرفة طبيعتها معرفة واضحة ، أما الشر فهو الخيدة عن ذلك ، فإذا نظرنا على ضوء ذلك إلى قوله : لا يعمل الإنسان الشر باختياره فإن معناها يكون : لا ينصرف الإنسان عن سعادته باختياره لأن العاقل لا يختار طريق الجحيم على طريق السعادة إلا جاهلاً أو متخدعاً .. كذلك يفهم الإنسان كيف تكون الفضيلة ثمرة العلم ؛ فإن من يجهل طبيعة السعادة الحقيقية ويجمل السبل والطرق الموصلة إليها لا يمكنه إلا أن يخطئ ما يبحث عنه ، ولكنه إذا عرف السعادة وعلم السبل الموصلة إليها فكيف يتصور انصرافه عن الخير الذي يتطلع إليه .

وهذا هو نفسه ما ينقله «أكر ونوفون»، من كلام سقراط : « أن من يميز ، من بين كل الأعمال الممكنة ، العمل الذي يتلاءم مع مصلحته ، فإنه لا يتردد في الاختيار ، وحينما يعمل الإنسان الشر فإنه يكون جاهلاً بمقدار ما هو آثم » .

الفرع الثاني

أفلاطون

رغم إعجاب أفلاطون بأستاذه سقراط فإنه لم يؤيده في كل آرائه ، بل خالفه في عدد من المسائل ومن تلك المسائل التي خالفه فيها مسألة الصلة بين الفضيلة والعلم فقد أنكرها أفلاطون في كتابه « مينون » ورأى أن العلم ينتقل من عقل إلى عقل عن طريق البراهين والأدلة وليست الفضيلة كذلك ، فإن أفاضل أثينا لم يمكنهم ، لجرد الدروس التعليمية أن يصيروا أبناءهم فضلاء مثلهم ، فليس العلم إذن — في رأى أفلاطون — هو الذى يصير الرجل فاضلا ، وإنما الفضيلة ترجع إلى إلهام وبصيرة يشوبها قيس من التحمس الدينى . ثم أن أفلاطون قد جعل للدين مكانة بالنسبة للأخلاق تربو على ما فعل سقراط ، وهو يتكلم عن مصير الأرواح بعد الموت وعن الحساب الذى ينتظرها والثواب والعقاب ويؤكد أننا سنعود بعد الموت لحياة أخرى جديدة فى أجساد لا يقضيها البلى . بيد أنه يتفق مع أستاذه فى جوانب من فلسفته الأخلاقية ، كما يظهر فى كتابه « فيليب » . أبرز كتبه فيها ، فيحول معنى الخير المطلق كما حدده سقراط فى السعادة ولكنه يقتضى إلى أنه ليس الخير وليست السعادة فى اللذة وحدها أو فى العلم وحده ، وينبغى ألا نبحث عن السعادة فى عنصر واحد نعتقد أنه هو المكون لها ، وإنما يجب البحث عنها فى إئتلاف عنصرى العلم واللذة ، ثم هو يدعو إلى التخيير بين العلوم وإنما الحكمة من بينها هى التى توصل للسعادة أما اللذة فيقول عنها : أن بعض اللذات ليس لها من اللذة إلا الاسم ، وما هى إلا فترات تنفصل بين الملمين ، كلذة الأجرى حين تحك جسده ، أو الرجل الذى يأكل أو يشرب حين يح

أو يعطش ، فمثل تلك الذات لا تعدو أن تكون بهيمية كسدرة مثقلة بالآلام والإضطراب .

ثم يقول : أن هناك لذات صافية قيمة ليست إفافة بين ألمين ، لم تسبقها أية رغبة ، فليست السهوة مصدرها وأنه من أدرك العلم يجب أن يكون مصدراً أساسياً لسعادته فعليه أن يتجنب إتباع الشهوات البهيمية الوضعيه التي تؤدي إلى الخلل في النشاط العقلي ولا شك أن العلم والحكمة لا ينسجمان مع الشهوات التي تترك الأرواح مضطربة .

وهكذا يذهب أفلاطون إلى أن الخير المطلق إن هو إلا تنسيق وانسجام بين العناصر التي يتكون منها أما العلاقة بين تلك العناصر فهي علاقة تتصل بناحية الجمال .

ونجد نموذجا آخر لفلسفة أفلاطون الاخلاقيه يتمثل في كتابه الجمهوريه وفيه يرى — لتنظيم علاقة الفرد بالمجتمع — تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات :

١ — الطبقة الحاكمة وهي تمثل العقل ويسمىها الطبقة الذهبية .

٢ — الطبقة التي تحمي المجتمع ، أي الجيش وهم أصحاب العواطف الكريمة ويسمىهم الطبقة الفضية .

٣ — الطبقة التي تقوم بالإنتاج وتشمل الزراعة والصناع والتجار ويعطون عليها أفلاطون الطبقة النحاسية .

وقد رسم قواعده التربيه والاخلاق والنظام السياسى فى مؤلفه ذاك على هذين

الأساس ليحقق المدينة الفاضلة في تصوره ؛

على أنه بما لا شك فيه ، أنه مثل أستاذه سقراط لم يجعل الإعتبارات الدينية
عقلاً في حسن السلوك وإنما المعول عليه عندهما هو الحرص على تحقيق
السعادة . (١)

(١) المشكلة الاخلاقية والفلاسفة تأليف أندريه لرسون وترجمة الدكتور
عبد الحليم محمود والاستاذ أبو بكر ذكرى . دار الكتب الحديثة . الطبعة الثانية
صفحة ٤٩ .

الفرع الثالث

أرسطو

على قدر ما قارب أفلاطون أستاذه سقراط في فلسفته الأخلاقية على قدر ما تبعه أرسطو عن الإثنين معاً : فإذا كان سقراط قد جعل السعادة أمراً نفسياً داخلياً يدور مع الفضيلة وحدها وجوداً وعدماً فإن أرسطو قد دعم السعادة بالذات المشروعة والخطوط الدنيوية المادية ، فبرهن أرسطو على أنه عمل ذو فلسفة واقعية تخالف فلسفة أفلاطون المثالية . بيد أنه لا ينكر قيمة العلم وأثره في تحقيق الخير والسعادة ، ويقول أن حياة الإنسان المتعلم أرقى من حياة غيره وهو يقضى وقته بطريقة أجمل ، ما يقضيه بها هؤلاء الذين يسعدون في الحياة جاهلين .. ورأى أرسطو أن ثمة فضائل جوهرية وهى التى لا تتحول بالإفراط فيها أو الإسراف إلى رذائل : ويعنى بها الذكاء وهو عادة الإدراك الدقيق للقواعد العلمية وكذلك التبصر وهو عادة التقدير الصحيح لكل شيء وأخيراً الحكمة والمهارة وهما فى العاوم أرقى درجات الكمال . والفضائل الأخلاقية لا تسمى عنده فضائل أخلاقية إلا إذا كانت عادات مستمرة على أن أبرز ما يميز فلسفته الأخلاقية هو فكرته عن الوسط العدل ، فجميع الفضائل الأخلاقية لا تعدو أن تكون أوساط الأمور .

ففى كل أفعال الإنسان جانبان ينبئى الإبتعاد عنها وهما الإفراط والتفريط ، أما الفضيلة فهى الوسط بينهما .

وقد عدد أرسطو نواحي الإفراط والتفريط التى تؤدى إلى الرذائل فى عدد من الصفات الخلقية ووضع معها الوسط العدل الذى يتعين على الحكيم إتباعه .

فمن رذائل الإفراط :

- | | |
|-------------|--------------------|
| (١) التهور | (٢) الشهوانية |
| (٣) الغرور | (٤) الإدعاء الكاذب |
| (٥) الشراسة | (٦) المجاهمة |

ومن رذائل التفريط فيما :

- | | |
|-----------|---------------|
| (١) الجبن | (٢) البلاهة |
| (٣) الخسة | (٤) ضعة النفس |
| (٥) الضعف | (٦) الملق |

أما الفضائل التي يشملها الاعتدال بالحد الوسط لرذائل الإفراط والتفريط السابقة فهي :

- | | |
|-------------|--------------|
| (١) الشجاعة | (٢) الاعتدال |
| (٣) العزة | (٤) السراوة |
| (٥) الحلم | (٦) المجاملة |

وينتهى أرسطو إلى القول بأن أنواع الخير ثلاثة :

أ — خير خاص بالنفوس وهو أساسى وجوهى وما عداه تابع له .

ب — خير خاص بالأجسام ولا يرى أرسطو إهمالها بل يجتهد الحرص على الصحة وتوفير المال والحاجات الضرورية .

ج — وخير خارجى وعييه أنه لا يمكن التعويل عليه فى تحقيق السعادة لأن الإنسان لا يملكه ولا يسبطر عليه كالشجرة مثلا (١) .

(١) المشكلة الاخلاقية والفلاسفة . المرجع السابق صفحة ٥٩ .

الفرع الرابع البيقوريون والاخلق

تزعّم أبيقور (٣٤٠ ق.م) مذهباً غير أخلاقى فى الفلسفة الاخلاقية ، جعل منه الحد الاكبر لكثير من الملحدين والوادقة الذين أتوا بعد ذلك ، فهو يرى أن شقاء الإنسان نابع من مسألتين تنخصان حياته وهما : الإيمان بأن الآلهة يهتمون بأمر بنى البشر ثم الفرع من الموت الذى يهددنا فى كل لحظة ، ولهذا فهو قد نادى بتحرر النفوس من هاتين الفكرتين المؤرقتين ، ورأى أن الآلهة لا يهتمهم أمور البشر وعقاب الخطيئة وإثابة المحسن وأن الحياة تسيّر وفق قوانين طبيعية ولكن الله تعالى قد أعماه فلم يسأل نفسه ومن الذى خلق تلك الطبيعة وخلق قوانينها ؟ أما الموت فقد دعا إلى عدم الفرع منه ، لأنه ينكر كل حياة بعده ، بل تنفى ذرات الروح كما تنفى ذرات الجسد ، وما دام الأمر كذلك فى رأيه فإن الخير المطلق عنده هو اللذة والشر المحض هو الألم ، وما دام الإنسان فى رأيه قد تخلص من الألم بقتل الضمير الذى يذكره بالله تعالى وببسيان الموت الذى لا شىء وراءه — فإن السعادة تكون بالحصول على اللذات ويكون الاخلاقى هو الذى يعلم البشر فن الحصول على اللذة وتجنب الألم .

ولتجنب الألم قسم رغبات الإنسان إلى ثلاثة أنواع هى :

- ١ — الرغبات الطبيعية الضرورية ، وهى ذلك النوع من الرغبات الذى لا مناص من تحقيقه وإلا عرّض المرء نفسه للإهلاك ومثلها رغبات النوم والشرب والأكل .

٢ — الرغبات الطبيعية التي ليست بضرورية : وهي التي يكون مبعثها
مغواث وغرائز قوية في النفس مثل الرغبة الجنسية والرغبة في الجمع وهي ليست
بالأزمة لضمان حياة الإنسان كالرغبات الطبيعية .

٣ — الرغبات التي ليست طبيعية ولا ضرورية ، وهي التي تتولد في
الإنسان بتأثير البيئة الاجتماعية مثل الرغبة في الحصول على إعجاب الآخرين ومثل
الرغبة في الطمع والشهرة أو البخل والامتياز المال .

وقد جعل أبيقور إرضاء الرغبات الطبيعية واجب أما الرغبات الطبيعية التي
ليست بضرورية فهذه لا تتركها تماماً وليس هناك ما يمنع الحكيم من إشباعها وإن
توكلها أولى .

أما النوع الأخير من الرغبات التي ليست بطبيعية وليست بضرورية فإن
من الجنون إرادة إرضائها فإنها كثيرة لا تحصى وتتطلب من المتاعب والشقاء
لا يكاد ينتهي . وهو بذلك يقترب من سقراط في فلسفة القناعة ويتمثل
بقوله لأنثيون : إن القناعة تسعد القانع ، وهو مثله كذلك في بناءه الفضائل
على التبعسر الذي يؤدي إلى الإعتساف والفساد من الألم وتحقيق الحياة
الساكنة (١) .

مم لا ينبغي أن ننسى أن مذهب أبيقور في الأخلاق كما أشرنا إليه يتفق في
الحقيقة مع منهج فلسفته المادية ، ذلك أن أبيقور افتنق أثر ديمقريطس واضع
الفلسفة المادية التي تنكر الروح وتعتبر النفس والفكر والعقل والشعور أعراضاً
للمادة .

(١) المشكلة الأخلاقية والفلسفة تأليف أندريه كرسون وترجمة الدكتور
عبد الحليم محمود والأستاذ أبو بكر ذكرى صفحة ٦٧ .

ورغم مادية الابقوريين ورغم أن فاسفتهم الالخالقية قائمة على تحقيق اللذة للإنسان فإنه من الجدير بالذكر هنا أنهم كانوا يرون أنه طالما أن بعض اللذات يعقب ألماً فإنه لا بد من تنظيم رغبات الإنسان في اللذة بحزم ، ومن ذلك تمتج جميع الفضائل فإن صحة البدن واطمئنان العقل هما أعظم سعادة في الحياة (١) .

(١) مبادئ الفلسفة تأليف أ.م. رابورت وترجمة أحمد أمين الطبعة الخامسة ١٩٤٩ صفحة ٧٥ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

الفرع الخامس

الرواقيون والأخلاق

مؤسس مذهب الرواقيين هو الفيلسوف اليوناني « زينون » (٣٤٢ - ٢٧٠ ق. م) ، وكان يعلم أصحابه في رواق مزخرف في أثينا فسموا بالرواقيين ، وتقوم آراهم الأخلاقية على النهج الذي سلكه سقراط في التعويل على العقل وإعتباره أساس الفضيلة ، طالما أنه يسيطر على شهوات النفس ، ويتوافق مع الطبيعة ، غير أن أهم ناحية تميز الفلسفة الأخلاقية للرواقيين هي إيمانهم بالروح بجانب المادة ، وليست الروح في حشد الإنسان فحسب ، بل في العالم كله . بحيث تبحث الحياة والحركة في كل الأجرام والأشياء ، وهذه الناحية بالذات تميزهم تماماً عن الفلسفة الانيقورية وتجعلهم معهم على طرفي نقيض ، على أن ذلك الإيمان بالروح عند الرواقيين لا يعني أن نظرية الأخلاق عندهم تقوم على أساس ديني ، بل يعني أنهم من أصحاب المذهب الاثنيني لا الواحدى (١) . ويذهب زينون إلى أن الفضيلة فيها الغناء عن كل شيء ، وأن الحكيم يقضى حياته في وفاق مع الطبيعة مستقلاً حراً ، بين جنبتيه نفس يعتز بها وإن التحف ببرد فقير ، وقد هداه عقله إلى أنه ليس بوسعه أن يبدل الطبيعة أو أن يغير فيها ، فأثر التراقي معهم والسير وفقاً لها ولم يبدد طاقته وقوته في محاربة الطبيعة كما يفعل الحمقى والرواق مسالم مستسلم لا يهيجسه شيء ولذلك شاع في الغرب إطلاق اصطلاح « رواقى » على كل إنسان اعتاد أن يقابل كل الأشياء بهدوء وطمأنينة رغم ما يحيط

(١) نسبة إلى الاثنين : ذلك أن الفلسفة المادية تعتبر أصل الأشياء هو المادة ، بينما عند الرواقيين أصلها اثنان : المادة والروح ويمكن أن يكون الواحديون من أصحاب فكرة أن أصل الأشياء الروح فحسب .

فيه من خطر وألم لأنه يعتقد أن كل شيء قدرته الطبيعية فهو خير له (١) لأن
الطبيعة تتجه نحو السعادة والسعادة عند الروافيين هي الـ Ataraxie وهذه الكلمة
تعنى حرفياً : «عدم وجود الاضطراب» وتعنى السلام الداخلى والطمأنينة كما تعنى
الإتزان الاخلاقى لنفس قد رضيت عن ذاتها ورضيت عن الاشياء ورضيت
بالحياة، إنها هدوء القلب، وهذا ما يسميه «ديكارث» الرضى ويسميه «سبينوزا»
«الغبطة ..» ولكن كيف يمكن الحصول على تلك الحالة أو هذا المستوى النفسى ؟
رأى الروافيون أن مبعث الاضطراب عند الإنسان يرجع إلى أمرين :

الاول : هو شعوره بنقص ما فيما يعتبره شرفاً ونبلاً بالنسبة إليه ؛ أو مسألة
حيوية تم ذاتها ؛

والثانى : تعلق النفس برغبات لا سبيل إلى تحقيقها والجبرى وراه ما لا
يحدوى من السعى لبلوغه . وفن السعادة عند الروافيين يقوم على التخلص من
هذين العاملين السابقين الذكر فيزول الاضطراب ويحل بالنفس الوثام .

وبالنسبة للأمر الاول ، فالروافيون ينصحون بأن يسعى الإنسان إلى إزالة
النقص الذى تشعر به نفسك طالما أن فى وسعك ذلك ، ولا تجعل أى شيء يحول
بينك وبين عمل ما تراه لازماً لشرفك ضروريا لذاتك وكرامتك ، وكمثال لذلك
أبحث لمعرفة ما يجب عليك عمله بالنسبة للعلاقات الطبيعية التى بينك وبين الآخرين .
هذا الشخص مثلاً هو والدك ، يجب عليك إذن رعايته ، والخضوع له فى كل أمر ،
واحتمال ما يتالك منه من شتم ولطم ، إنه أب سىء الخلق ليس لك أن تهتم بمعرفة
ها إذا كانت الطبيعة قد منحتك أباً طيباً ، لأن هذا تدخل منك فيما لا يتعلق بك

(١) مبادئ الفلسفة أ. س. رابوبورت - المرجع السابق - ص ٧٤ .

لأنه قدرك ، أما ما يتعلق بك فهو ما ينسجم مع الشرف وهو أن ترعى نحوه .
واجب الاخوة كیفما كان سلوكه معك . مثال آخر : أخوك غير عادل نحوه ،
لبحث عن علاقتك الطبيعية به ، لا تفكر فيما يفعله بك ، إنما فكر فيما يجب عليك
نحوه لتكون في علاقتك به منسجماً مع نواميل الطبيعة وعن هذا الطريق تعرف
في وضوح ما ينبغي عليك إذا كان لك جار ، أو زميل في العمل أو رفيق في
السفر ، أو إذا كنت مواطناً أو مسؤولاً أو قائداً ، وبذلك يزول السبب الأول
في اضطراب النفس وفي جعلها بمنأى عن السعادة .

ومعنى تلك الفلسفة الأخلاقية للرواقيين أن يقوم المرء بالواجب المفروض
عليه من ناحية وأن يكف في نفس الوقت عن التعلق بما لا طاقة له أزاءه من
ناحية أخرى هذا ويرى الرواقيون أن العواطف لا تخرج عن كونها أحكاماً
وهي أربعة : الحب والكراهية والامل والخوف ، وكلها ترجع إلى آراء
أو أحكام : أليس حب شيء ما يعنى الحكم بأنه حسن وأنه يجب أن يطلب ؟
أليس كره شيء ما ، معناه الحكم على هذا الشيء بأنه سيء وأنه يجب أن يتحاشى
ويترك ؟ أليس الامل في شيء معناه الحكم بأن ما نعتبره قيماً قد يكون له عظم من
التحقق ، وأن ما نعتبره سيئاً قد يكون من الممكن تحاشيه . فليست العواطف
إذن — في رأيهم — إلا أحكاماً .. ثم هم يرون أن كل إنسان حر في أحكامه ..
والمهم أن النتيجة لذلك هي أن اضطراب النفس ليس مبعثه الأشياء أو الأحداث
ولمما يرجع إلى الآراء التي يكونها كل منا عنها . وينصح الرواقيون بأن لا يحاول
المرء أن يجعل الأمور تسير منسجمة مع رغباته وإنما عليه أن يحاول أن يرضى
بما يقنع ، فإن فعل نعم بالسلام الداخلي ، فعل المرء أن يقنع وعليه أن يزهد .

ولاشك أن في فلسفة الرواقيين ، معان أخلاقية نافعة ، وإن أكثر النقد يوجه
نحو رأيهم في العواطف واعتبارها مجرد أحكام ، وقد ظل آراءهم تأثيرها في

أوروبا ، حتى العصر الحديث ، خاصة لدى قثيني وديكارت وفاترلينك وغيرهم (١) وبقى الآن أن نعقب على الفلسفة الأخلاقية القديمة لدى اليونان ، وأول ما نلاحظه أن المبادئ الأخلاقية التي حملتها فلسفتهم لم تستند إلى دين سماوي ورغم ذلك نجد البعض منهم قد دعوا الناس إلى التمسك بالقيم الخلقية وإلى الزهد والقناعة وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الأديان السماوية تتفق مع الفطرة الإنسانية فقد اهتدى الفلاسفة بفطرتهم إلى العديد من المبادئ التي جاءت بها أديان السماء ، وأكبرهم وقهوا فيه هو اعتبارهم أن الغاية من الحياة هي تحقيق اللذة للإنسان ،

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة : أندريه كرسون . المرجع السابق ص ٥٧

المبحث الرابع دراسة مقارنة

حول بعض القيم الأخلاقية

المطاب الأول

الفضيلة

تقديمها ١ :

الفضل والفضيلة ضد النقص والنقيصة والإفضال بالإحسان^(١) ويقال رجل مفضل وامرأة مفضالة على قومها إذا كانت ذات فضل سمحة وفاضلة مفضلة أى عليه بالفضل^(٢) فالفضيلة إذن مشتقة من الفضل وهو الزيادة ، والبحث فيها قديم منذ عهد فلاسفة اليونان ، ففى عندهم مشتقة من الأحسن ، وفى اللاتينية تشتق من الرجولة والشجاعة ، كما تدل فى الإنجليزية على القوة ، ويعرف معجم لالاند الفضيلة بأنها الإستعداد الراسخ لإرادة الخير أو عادة فعل الخير^(٣) .

ومن العلماء من يعرف الفضيلة بأنها الخلق الطيب الذى يعتاده إرادة الإنسان فالإنسان الفاضل هو ذو الخلق الطيب الذى يعتاد أن يختار وأن يعمل وفق ما تأمر به الأخلاق ، وبذلك يكون الفرق بين الفضيلة والواجب واضحاً: فالفضيلة

-
- (١) مكارم الأخلاق للإمام الطبرانى تحقيق الدكتور فاروق حماده ص ٥٦٤ :
٣٣٦ طبعة دار الرشاد الحديثة . الدار البيضاء .
(٢) مختار الصحاح للرازى ص ٥٠٦ ،
(٣) الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوى . المرجع السابق ص ١٤٢

صفة نفسية والواجب عمل خارجي وعلى هذا يقال : فلان أدى الواجب ولا يقال أدى الفضيلة بل يقال حاز الفضيلة أو إتصف بها .. وقد تطلق الفضيلة على العمل ذاته فيقال : أعمال فاضلة أو فضائل الأعمال (١). وبعد أن أوردنا تعريف الفضيلة نتناول فيما يلي بيان أنواع الفضائل ثم نبين هل الفضيلة خلقية أو مكتسبة.

أنواع الفضائل :

(١) رأى أرسطو أنه يوجد لدى بعض الأفراد ما سماه : الفضائل الجوهرية وهي تلك التي لا تتحول بالإفراط فيها أو الإسراف إلى رذائل مثل الذكاء وهو عادة الإدراك الدقيق للقواعد العلمية وهو الخبرة الجيدة باستنباط النتائج التي تقرتب على أي قاعدة منها ومنها : التبصر ، وهو عادة التقدير الصحيح لكل شيء وأخيرا الحكمة والمهارة وهما في العلوم أرقى درجات الكمال .

وتلك كلها فضائل عقلية أو نظرية ولكن أرسطو يذكر معها نوعا آخر من الفضائل هي الفضائل العملية التي تنشأ عن ضبط السلوك حسب العقل ، ويسميتها كذلك الفضائل الأخلاقية وهي لا تسمى كذلك إلا إذا كانت عادات مستمرة . والفرق بين نوعي الفضائل عند أرسطو - أي بين العقلية والعملية - هو أن الأخيرة لا تعدو أن تكون أوساط الأمور (٢) كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، ونرى ابن مسكويه متأثرا برأى أرسطو في كتابه عن الأخلاق إذ يعدد الفضائل على أنها تمثل الوسط العدل بين طرفين أو حدين كلاهما بعيد عن الفضيلة فالسخاء وسط بين التبذير والبخل والشجاعة وسط عدل بين التهور والجبن ، ويلاحظ أن الوسط

(١) الأخلاق لاحمد أمين . المرجع السابق صفحة ١٦١ .

(٢) المشكلة الأخلاقية والفلسفة لادريه سكسون - المرجع السابق -

العدل ليس وسطاً حساسياً إذ أن معنى إعتباره وسطاً عدلاً أنه الوسط الملائم ، ولا شك أنه أقرب إلى أحد الطرفين دائماً من الآخر ، فالسخاء أقرب إلى التبذير منه إلى البخل والشجاعة أقرب إلى التهور منها إلى الجبن وهكذا ولكن هناك فضائل عديدة لا يظهر فيها أنها أواسط بين رذائل - مثل الصدق والعدل - فليس هناك إلا كذب أو صدق وليس هناك إلا عدل أو ظلم أما قول ابن مسكويه أن العدل وسط بين الظلم والانظلام فهو لعب بالألفاظ دعاه إليه تصحيح كلام أرسطو فليس الانظلام إلا أثر للظلم .

(٢) وتقسيم الغربيين للفضائل نجعلها ثلاثة أصناف :

أ — الفضائل اللاهوتية وموضوعها : الله تعالى ، وهي الإيمان والرجاء والمحبة .

ب — الفضائل العقلية وموضوعها أمور تتعلق بالملكات العقلية في الإنسان مثل التمييز والحكمة .

ج — الفضائل الأخلاقية وعلى رأسها الفضائل الأساسية الأربعة : الفطنة والشجاعة والعدل والعفة .

(٣) أما تقسيم الفلاسفة للفضيلة ، فهو تقسيم لها حسب الموضوع كما يلي :

أ — فضائل شخصية . مثل العفة والشجاعة .

ب — فضائل تتعلق بالعلاقات بين الناس مثل : الأمانة ، الأدب ، التواضع .

ج — فضائل إجتماعية تتعلق بالأسرة والمهنة والوطن أو الأمة أو

المجتمع (١) مثل الإخلاص فى العمل والإحسان والإيثار .

(٤) والمحدثين تقسيم ثلاثى آخر للفضائل يجعلها كما يلى :

أ — فضائل شخصية : تشمل : ضبط النفس (الشجاعة) وتهذيب النفس (الحكمة) .

ب — فضائل إجتماعية : تشمل : العدل والإحسان .

ج — فضائل دينية : تشمل ما توجبه علاقة الإنسان بخالقه (٢) أى ما يتعلق بالعقيدة والعبادات .

والذى يبدو لنا أن ما حذا بالاخلاقيين إلى تقسيق الفضائل يعود إلى أمرين :

الاول : هو النظر إلى آثارها السلوكية . فتملك الآثار هى التى تظهر أصنافها .

الثانى : ما ظهر من أنه من النادر تماما أن نعتبر على إنسان يجمع كل أصناف الفضائل بدرجات متساوية ، اللهم إلا فى جماعة الرسل والانبيا ، وإنما كل إنسان ميسر لما خلق له ، وتميل نفسه إلى صنف من الفضائل أكثر يتفق مع ميوله وإستعداداته وهداية الله تعالى له . وبذلك نفهم مغزى وصف الرسول عليه الصلاة والسلام لإيمان أبى بكر الصديق بأنه وحده يعدل إيمان أمة . فلا ريب أنه جمع من أصناف الفضائل جميعا ما لا نجده إلا فى أفراد أمة (من الصالحين) متعرفين . ومن الخير لمن هداه الله إلى نوع من الفضائل ألا يقصر همته عليها ،

(١) الاُخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوى - المرجع السابق -

ص ١٥٤ .

(٢) الاُخلاق لأحمد أمين - المرجع السابق - ص ١٥٧ .

يل يسعى إلى العلو بنفسه في أنواع الفضائل الأخرى ، حتى لا نرى من هو فاضل
في العبادات مذموم في المعاملات أو العكس ، أو من يترين بالفضائل العقلية
وليس له في مجال العمل منها نصيب .

هل تكتسب الفضائل ؟

هذا الموضوع شغل الفلاسفة منذ أمد بعيد ، وأجمع فلاسفة اليونان في القرنين
الخامس والرابع قبل الميلاد على أن الفضيلة يمكن أن تتعلم وتكتسب ولكنهم
اختلفوا في الوسائل إلى تعلمها :

أ — فالسفسطائيون وعلى رأسهم هيلاس وبرودكليس رأوا أن الفضائل
تتعلم بالممارسة والتدريب على أيدي معلم الفضيلة .

ب — أما سقراط وتلميذه أفلاطون فقد رأوا أن الفضيلة هي العلم وأنها
تتبعاً لذلك تتعلم وتكتسب كسائر العلوم . ويرى أفلاطون أن الحكيم والجاهل
تلكها يسعى إلى الخير ولكن الحكيم يعرف حقيقته بينما الجاهل لا يعرف إلا
الظواهر فيتصور أن الخير هو اللذة فالفضيلة إذن عند أفلاطون هي العلم بالخير ،

ج — وفي العصر الحديث أنكر فشته أن تتعلم الحكمة وأخذ شوبنهاور يقول
ممكناً : لا يتعلم المرء أن يريد . أما جتنكليفتش فيتسامل :

هل تكتسب الفضيلة أم لا ؟ والجواب : كلا الأمرين معاً : وسيتبقى الجواب
متردداً بالضرورة ، أن الفضيلة لا تعلم لأنه لا شيء جوهرياً يتعلم : فالمرء يتعلم
حسن المعاملة ولكنه لا يتعلم حسن الحركة ، ويتعلم الأدب Politesse لا الرقة
Delicatesse ويتعلم تعازي التماسيح ، لا صدق الدموع وتلقائية التعاطف . انها
أمور ينبغي أن يشتهاقها الإنسان ، أمور لا تحدث بحسب الطالع أو التوصية .

ولا يغنى عنها أى مجهود عقلى أو دراسة (١) .

د : وفى الاصطلاح : لا نجد سنداً للرأى الذى يقول بأن الفضائل يمكن أن تكتسب وتلقن فى جميع الناس بدرجة متساوية ، وهو ما ذهب إليه بعض مفكرى اليونان ، والرأى يحمل فى طياته تناقضه ، ولا يحتاج إلى أدلة لدحضه ، إذ لو صح فكان الأفراد المشابهين فى نشأتهم وتعاليمهم متماثلين فى فضائل نفوسهم ، وهذا لا يحدث حق فى الأسرة الواحدة ، فقد تجد الفرق بين الشقيقتين فيها فرقا ظاهراً وقد يكون أحدهما فاضل النفس والآخر لا حظ له من الفضيلة .. ولكن الصحيح أن الأفراد يختلفون فى الطبع والجميلة (٢) وفى ميولهم النظرية ولولا ذلك ما وصى الرسول ﷺ بحسن التحير فى الزواج فى الحديث : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » ، فى الحديث تنبيهه إلى أثر العوامل العرقية والسلالية فى ظهور أعراض الخير والشر . كما أن الرسول ﷺ يقول فيما رواه أبو هريرة : الناس معادن كعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، وإذا كنا نسلم بتفاوت الناس فى العقول والذكاء ونرى تفارثهم فى صفات الجسد أفلا يكون صحيحاً تفاوتهم كذلك فى مراتب النفوس واستعداد القلوب ؟ والله تعالى يقول : « وإنما يستجيب الذين يسمعون » .

ثم أنظر إلى من نرى : فن الناس ذو الحزم والأخرق ، والرزين ، والاحق ،

(١) الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوى - المرجع السابق -

(٢) الجميلة بكسر الجيم والياء وسكونها الخلقة ومنه قوله تعالى : « والجميلة

والراشد والسفيه ، والغضوب والحليم والمتشائم والمتفائل والشجاع والرعيد ،
تروى ذلك حتى فى الصغار والصبيان . ونجد الرسول ﷺ يقول : « ان بنى آدم
خلقوا على طبقات شتى ، ألا وأن منهم البطيء الغضب سريع النوى ، والسريع
الغضب سريع النوى ، والبطيء الغضب بطيء النوى فذلك بئلك ، ألا وأن منهم بطيء
النوى سريع الغضب ، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع النوى وشرهم سريع الغضب
بطيء النوى » .

ويقول عليه الصلاة والسلام أيضاً : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من
جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض ، منهم الاحمر والابيض والامود
وبين ذلك ، والسهل والحزن والحبيث والطيب » .

فإذا بقي لمسائل بعد كل ذلك ؟ ثم تأمل قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس معادن
كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خييارهم فى الإسلام إذا
فهموا » (١) .

ففى هذا الحديث جملة فوائد تتعلق بالفضائل :

الاولى : أن لكل إنسان طبيعة كالمعدن ، وألا تتغير المعادن برغبة الإنسان ،
فلا تتحول الفضة إلى ذهب ، ومن هنا فمن العسير تغير جملة كل إنسان وما فطرت
عليه نفسه .

ثانياً : أن فى الحديث دليلاً على ذلك ، إذ أن الصحابة كانوا قبل الإسلام
فى الكفر والشرك ، وجب الإسلام ما قبله ، وأصبحوا بنعمة الله أخواناً ،
ولكنهم تفاوتوا رغم أن مصدر العلم والفقه واحد وهو الرسول عليه الصلاة

والسلام . وهذا معنى قوله عليه السلام . . . خياهم في الجاهلية خيارهم
في الإسلام . . .

الثالث : أنه لا يصح الركون إلى أن الفضائل لا تكتسب وأن كل انسان
يسلك حسب فطرته وجبلته ، وتترك التعليم والتلقين والقدرة ، فنحن لا نعرف
جبلات النفوس ، ولا نعرف من هو بحاجة إلى التلقين من هو عنه في غنى ،
ومن هنا وجب تعليم كل من يحتاج إلى التعليم ، وسيتم التفاضل حسبها تتفاضل
ملكاتهم ونفوسهم : وهذا معنى قوله عليه السلام : إذا فقهوا . . .

المطلب الثاني

الضمير

إحتل البحث في الضمير جانباً كبيراً من إهتمام الأخلاقيين في كل العصور ، وليس البحث فيه قاصراً على علماء الأخلاق فحسب بل إنه يشغل كذلك الفلاسفة وعلماء النفس ورجال الدين والقانون ، ونحن حين نرجع إلى اللغة نجد أن لفظ الضمير يعنى السر داخل الخاطر وأضمر في نفسه أمراً أى أخناه والجمع والضمائر ولم نجد البحث في الضمير محالاً عند الفلاسفة المسلمين ولا عند أدباء العرب ، ما يتطلب أن يخص الآن بمناية أكبر لأنه من الموضوعات الأخلاقية الهامة ، وفي ذلك نجد للضمير تعريفات منها : ملكة التمييز بين الخير والشر ويعرفه بواراك بأنه معرفة الخير والشر وهو عند لوسن : ملكة الإقرار والإستئذان (١) .

أما العرب فقد استعملوا لفظ القلب أو الباطن أو السريرة بدل الضمير ويرى البعض أن إصلاح الضمير بمعناه الراهن هو وليد القرن التاسع عشر : وأن العرب قد استعملوا عوضاً عنه كلمة زاجر ، التي تؤدي معناه بعض الأفعال فقالوا : من لم يكن له من نفسه زاجر ، لا تنفعه الزواجر .

ويميز الغربيون بين الضير الخلقى والضمير النفسى .

ويرى الدكتور ابراهيم مذكور أنه ليس في الإنسان ضميران : يفصل أحدهما في الأحكام الخلقية ويتولى الآخر الأحوال

(١) الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوى . المرجع السابق

الذمسية (١) . ولكن الذى نراه أن التفرقة بينهما ، مكنة على أساس أن الضمير إذا كان يراد به الرقابة على النفس وتوجيهها فإن المسائل التى تخضع للقواعد الأخلاقية هى من وظيفة الضمير الخلقى وأما أحـ وال النفس التى لا صلة لها بالأخلاق فهى وظيفة الضمير النفسى وذلك - مثل الرضا أو الغضب أو الندم أو الحزن لغير سبب خلقى مع أن النتائج والآثار فى النوعين واحدة أى بالنسبة للضمير الخلقى والضمير النفسى .

أن وعورة البحث فى الضمير تكمن فى أنه أمر غيبى فالبحث فيه إنما يبنى على الحدس حينئذ أو على النظر المجرد حينئذ آخر ، ولذلك فليس الغموض قاصر أعلى تعريفه وإنما يزداد كذلك بالنسبة للبحث فى كنهه وطبيعته ،

حقيقة الضمير وطبيعته :

إذا استعرضنا آراء المنكرين فى حقيقة الضمير فإننا لا نجد إلا آراء مختلفة بعضها عن بعض وسنشير إليها بإيجاز :

(١) فنحن نجد أولا من يبحثون فى الضمير من الناحية الخلقية أو التكوينية بمعنى البحث عما إذا كان فطريا أو أنه يتكون بمرور الزمن وتوافد المواقف والتجارب . فإذا سلمنا أنه فطرى لم يكن للمواقف والمؤثرات التى تمر بالإنسان دخل فى تكوينه .

(٢) وحق بالنسبة لمن يقولون يتكون الضمير فإن منهم من يقول أن تكوينه راجع إلى قوانين نفسانية أو بيولوجية وهذا رأى علماء النفس .

(١) فى الأخلاق والإجتماع للدكتور ابراهيم مذكور . الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة ٧٤ ص ٠٠

(٣) أما فرويد ومدرسة التحليل النفسى فعندهم أن الضمير هو حاصل أو ثمرة الضغوط الأبوية على الطفل ، وهى ضغوط تتألف من أوامر ونواه وتحريمات يتكون منها ما يسمونه الأما الأعلى الذى يسبق تكوين الضمير الأخلاقى .
ولا يتكون الضمير الأخلاقى إلا من سن الثامنة عشرة فى رأيهم .

(٤) ولكن لعلماء الاجتماع رأى آخر خلاصته أن الضمير حصيلة آلاف الضغوط الاجتماعية على الفرد من المنزل والمدرسة والعرف والتقاليد الاجتماعية وساطان الثقافة والحضارة .

وما الضمير الفردى إلا إنعكاس الضمير الجماعى الذى ولد فيه الفرد وبه نشأ وتكون وذلك لأن المجتمع فى رأيهم حقيقة فوق الأفراد التى يأتلف منها وليس هو حاصل جمع لمزلاء الأفراد بل له ذاتية خاصة تعلو على حاصل جمع الأفراد .

(٥) وقد عارض بعض علماء الأخلاق مذهب علماء الاجتماع السالف ونالوا أن الحياة الاجتماعية لا تخلق الضمائر بل تكيفها وتشكلها (١) .

والحقيقة بعد الإشارة إلى تلك الآراء جميعها أن الضمير هو نافذة النفس الإنسانية على العالم ، وأن القول بأنه صورة من العقل فيه مبالغة وذلك لأن العقل أحكامه لا تتغير ومنطقه ثابت بينما الضمير يتبدل بين لحظة وأخرى ، ثم أن الضمير ليس إدراكا فحسب بل هو شعور بل إن جانب الشعور هو الغالب فيه ، فمن يرتكب جريمة خلقية كالزنا أو شرب الخمر لاشك أن عقله يدرك خطأ ما يفعله ولكن ضعف صوت ضميره هو الذى يدفعه إلى مقارنة الإثم ، حتى إذا

(١) الأخلاق النظرية الدكتور عبد الرحمن بدوى المرجع السابق ص ٦٠

ما استيقظ الضمير ندم وشعر بحزن وأسى ، أما تكوين الضمير فلا أحد يستطيع أن ينكر أثر العوامل الخارجية فيه وأولها تأثير البيئة كالأسرة ، وليست كل بيئة بمؤثرة ، بل هي بيئة من يعجب بهم الإنسان ويتقبل بحب توجيههم ، ومن هنا نفهم السر في أن ابن المجرم قد يكون متدينا إذا أبغض سلوك أبيه واحفظ لنفسه مسلكا آخر كما ذكرنا من قبل ، والإسلام قد إهتم بتكوين الضمير وأبان أهميته ، وأنه صلاح الشخصية كلها ، وفي ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام .. ألا وأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله ، إلا وهي القلب .. ولا شك أن المقصود بالقلب هو الضمير .

ويقول عليه الصلاة والسلام « البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع الناس عليه » وهذا الحديث يدل على أن في النفس الإنسانية حسا خلقيا بالإثم وإذاك يكره فاعل الإثم أن يطلع عليه الناس ، وهذا الحس الأخلاقي هو الضمير .

وقال عليه الصلاة والسلام « البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب . والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وافتوك ، فهذا الحديث أيضا فيه إشارة الضمير الأخلاقي وفي المعنى نفسه قوله عليه الصلاة والسلام « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة » . ونشير أخيراً إلى الحديث الشريف الذي يشير صراحة إلى الحس والضمير الأخلاقي وهو قوله عليه الصلاة والسلام .

« ضرب الله صراطاً مستقيماً ، وعلى جنح الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعند رأس الصراط داع يقول : « استقيموا على الصراط ولا تعرجوا » ، وفوق ذلك داع يدعو كلما هم عبد أن

يُنتج شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتح ، فإنك إن تفتحته تلجسه .
ثم فسرهُ فأخبر : « أن الصراط هو الإسلام وأن الأبواب المفتحة محارم الله
وأن السطور المرخاة خدود الله ، وأن الداعى على رأس الصراط هو القرآن
وأن الداعى من فوقه واعظ الله فى قلب مؤمن ، فهذا الواعظ الذى فى قلب كل
مؤمن هو الحسى الأخلاقى : أى الضمير (١) .

سابعاً : الإرادة :

تقسم أعمال الإنسان من حيث الإرادة إلى أعمال إرادية وأعمال لا إرادية .
فالأعمال الإرادية لا يحاسب المرء عليها ، وذلك لانتفاء القصد وذلك مثل
ما يصدر عن النائم وما يحدث نتيجة الغلط أو الإكراه .

وقد أشار إلى ذلك حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : رفع عن أمتي الخطأ
والنسيان وما استكرهوا عليه ، أما الأعمال الإرادية فهى مناط المسؤولية
الأخلاقية وذلك مثل الغيبة والسخرية والإستهزاء والكذب والبر والإحسان .

تحليل الإرادة :

الإرادة هى المظاهر النزوعى فى سلوك الإنسان وعلماء النفس يقسمون الفعل
إلى مراحل ثلاث يمر بها هى الإدراك ثم الوجدان ثم النزوع ، فالفكرة تأتى أولاً
ثم تنفعل بها النفس ، فإذا قوى الإنفعال إلى درجة معينة أدى إلى النزوع أو
العمل الإرادى . فالمرء قد يكون أمامه أفكار لأعمال متنوعة ، كالتنزه أو الدرس
أو زيارة قريب له ، وما تنفعل له نفسه أكثر يقدم عليه ، فإذا كان وقت امتحان

(١) الأخلاق الإسلامية تأليف عبد الرحمن حسن جنكه الميدانى الجزء الاول .

يغلب الدرس وإذا كان له رغبة ملحة في رؤية قريبه فضل ذلك على سواه وهكذا .
ويلاحظ أن الميل إذن غير الإرادة وكثيراً ما تحدث ميول متعارضة كما في هذا
المثال ولكن الميل الذي يغلب هو الذي يسمى الرغبة . ثم يلي الرغبة العزم
والتصميم وهو ما يسمى بالإرادة التي يتبعها العمل ، وإرادة نوعان من العمل
فقد تكون دافعة وقد تكون مانعة أعني أنها تارة تدفع قوى الإنسان إلى العمل
كأن تحمله على الكتابة أو الخروج للنزهة أو تمنع الفرد عن السلوك كأن تمنع للرم
عن الخطابة أو التحدث .

والإرادة بنوعها منبع لكل الخيرات والشرور فجميع الفضائل والرزائل
ناشئة عن الإرادة . فالصدق والعفة ناشئان عن إرادة الفضائل وترك الكذب أو
الغيبية ناشئ عن إرادة تجنب الرذائل ، والذي يحرك الإرادة قد يكون باعشاً
داخلياً في النفس ، وقد يكون غاية يسعى إليها المرء ، فإذا عاينت محتاجاً إلى
المعاونة فقد تقول أن الباعث لك على المعاونة هو الشفقة بالمحتاج وقد تقول :
الباعث هو مساعدة المحتاج . فالشفقة هي الباعث الدافع والمساعدة هي الباعث
الذاتي (الغاية) (١) .

وفي الإسلام نجد أن الباعث ينبغي أن يكون دائماً باطنياً ومقصوداً به وجه الله
في كل أمر وكذلك الشأن في الغاية ينبغي أن تكون ثواب الله ورحمته أو الخوف
من غضبه وعذابه . ولا يجرز أن يقرن بالبواعث النفسية أو الغايات ما يفسد
العمل الأخلاقي كالرغبة في إمتداح النفس وتركيتها أو إرضاء الناس أو
الخوف منهم .

حرية الإرادة :

ولا يتصور قيام الأخلاق والمسئولية عن السلوك الأخلاقي دون التسليم بحرية إرادة الإنسان ، ودون أن ننساق إلى البحث والجدل في القضاء والقدر ، نقول أن الإنسان حريته في إختيار أى السبيلين يسلك لقلوله تعالى : « وهديناه السبيلين » وقوله سبحانه « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » (١) وقوله جل وعلاه « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » (٢) ويذكر أن فريقاً من الناس قد اشتكوا إلى عبد الله بن عمر وقالوا : يا أبا عبد الرحمن إن أفواماً يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس ويقولون : كان في علم الله فلم نجد بداً . فنضب ابن عمر قائلاً : سبحانه الله العظيم قد كان في علمه أنهم يفعلونها ، ولم يحماهم علم الله على فعلها (٣) . فالمسلم يتحمل مسئوليته الأخلاقية وإرادته هي عمله يوزن به ويحاسب عليه ولو حللنا الأفعال التي تكون السلوك الخلق لكل فرد لوجدناها تنقسم إلى نوعين : إما إمتناع عن فعل ما توجب الأخلاق فعله . وإما فعل ما توجب الأخلاق تركه وعدم فعله ، وهذان القسمان يمثلان الجرم الأول لكل من إبليس وآدم ، بإمتناع الأول عن فعل ما يجب وهو السجود ، وقيام الثاني بفعل ما لا يجب وهو الإقـدام على الأكل من الشجرة .

على أن الإرادة ليست مجرد موهبة ، بل إنها تتطلب تنمية وعلاج ضعفها ويكون ذلك بحمل النفس على فعل ما تكره وترك ما تحب وتحرى ، وفي أحكام

(١) سورة الإنسان : آية ٣ .

(٢) سورة الفاتحة : آيتان ٣ - ٤ .

(٣) الفلاسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامى للدكتور أحمد صبحى - المرجع

العبادات ما يساعد الإنسان على تقوية إرادته من صوم وصلاة وزكاة وحج ،
وأما الإنسان الذى يترك نفسه لما تهوى فلا شك أنه سوف يصيبه ضعف الإرادة
ويصبح عاجزاً عن السيطرة على سلوكه الأخلاقى وتوجيه نفسه الوجهة السليمة
فى الحياة : ولهذا كانت الإسلام موجهة بالدرجة الأولى إلى تركية النفس وتهذيبها
حتى تتمرس بالفضائل وتقوى فيها إرادة الخير ، وليس يكفى أن توجه العناية
إلى توجيه السلوك الظاهر فحسب ، لأنه إذا لم يكن صادراً عن إقتناع داخلى
وعزيمة وإرادة ... فلا قيمة له ولا جدوى منه وسرعان ما ينهار .

المراجع العربية

- | | |
|------------------------------------|------------------------------|
| ١ — القرآن الكريم | |
| ٢ — صحيح البخارى | |
| ٣ — مسند الترمذى | |
| ٤ — مسند ابن ماجه | |
| ٥ — تفسير القاسمى المسمى | |
| محاسن التأويل - الطبعة الاولى ١٩٦٠ | |
| ٦ — تفسير القرآن العظيم | لابن كثير |
| ٧ — تفسير البىضاوى | للبىضاوى |
| ٨ — تفسير المنار | محمد رشيد رضا |
| ٩ — اسماء الله الحسنى | فخر الدين الرازى |
| ١٠ — الأدب المفرد | محمد بن إسماعيل البخارى |
| ١١ — الإسلام وبناء المجتمع الفاضل | د. يوسف عبد الهادى أبو الشال |
| ١٢ — دراسات إسلامية | محمد عبد الله دراز |
| ١٣ — وجود الله | د. يوسف القرضاوى |
| ١٤ — الإيمان | د. محمد نعيم ياسين |
| ١٥ — الأخلاق النظرية | د. عبد الرحمن بدوى |
| ١٦ — الأخلاق | الاستاذ أحمد أمين |

المراجع الأجنبية

- ١ — المشكلة الأخلاقية والفلاسفة
اندرية كيرسون
ترجمة د. عبد الحليم محمود
والاستاذ / أبو بكر ذكرى
- ٢ — الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية
لينى بزيل
ترجمة د. محمد قاسم
- ٣ — علم الأخلاق إلى تيفوماخوس
لارسطو
ترجمة عن اليونانية بارتلى.
وعربه أحمد لطفي السيد

